T
59A

الياس أبو شبكة

وشعره

.....

وضع

رزوق فرج رزوق

.....

رسالة مقدمة الى قسم اللغة العربية

في الجامعة الاميركية ببيروت

للحصول على درجة "ماجستير" في الآداب

حزيران ١٩٥٥

.....

الياس أبو شبكة

وشعره

.....

مقدمة

يشغل اسم " الياس أبو شبكة " من تاريخ الشعر العربي المعاصر مكانة بارزة ، فقد كان شاعرا مبدعا خط لنفسه سبيله ، وأفصح بجرأة عن أعمق أهواء القلب ونزوات الجسد ، وصدق فيما نظمه ونثره وقاله فعبر عن ذاتيته ، في كل أحواله ، أكرم تعبير ، وائتلف فيه الشاعر والكاتب والانسان أطيب ائتلاف .

ولقد ظفر أبو شبكة باهتمام طائفة كبيرة من الادباء والنقاد ، فخصوه ببحوث ومقالات ومحاضرات تناولت جوانب مختلفة من حياته الغنية ، وحبه المضطرم ، وأدبه الحي .. ولكن هذه الدراسات الجزئية المتفرقة لا تغني عن كتاب يرسم لابي شبكة الرجل ، والكاتب ، والشاعر صورة تامة ، واضحة ، منسجمة الاضواء والظلال .

على هدى هذا الرأى حاولت أن أضع رسالتي هذه ، فقد ألممت فيها بحياة أبي شبكة ، لما لها ـ على قصرها ـ من صلة وثيقة بأدبه ، ولما تلقيه من اضواء على كثير من وجهات هذا الادب واطواره ، ثم عرضت ما عالجه من فنون النثر والكتابة مبينا منزلته في كل فن ، وخصصت شعره بوافر اهتمامي ناظرا الى هذا الشعر على ضوء الرومانسية الغربية التي كان أبو شبكة أحد روادها البارزين في شعرنا المعاصر .

ولقد عنيت بأن أضم الى المنهج الفني في الدراسة والنقد المنهج النفسي ، وأظن انني وفقت في هذا المنحى الى جلاء كثير من القضايا التي اختلفت

فيهـــا آراء الكتـاب والنقـاد الذيـن بحثـوا فـي حياة الشاعـر وحبـه وشعـــره ، أو أغفلوهـا . وكـان اجـدى مصادر الدراسـة النفسيـة علـيّ المجـلات اللبنانيـــة الكثيـرة التـي نشـر فيهـا أبـو شبكـة ، خـلال حوالـي خمس وعشـرين سنـــة ، كثيـرا مـن المقـالات والبحـوث والاقاصيـص والتعليقـات والقصائـــد . وقـــد انتفعـت بمـا روتـه لـي أولغـا ساروفيـم (غلـــواء) ، زوج الشاعـر ، وبما ذكـره يوســف أخـوها مـن اخبـار فقيد همـــا .

وبعـد ، فلسـت أزعـم أننـي رويـت عـن أبـي شبكـة كـل مـا يجـب أن يـروى ، ولا قلـت كـل ما يجـب أن يقـال ، فحياتـه ، كحيـاة كـل فنـان كبيـر ، أعمـق مـن أن يسبـرهـا قلـم ، وشعـره ، كشعـر كـل شاعـر مبـــدع ، أوسـع مـن أن يحيـط بـــه كـــلام .

انمـا حسبـي أن تكـون النفـس قـد بذلـت وسعهـا ، وأنهـا مرتاحـــة لمـا بذلـت ، راضيـــة عمـــا أدركـــت .

خـــلاصـــة

تتألف هذه الرسالة من فصول ثلاثة كبيرة . تناولت في الفصل الاول منها معالم من حياة الياس أبو شبكة وتحدثت عن ثقافته المدرسية ، وثقافته العامة التي استمد أكثرها من مطالعاته الكثيرة لروائع الادب الفرنسي والادب العربي وكتاب التوراة .

وتحدثت بعد ذلك عن الياس أبو شبكة في طور رجولته ، فذكرت صفاته واخلاقه وعاداته ثم تابعته في ميدان الحياة فذكرت محاولته التوظف وفشله فيها ، وممارسته مهنة التعليم ونبذه لها ، ثم عمله في الصحافة وانصرافه اليها .

وفي الفصل الثاني "في دنيا القلم" تحدثت عن الفنون الادبية الكتابية التي مارسها ابو شبكة وهي ١ ـ الصحافة والكتابة السياسية التي كان من كتابها المخلصين الجريئين . ٢ ـ الترجمة التي انصرف اليها منذ اول عهده بالادب حتى آواخر عمره وانتج من ثمارها مقالات كثيرة متفرقة في الصحف والمجلات وكتبا وروايات عديدة مطبوعة . ٣ ـ القصة التي تمثلت مساهمته في كتابتها بقصة طويلة هي "العمال الصالحون" وعدة اقاصيص قديمة العهد نشرها في المجلات . ٤ ـ النثر الفني الذي تمثل اكثره في وصفه الطبيعة ولم يسلك فيه طريقة واحدة بعينها . ٥ ـ النقد الادبي الذي مارسه في الصحف والمجلات ونهج فيه منهجا مبنيا على التحرر من تأثير المدارس والنظريات الادبية . وقد أشرت الى ما بين هذا المنهج وبين المدرسة "الانطباعية" ثم مدرسة "النقد التحليلي" من صلة وثيقة .

وفي الفصل الثالث تحدثت عن الياس أبو شبكة الشاعر ، وقد مهدت لهذا الحديث ، بمقدمة عامة ضمت ملامح سياسية وأدبية من لبنان بينت فيها البيئة الادبية الاجتماعية التي سبقت حياة الشاعر ، ثم البيئة التي عاش فيها . وانتقلت بعدئذ الى عرض عام للرومانسية الغربية متتبعا نشأتها في عدة دول اوروبية ومحللا المجرى الشعوري عند الشاعر الرومانسي . ثم تلوت هذه المقدمة بتبيان تسرب الرومانسية الغربية الى الادب العربي الحديث ومشيرا الى نشاط حركة الترجمة من الفرنسية خاصة الى العربية ، والى دور خليل مطران في الحركة الرومانسية في شعرنا الحديث .

وبعد تمهيدي الجو لدراسة شعر أبي شبكة ، تناولت دواوينه الشعرية الستة بالبحث والنقد ، بادئا بالقيثارة - باكورة نتاج الشاعر - وقد جعلت من الصراع بين الواقع والمثال مفتاحا لدراستها ، وبينت ما لها من أهمية .

ثم درست "غلواء" القصيدة الطويلة التي تضم حب الشاعر الاول ، المتأثر بالرومانسية بشدة ، ثم " افاعي الفردوس " التي تمثل الصراع بين حبين : الاول نقي عذري والثاني واقعي جسدي ، وتمثل ايضا نقمة الشاعر على المجتمع "الشرير" . وتلوت دراسة " أفاعي الفردوس" بدراسة " الالحان ومقتطفات من غلواء " فبينت ما تشير اليه هذه المجموعة الشعرية من تطور شعر أبي شبكة ونفسيته ، وعودته الى الهدوء والفرح وتفننه في اختيار الاوزان والقوافي وتنويعها . وفي " الى الابد " أوضحت أن ما في هذه المجموعة من شعر قد قاله الشاعر في حبيبتين هما "هدى" و "ليلى" وبينت ما في هذا الشعر من ملامح صوفية . وفي "نداء القلب" وهو آخر دواوين الشاعر ، ذكرت ما اتصفت به مقطوعاته من وحدة شعورية ، وما اتسم به أسلوبه من انسجام وتماسك .

وختمت حديثي عن شعر أبي شبكة بعرض عام للقصائد التي نشرها في الصحف والمجلات ولم تضمها دواوينه الستة ، وأوردت نماذج منها .

وأنهيت الرسالة ذاكرا موت الشاعر عام ١٩٤٧ ، والمنزلة الادبية العالية التي احتلها اسمه .

فهـــرســـت

	صفحة
مقـــدمـــة	
خـــلاصـــة	
الفصل الاول : الياس أبو شبكـــة	١
أ ـ الياس أبو شبكة التلميـــذ	٦
ب ـ الياس أبو شبكة الرجـــل	١٣
جـ ـ في ميدان الحيـــاة	٣٩
الفصل الثاني : في دنيا القلـــم	٤٧
أ ـ في الصحافة والكتابة السياسية ـ الرسوم	٤٨
ب ـ في الترجمـــة	٥٨
جـ ـ في القصـــة	٦٠
د ـ في النثر الفني	٦٨
هـ ـ في النقد الادبي	٧٥
الفصل الثالث : الياس أبو شبكة الشاعـــر	١٠٥
أ ـ ملامح سياسية وادبية من لبنـــان	١٠٦
ب ـ الرومانسيـــة	١١٦
جـ ـ الرومانسيـــة والادب العربي الحديث	١٣١
د ـ أبو شبكة في طريق الشعـــر	١٣٧
هـ ـ صراع بين الواقع والمثـــال	١٤٢
و ـ "القيثـــارة"	١٥٧
ز ـ "غلـــواء"	١٧٦

صفحة

ح — " افاعي الفردوس " ٢٠٧
ط — " الالحان ومقتطفات من غلواء " ٢٣٨
ى — " الى الابد " ٢٥٤
ك — " نداء القلب " ٢٨٣
ل — " من صعيد الآلهة " وقصائد اخرى ٢٩٩
م — نهاية الطريق .. ٣١٨
ن — المصادر ٣٢٢

الفصـــــــــل الأول

الياس أبـو شبكـــــــة

في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٧ كانت شفتان تبتسمان ... فوق كآبة عميقة وداء عضال ، فينظر اليهما الردى في عجب وتساؤل .

ومن ثنايا الابتسامة الشاحبة كان صوت الشاعر يهمس في مسمعي عائده : "عصفـور صغير ! طار ، طار ، وهبط ... ما يستطيع عصفور صغيـر ؟ !" (١)

وبعد يومين ظفر الردى او هكذا خيل اليه ! فقد رأى العينين اللتين تفتحتـا للحقيقة والجمال تغمضان ، ورأى القلب الذي خفق كثيرا وأحب كثيرا يسكت ولا يرف لـه جنـاح !

هكذا خيل الى الردى ، فكذبته كل نفحة من عواطف الشاعر ، وكل خفقة من قلبه ، وكل اشراقة من شعره الحي النبيـل .

واليوم بعد سنين ثمان ، يطل علينا محيا "الياس أبو شبكة" بما في وجه "العصفور الصغير" من وداعة وبما في وجه النسر من اباء ... ومع هذا المحيا الوديع تقبل علينـا من آفاق الشاعر أغاريده وأشواقه لتحدثنا عن مجد الشعراء ..

---

(١) فؤاد حبيش : الياس ابو شبكة . دراسات وذكريات ص ١٦٤ . (سيكثر الرجوع الى هذا الكتاب الذي اصدرته "دار المكشوف" ببيروت بمناسبة مرور السنـة الاولى على وفاة ابي شبكة . وقد كتب دراساته ومواضيعه القيمة اربعة وعشرون أديبا ، جلهم من اصدقاء الشاعر الراحل ومواطنيه . وتوخيا للاختصار سأشير الى هذا الكتاب باسم "دراسات وذكريات" ذاكرا معه اسم الكاتب صاحب الدراسة او الموضـوع .

من هو الياس ابو شبكة ، هذا الشاعر الذي سقى الشعر من جروحه العميقة ،[١] وابتسم وسخر أمام وجه الموت الكالح ، وعاش بعد موته في زمن يموت فيه الكثيرون قبل دفنهم ؟!

في سنة ١٩٠٣ ، في بروفيدانس بالولايات المتحدة ولد الياس ابو شبكة ، في اثناء رحلة لأمه في تلك البلاد . وكان مولده في بيت خال امه الياس فرزان .[٢]

أما والداه فلبنانيان صميمان ، ومسيحيان مارونيان . أبوه يوسف أبو شبكة من أبناء " ذوق ميكائيل " احدى قرى قضاء كسروان ، وهي قريبة من ساحل البحر الابيض المتوسط ولا يتجاوز سكانها ألفي نسمة . وأمه نائلة من أسرة الشهبا المعروفة في " عجلتون " ، وهي احدى شقيقات ثلاث تلقين العلم في مدرسة " عينطورة " للبنات[٣] . وقد ماتت في ١٥ نيسان ١٩٥٥[٤] .

وحل بباريس وهو ابن بضعة شهور ، ثم لم يلبث أن حل في موطن أبويه وأجداده . وفي البقعة الجميلة الممتدة بين ذوق ميكائيل وبيروت قضى صباه ومعظم حياته .

نشأ شاعرنا في هذه المنطقة الغنية بالحسن وربي في " بيت مستور . تدخل ذلك البيت ، وهو ما زال كما تركه المورث فتراه حارة تدل على يسر صاحبها ، فحيطانها مدهونة ، وأرضها مفروشة بالبلاط الرخامي ، وغرفها واسعة وعالية والدار فسيحة . وهذا هو طراز

---

(١) اشارة الى بيته : اجرح القلب واسق شعرك منه فدم القلب خمرة الاقلام "غلواء" ص ٦٥

(٢) الياس ابو شبكة : مجلة الحكمة ج ٢ ص ١٩ سنة ١٩٥١ (المقالة منشورة بعد وفاته)

(٣) فؤاد حبيش : دراسات وذكريات ص ١٦٢

(٤) اولغا ساروفيم (زوجة الياس ابوشبكة) : من حديث خاص معها ، أذنت بنشره .

البناء البرجوازى اللبناني . كأنما أعد ذاك البيت الرفيع العماد ليأوى اليه شاعر ثائـــر شقي ، بائس تأبي عليه أنفته أن يظهر امامك في مباذله، فاستطاب شقاءه، والشقاء هو الحياة بل لا لذة للحياة اذا لم يكن الشقاء .(١)

وفي سنة ١٩١٤ بدت بوادر هذا الشقاء . فقد نكب الشاعر بمصرع أبيه، اذ اغتالـه لصوص ، وهو في رحلة له من بور سعيد الى الخرطوم في السودان . وكان قد اتجه اليهـا ليتفقد املاكا له فيهـا . ودل على مقتله ساعة له كان يعرضهـا أحد القتلة للبيـع (٢).

كان الخطب جللا . فقد كان هذا الاب يحب ابنه أعظم الحب ، وكان الابن يبادله هذا الشعـور .

كان الاب من عشاق الاسفار لا يكاد يستقر في بلد ، وقد زار في رحلاته المتعـــددة بلدانا كثيرة منهـا مصر، والسودان، وافريقيا ، وفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة والبرازيـــل . ولكنه كان، اذا أقبل عيد الميلاد ، يعود الى بلده فيقضي فيه أيام العيد ، ويحتفل مع اهلـه وصحبه باستقبال السنة الجديدة . كان اذا عاد ، يسرع الى المدرسة فيحمل ابنه الى البيت ويغمره بالحب والاعزاز فيطرب الابن ويبتهج وتملأ السعادة قلبه الصغير . اسمعه يقـــول : " ٢٤ كانون الاول ١٩١١ لم أنم تلك الليلة ! فالغبطة كانت تداعب قلبي الطفـل وتغمره بوعود كثيـــرة .

---

(١) مارون عبود : جدد وقدماء ص ٢٠٢

(٢) يوسف سليم ساروفيم (شقيق اولغا) : من حديث خاص معه أذن بنشـره

غدا، غدا يفاجئني المحافظ بأن والدى ينتظرني في القاعة ليحملني الى البيـــت.
وفي البيت أجد كل انواع الحلوى تنتظرني، وقد تقع عيناى على ثلاث [1] مجيديات او اربع [1] ملقاة على السجادة بجانب الملبس وعلب الحلوى وعفاريت الغرب والشرق.

وغدا، غدا يصرف والدى الحنون الباسل سهرته في البيت تكريما لطفله العائد مـن المدرسة" [2].

كان أبو شبكة هانئا بحنان أمه وأبيه، يعيش في راحة ويسر حتى اغتيل هذا الاب الحنون الباسل في ديار الغربة. كان وقع النعي على أبي شبكة شديدا صاعقا، وكانت أثاره عميقـــة الجراح ...

انه يتحدث عن الساعة التي عرف فيها نبأ وفاة ابيه، وعن أساه وبكائه، وعن الايام السود التي تلت الوفاة، بقلم يسيل دمـا: " ٢٥ كانون الاول ١٩١٣ ـ في صباح ذلك اليوم دعيت الى غرفة الكاهن الجليل العالم الاب دياب ـ رحمه الله ـ فقال لي وهو يبتسم ابتسامـــة كئيبة غامضة: " سأحل اليوم محل والدك، يا بني." ولا ازال الى اليوم أشعر بتلك القشعريرة الموجعـــة التي أشاعتها هذه الجملة في جسمي، فقد احسست في تلك اللحظة بأن حياتـي انتقلت من طور الى طور، ولا أعلم أية فطرة ألهمتني الحقيقة فرأيت وجه والدى يتوارى الـــى الابد! على اني لم أنبس بكلمة، وتبعت الكاهن الجليل الى المركبـة.

وبينما نحن في الطريق قال لي: " والدك مريض" فلم أجب. وبعد هنيهـة قال لـي " أتحب والدك ؟" فبقيت صامتا! وكأنه شعر بما في نفسي فقال، متشجعا: " والدك في السماء يا بني." فأجهشت فـي البكـاء.

---

(١) كـذا فـي الاصـل
(٢) مجلة الجمهور. العدد ٦٤ ص ٤ السنة ١٩٣٨

ومرت الايام، وتلتها الايام . سواد حالك في البيت، وسواد حالك في نفسي ." (١)

ولقد كان من آثار هذه النكبة سواد ثالث سنراه في الكآبة التي توشح كثيرا من شعر "القيثارة" اولى مجموعات ابي شبكة الشعرية . هذه المجموعة التي تتقدمها، وتقدمها الى القراء كلمة للشاعر منها : يا أبي ، لقد فتكت بك يد أثيمة في بلاد الغربة بعيدا عن زوجك وصغارك، فخلفت الياس في صدر امي والاسى في قلبي !

كنت في العاشرة من عمرى يوم توارى وجهك اللطيف الى الابد ، وكنت لا ازال ادفأ بين جناحيك، وها انا اليوم في الثانية والعشرين، في عهد الشباب ، في عهد الجهاد والالم . . .

يا ابي لقد توالت الايام العديدة وهي اشد سوادا من ظلمة قبرك ، وانا ثابت في مبادىء كالارزة في وجه العاصفة ، اود شكاة فلا أجد من يصغي الي غير روحك المرفرفة فوق رأسي . . ." (٢)

---

(١) الجمهور . العدد ٦٤ ص٤ سنة ١٩٣٨

(٢) القيثارة ص ٣

الياس أبو شبكة

التلميذ

لقد بدأت ثقافته المدرسية بتلقية العلم في مدرسة عينطوره كان يقصدها من الـــزوق صبيحة كل يوم . وقد علق حقيبة كتبه بعنقه، ودلاها على جنبه . وكان الشتاء وبرده يؤخرانه في كثير من الاصباح عن ادراك الدرس الاول في موعده، فيتعرض الى انتهار من رئيس المدرسة او تهديد يألم لهما أشد الالم ، وقد يثـور (١).

كان ابو شبكة في الصف التاسع سنة ١٩١١ ـ ١٩١٢ وسنة ١٩١٢ ـ ١٩١٣ وانتقل الى الصف التاسع سنة ١٩١٣ ـ ١٩١٤ .

ثم نشبت الحرب العالمية الاولى وعطلت الدروس في معهد عينطوره، فتابع الدرس علـى نفسه على الارجح . ولما سكنت ثائـرة الحرب، استأنف دروسه في مدرسة ثانية هي مدرســـة الاخوة المريميين في جونيه ولكنه لم يقض فيها غير سنة واحدة .

ثم عاد الى مدرسته القديمة فالحق بالصف الرابع (ب) سنة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ وبالصـــف الرابع(١) سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ . وكان هذا الصف اعلى صف في تلك السنة التمهيديـة(٢).

ويروى عنه رفاقه ، وفيهم اليوم الاديب اللامع ، والشاعر المجيد ، والمحامي البارع اخبـارا كثيرة منها ، انه كان يتصف بشيء من غرابة الاطوار ، وانه لم يكن التلميذ الساكن ، المستكين . " وانه كان " فتى نحيلا اسمر المحيا، اسود العينين له جبين أقرب الى الضيق منه الى السعة وانف مضطرب الرقيقين ابدا ، وذقن حسنة التكويـن . " (٣)

---

(١) ادوار البستاني : الياس ابو شبكة . دراسات وذكريات ص ٥٨ ـ ٥٩ .
(٢) فؤاد حبيش : دراسات وذكريات ص ١٥١
(٣) دراسات وذكريات ص ٥٩ .

وفي السنة الاخيرة التي قضاها في هذا المعهد كان في الصف الثالث العربي . وقد نشب خلاف له مع استاذه الخوري الياس الحايك ، وكان الخلاف على قاعدة نحوية . قال الاستاذ : ما جاء سوى رجلٌ واحد . واعترض التلميذ فقال : ما جاء سوى رجلٍ واحد . وكان الصواب الى جانب التلميذ . وأحسب أن الاستاذ ، وهو كما يذكره عارفوه ضليع من اللغة — تسرع فاخطأ في القاعدة النحوية، وانه اصر على رايه لانه احس في موقف تلميذه تحديا واستثارة . فقد كان له في بدء الدرس مع هذا التلميذ شأن . انتقد له موضوعه الانشائي — وهو كتابة رسالة من تلميذ الى ابيه — انتقادا لاذعا ، لا بد أن يكون قد اوغر صدره ..

كان التلميذ موتورا . بل انه ليعترف بهذا ، في ذكريات مدرسية له، فيصح بجرأة — والياس جريء في الحق حتى على نفسه — بانه كان يومذاك متعجرفا مغرورا ، ويعترف بانه أضمر لاستاذه شرا . فلما سنحت الفرصة خطّأه ، واستثاره . فلما ثار الاستاذ ونزل عن منبره غضبان وصفع تلميذه ، هبت العاصفة بكل شدتها ، يقول ابو شبكة : . وما كاد يفعل حتى رشقت المنبر بكل ما امامي من الكتب والدفاتر صارخا : بالكسر . بالكسر . وخرجت من الصف كالصاعقة وبقيت اعربد حتى دخلت على الاب سرلوت فقصصت عليه الفاجعة ثم أكدت له أني أحذق بالعربي من المعلم .. فأشار الاب الرئيس الى الباب وقال بهدوء :

اخرج

فخرجت ..

على اني لم أعد الى الصف بل عدت الى قاعة الدرس حردا متمردا .. ومنذ ذلك اليوم انقطعت عن الدروس العربية في مدرسة عينطوره . وكثيرا ما كان الاب سرلوت يلومني

على تشبثي في عنادي. ولكن عيل صبره في النهاية ، فأهملني ." (١)

على ان من الانصاف لابي شبكة ان نذكر انه لم يكن وحده التلميذ " العاصي " المتمرد ". يعترف بهذا زميله يومذاك ، الشاعر ادوار البستاني ، ويعلله بقوله :

" نحن في السنة الالف والتسعمائة والحادية والعشرين، والمعهد يموج بمئات من الفتيان وردوا مناهل المعرفة من مختلف أصقاع هذا الشرق الناهد للنور. أحداث معظمهم داخلي ، وأقلهم خارجي ـ ومنهم الياس ابو شبكة ـ يختلفون الى المدرسة من القرى والدساكر المجاورة، المنثورة على هضبات أنقية مستطيلة ، كانها السواعد المنبسطة حيال البحر .

وكنا جيلا أدركتنا الحرب الكبرى في طفولة الدراسة ، فعاقتنا عن الاقتباس اربع سنوات كاملات ، رجعنا بعدها الى مجابهة الاستاذ بشيء من نزعات العصيان والتمرد ، لما سبق أن تذوقناه من حلاوة الحرية في ملامسة الجمال . هذا كان شأننا في عينطوره عهدئذ : فتية أشرفوا على الشباب الى جانب صبية مرد في الصف الواحد . وانها اذن لذهنيات متفاوتة متضاربة تعيّن على المعلم أن يعمل فيها صهرا وادماجا ويسيّرها في نظام واتجاه محكمين ."(٢)

---

(١) الجمهور. العدد ١١٠ ص١٢ سنة ١٩٣٩. يقول فؤاد حبيش في ذكره هذه الحادثة ان ابا شبكة غادر مدرسة عينطوره منذ ذلك اليوم وعاد الى منزله في الزوق. والصحيح أنه لم يغادر المدرسة. يؤيد هذا ابو شبكة نفسه. راجع ما ذكره حبيش في كتاب : الياس أبو شبكة . دراسات وذكريات ص ١٥٢.

(٢) دراسات وذكريات . ص ٥٧ ـ ٥٨.

وأبو شبكة في حديثه عن معهده وأساتذته ، يفيض حبا ووفاء واعجابا . يحدثنا عن هذا المعهد فيقول : " وليس فينا من يجهل ان هذا المعهد الشبعان من الايام أعطى الشرق في المئة السنة التي تصرمت من شبابه مئات من كبار الشارعين ، ومئات من كبار الاطباء ، ومئات من كبار المهندسين ، ومئات من كبار السياسيين والحكام والجنود " ويذكر فضله في تعليم الفرنسية فيقول : " ومعلوم أن السوريين واللبنانيين كانوا قبل تأسيس مدرسة عينطوره لا يتكلمون مع العربية الا اللغة الطليانية . . ولاجل ذلك قررت الاكاديمية الفرنسية في العام ١٩٣٦ منح هذه المدرسة الجائزة الكبرى للغة الفرنسية" (١).

ويصفه فيقول : " هذا المعهد الرابض على اسنى هضبة ، المشرف على أجمل شاطىء ، المغمور بأطهر جو ، الناشق أنقى عبير ، المحفوف باروع اطار .

فهذه الاكمات السبع من جبل حريصا ، وهذا الخليج كانه قصعة حليب فاض من تلك الاثداء السبعة . هذه الاحراج على منحدرات بكركي تبدو كانها شلالات خضراء ، وهذه الاديار المستقلة على الربى كانها نسور الهية تصغي الى اصوات لا يسمعها الانسان . هذا الجلد الصافي ، وهذا الاديم الطيب . هذه الكنوز المتناثرة من يد السماء ، لمن اوجدها الله ؟ لمن برأ الله هذه الجواذب الفتانة ان لم يكن للشاعر ؟ " .

ولقد رثى أبو شبكة الاب ارنست سرلوت أطيب رثاء ، فذكره محبا للبنان ، وأبا بارا بالابناء ، وصديقا وفيا للاصدقاء ومحسنا عاطفا على المحتاجين ، وشاعرا صادقا مجيدا .

قال يصفه ويرثيه : " وجه نضير أشرقت على قسماته هيبة ما رؤى أنبل منها على وجه انسان . . . وهل في أخلص اللبنانيين من ادى الى لبنان ما أداه هذا الصديق ؟ اربعون سنة من حياة قصيرة ، كلها ثمار لبنانية" (٢).

---

(١) مجلة المكشوف . العدد ٣٦٥ ص ٤ سنة ١٩٤٤ .
(٢) المكشوف . العدد ٣٥٦ ص ٥ سنة ١٩٤٤ .

وألقى في معهد عينطوره، وفي محطة راديو الشرق حديثا عنه عنوانه " الكاهن الشاعر". قال فيه : " ويقيني ان احسن ما اعطى الاب سرلوت في حياته، وخير ما سيبقى منه هو هـــذا الشعر النابض بالصدق القائم على أمتن دعامة من القيم الادبية... لقد عرف الكثيرون الاب سرلوت. عرفوه رجلا ياخذ جمال طلعته العين ، ومحدثا يداعب النفس ويطرب الاذن ، وشخصية تفرضها هيبة ووقار ، وأبا يتعهد ابناءه بانواره وقلبه ، وعرفوه محسنا يعطف علـــى الفقراء ويساعد المحتاجين ، وصديقا صادقا يرجى في الملمات ، ويغضي عن السيئات ، ولكـن هذا ليس من الاب سرلوت الا بعضه القليل . فهذا المرسل ، هذا الجندي ، هذا المربي ، هوية الثمانين قصيدة التي اعطاها قلبه ، وعقله. وغيرها كلها مكتوبة بخطه الجميل في دفتر مجلد لا تتجاوز صفحاتـه الثلاثمئـــة " (١).

ظل أبو شبكة وفيا لمعهده، يذكره بالخير ، ويزوره ، وينوه بمآثره ، وحفظ المعهـــد لتلميذه عهد الوفاء ، وسره ان يفخر به. فهو ، وان لم ينه دروسه في المعهد قد " تـــرك فيه اثرا حسنا وحمل منه اثرا جميلا . يدلك على ذلك حرص المدرسة على ذكره في عداد متخرجيها النابهين على كونه لم يتعرس في صفوفها زمنا مديدا .." (٢)

وما يزال معهد عينطوره قائما حتى اليوم ، ومديره الاب جوبان الذي خلف الاب سرلـوت (٣).

الى جانب اتقان ابي شبكة العربية ، وتفوقه فيها في عهد تلمذته الى حد يحملـــه على نظم الشعر فيها ، وتحدي استاذه في معرفتها ، نجده يتقن لغة ثانية هي الفرنسيـــة ، ولقد بلغ اتقانه لها انه شرع ينظم فيها الشعر ، وهو في السادسة عشرة او دونهـــا .

---

(١) المكشوف . العدد ٣٥٩ ص ٧ سنة ١٩٤٤.
(٢) ادوار البستاني : دراسات وذكريات ص ٥٩.
(٣) يوسف سليم ساروفيم : من حديث خاص اذن بنشـره .

وقد روى انه في عام ١٩١٩ نظم في ربع ساعة ثلاث رباعيات باللغة الفرنسية، تحية للكردينال ديبوى، رئيس أساقفة روان، عندما زار المطران يوسف الخازن في الزوق. وألقاها امام موكبه في الطريق، بعد أن استوقفه بجرأة واعتداد بالنفس والشاعرية. فلما انتهى من الالقاء قال الكردينال : "Il mérite une médaille cet enfant"(١)

ويتحدث أبو شبكة عن موقفه هذا فيقول : "وتناول من جيبه ايقونة من الفضة تزن ربع اوقية وناولني اياها وباركني. ويظهر ان الجمهور ظن الايقونة رصيعة لكبرها فشاع في البلدة أن الكردينال قلدني نيشانا بابويا... وما هبم الليل حتى غص البيت بالمهنئين" (٢).

واستمر، حين اغلقت مدرسة عينطوره بسبب الحرب، على الاهتمام باللغة الفرنسية يقرأ ادبها نثرا وشعرا، فيزداد من اللغة تضلعا، ومن ادبها نهلا. وفي "القيثارة" نجد قصائد عدة نقلها شعرا عن الفرنسية. وسأعود الى الحديث عن ثقافته المتأثرة بالادب الفرنسي، في موضع آخر.

---

(١) (انه يستحق وساما، هذا الطفل)

(٢) الجمهور. العدد ٦٢ ص ٢٢ سنة ١٩٣٧.

الياس أبو شبكة

الرجل

لقد عرفنا أبا شبكة طفلا سعيدا لاهيا ناعما بحنان الوالدين في بيت ميسور الحال، وفي ارض ثرية بالحسن والرواء .

وعرفناه، بعد هذا، طفلا في العاشرة من عمره، يتيما، شقي القلب.

وتتبعنا خطاه الى المدرسة، ينهل العلم، ويطرب للادب، ويحب المعلمين .

أما الان فقد حان لنا أن نتعرف عليه وهو أتم ما يكون نضجا وشاعرية، وأنشط ما يكون فتوة وشبابا .

لن نبحث عمن يعرّفنا به، فها هوذا بصراحته المعهودة، وقلبه الطيب، وابتسامته الصادقة يمد الينا يده ويقول متحدثا عن نفسه :

أنـــــا !

أما الان وقد بلغت الثامنة والعشرين من عمري فيصح ان اقف امام المرآة وارسم هيكلي الخارجي، ثم اعود فارسم نفسي واخلاقي وعاداتي ، معرضا في الحسنات القليلة التي علقتها بي الطبيعة .

يبلغ طولي مئة وثلاثة وسبعين سنتيمترا .

قامة رقيقة منتصبة تزن سبعين كيلو مع الثياب والعصا .

جبين بين العريض والمعتدل ، ابتدرته الغضون منذ عشر سنوات، وتسنمت ذروتـــه شعور مشعشعة ثائرة كانما هي انموذج عما في الصدر من البراكيـــن .

بعيد ما بين الحاجب والحاجـــب .

أنف كبير فيه كثير مما تحمل الاساطير عن انف سيرانو ده برجراك .

خدان هزيلان الا اذا ضغط الطوق على العنق فيستمدان من هذا الاخير بعـــض السمنة . اما بشرة الوجه فتتحير بين السمرة والحنطة، وتطفو عليها سحابة من الشحوب . . .

اذا انحدر نظرك عن رأسي بصرت بكتفين يرتفعان تارة ويهبطان اخرى كانهمـــا موجتان في بحر هائج . اما اذا قدر لك ان تمد يدك الى جيوبي ـ ولا اخالك تقدم علـى هذه المحاولة الخاسرة ـ فتقع على اوراق غريبة لا يدرك قيمتها الا من يعيش كما اعيش . ففي " صدريتي " اربعة جيوب مورمة الجوانب تغور في احدها القائم في الجهة الشماليـــة العليا اوراق تحمل تصاميم قصائد لم أنظمها وقد التصقت عليها اوراق أخرى تقل شـــذرات في وصف هيكل من هياكل رجال السياسة في هذا البلد وقد كتبتها في ندوة البرلمان او في أحد اروقة السراي . وتكمـــن في الجهة الشمالية السفلى من جيوب صدريتي أوراق تستريح عليها مقاطع ناقصة نظمت بعضها في ساعة يأس والبعض الآخر في ليلة خمر ، تجاورهـــا ورقات يكاد الزمن يفصل بين طياتها المعششه فيها نتف من وبر الجوخ أو من احشاء البطانة، يحمل بعضها ألوانا من التهديد والشتائم موجهة الى بعض المسودين في هذا البلد لـم أجرؤ أن أقولها له في وجهه فاكتفيت بكتابتها على علاتها ووضعها في جيبي ، ويحمل البعض الآخر عبارات عذبة موجهة الى الشخص نفسه وقد سمعت عنه ما محا غضبي الاول عليه كهذه مثلا : " لقد صفحت عنك وصرت أحبك . . . انك لرجل طيب خلافا لما بلغني عنك . . . ساكرمك عندما تسنح الفرص . " أما الجيب القائم في الجهة الغربية العليا من صدري فهو أظهـــر

الجيوب ورما لانه يحمل رسائل مدح من بعض تلاميذ المدارس المأخوذين بشعري، ورسائل اخرى يحثني اصحابها على الاسراع بطبع "غلواء" وقد فاتهم أني لم أنته بعد من نظمها. وأما الجيب الرابع فلا أثر عليه من طيب العافية لاني جعلته وعاء للدراهم. وقد تجد بين تلك الطوائف من الاوراق صورا فوتوغرافيه عزيزة على قلبي ... أستوحي أشباحها في لياليي الشعرية اذ أكون بعيدا عن حقائقها الجميلة.

انهض من الفراش في الساعة الخامسة صباحا فاتناول قليلا من الطعام ثم أشعل النارجيلة وأضع امامي ركوة قهوة كبيرة وانصرف الى الكتابة .....

أصل الى بيروت في نحو الساعة التاسعة والنصف وبعد أن أدفع مقالتي للنشر أجول بعض جولات صحافية ثم أنزوي في الناحية العميقة من قهوة "النجار" واكتب رسالتي الى مصر. لا شك أن المقالة التي أبعث بها الى مصر تكون اجرأ وأصدق ما اكتب، ولا سبيل الى ذكر السبب في ذلك.

عندما أنتهي من كتابة رسالتي أبعث بها الى البريد ثم انصرف الى تدوين مذكراتي. وفي الندر ما ينجو البشر من غضبة عليهم في كل مذكرة أكتبها .....

كنت في الماضي انطوى على عقلية غير التي انطوى عليها اليوم. وكانت هذه العقلية تريني الصواب في جانبي والحقيقة في جميع نزعاتي. وكنت كلما خطوت بضع خطوات في ساحة العمر والاختبار وعقبت بالتذكار الى الماضي اتضح لي أن تلك العقلية كانت شاذة لا تتفق والمبادىء الصحيحة التي أرمي اليها. ولا أزال الى اليوم أنقض مباني الماضي معتقدا أن الحاضر هو الحقيقة الثابته التي لا شك فيها. الا اني وان اكن أعترف بسلطان الحاضر على الماضي وتفوق الاختبار على نزعات الغريزة في الرجل فما أزال أجد في مشتهياتي الحاضرة وأهوائي وعواطفي أثرا من مشتهيات وأهواء وعواطف كانت تغبني متباينة في أطوار حياتي الماضية؛

فالأثرة المتجسمة، والكبرياء والتطلع الى العلاء الاعلى ، وميولي الغريبة، وأهوائي ، وعجرفتي وكل ما يخيل الي اليوم انه كان شذوذا في حياتي لا يزال ممتزجا في دمي ومماشيالتطوراتي ، ولكن في شكل يختلف عنه في الامس البعيد (١).

وتحدث مرة أخرى عن نفسه . كان ذلك بعد سنين خمس، وردا على سؤال وجهته اليه والى غيره مجلة الجمهور ، هو :

لو لم تكن أنت نفسك فمن تود أن تكون ؟

فكان جوابه :

" جردني من غروري وآمالي لا ستطيع أن أجيبك، لاقول لك من أريد أن اكون، والافسلني من أريد ألا أكون .

أريد أن أجمع في نفسي كل ما في الحياة من العظمات والامجاد والغنى على اختلافها ولا أريد أن أتخلى عن شيء مما في نفسي لان هاتفا داخليا عميقا يقول لي : " ستبلغ بأشيائك كل ما تطمح اليه فجميع عناصر الرجولة متوفرة فيك .

أريد أن أكون جميع الناس مع احتفاظي بنفسي .

أرى في نفسي جميع الغضائل ولا أرى عيبا فيها فكيف تريد أن أتخلى عنها وأتمنى شيئا أجهله .

---

(١) مجلة المعرض : العدد ٩٥٥ ص ٨ سنة ١٩٣١ ودراسات وذكريات ص ٩ ـ ١٥

ما دام الامل والغرور مستوليين على نفسي فكيف أستطيع أن أكون غيري أنا نفسي وكيف أجرؤ على أن لا اكون أنا نفسي .

اذن في نفسي ، في أعماقها هاتف يقول لي : "كمّل نفسك !" (١)

هكذا رأى الشاعر نفسه، وهكذا رآه اصدقاؤه وعارفوه . فها هوذا "بدوي" يرسمه على صفحات المعرض بصورة قلمية فيقول :

" وتراه ماشيا فترى قامة منتصبة نحيلة ، وبيده عصاه يدغدغ بها الارض ، وهي بيده بشكل منفرج الزاوية وتلمح كتفيه فتراهما يعلوان ويهبطان الفترة بعد الفترة كانهما جناحان يحاول الطيران بهما ليلحق بخياله المحلق في فضاء اللانهاية ..... عيناه لا تفتحان بكامل فتحتهما الا نادرا ..... وتحادثه فتسمع نبرات خافته، بصوت مقتضب ... " (٢)

وها هوذا صديقه الاستاذ قيصر الجميل يرثيه، فيقول :

حياك الله وبياك ! لقد اشتقنا الى هذه التحية العفوية التي كنت تنثرها يمنه ويسارا على اصدقائك الكثار ، كما اشتقنا الى صوتك العميق الدافئ ، وقامتك الطرية اللينة، ومشيتك المتمايلة، الموقعة على نغم يعزف لك، لك وحدك، فتصغي اليه أذناك المتنبهتان ، وتصغي خصلة الشعر تفيء الجبين العالي الفخور، وترددة نقلة قدميك الخفيفتين ، فتمسان الارض مساً دون ان تدوساها ، كما تمس الاصبع الوتر، فتولّد كل لمسة ألوف الارتعاشات لا ينقطع لها صدى . " (٣)

---

(١) الجمهور . العدد ٤ ص ٨ سنة ١٩٣٦ .
(٢) المعرض . العدد ٩١٩ ص ١٠ سنة ١٩٣٠ .
(٣) دراسات وذكريات ص ١٢٣ .

وها هوذا صديق آخر يصفه، مندفعا من الشارع الى مكتبه، كأنه العاصفة الحائرة ، لا تدرى ما تريد ، ومستقرا في مجلسه بعد مناورات واضطراب.

" كان الياس ابو شبكة هكذا :

يقطع الشارع الى حيث يريد ، جبارا يصول ويجول ، شامخا ما يدرى من نفسه أهو خاطر تحت السحب أو فوقها . فاذا بلغ "المكتب" دفع الباب ومرق كأنه يقحم معركة أو مفاجئ خطير أمر. ومن الباب الى منضدته "يجرى" منتفخ الاوداج ، مبرطما تتراقص شفتاه كأنما يقول شيئا وهو لا يقول . فان لمح على جانبي طريقه الى كرسيه اى أحد أسرع الى القاء التحية القاء أقرب من الدعوة الى البراز.

والى أن يستقر تمر بضع دقائق، مناورات لا بد منها : طواف حول المكتب ، يرفع الاوراق ويضعها ، يدير الكرسي ويديره، ويخرج مداده من الجيب ويعيده، ويخرجه ويعيده مرات، تدرك فورا أنه يبحث عن ضائع وليس هو بباحث، ولا بمعتن بما يصدر عنه. نزعة فيه الى اللف والدوران ما كنت أجد لها سببا الا انهماك ذهنه في بيت يقرضه جديدا ، أو بيت قديم ود لو لم يسلمه الى الناس كما أسلمه، كان هذا يشغله كثيرا حتى لتنم عليه كلم شوادر في أحاديثه.

يدق ، يوصي على ناركيلة، على قهوة، ويشعل لفافة ويجلس. فاذا هذا الجالس غير من عرفت جبارا في الشارع ، ومهاجما في الباب ، ومبارزا قبل الجلوس. عجبت والله ولا أزال أعجب كيف ينقلب ذاك ، الى هذه الوداعة، والى ابتسامة دائمة، والى لطف متناه فيما يلقي وفيما يطلب، وكيف تهدأ تلك العاصفة الهوجاء وتستحيل صفوا حين يأخذ القلم يسح على الاوراق أمامه، وأية اوراق، شرطه أن يكون فيها فراغ يسوده، طالت، قصرت، عرضت، ضاقت، ابيضت اصفرت ، كل هذا لا يهم.

ولالـياس اصدقاء يزورونـه، فيلقون حفاوة وترحيبا ، ولفافة، في الدقائق الاولـــى ، ويلي ذلك صدوف واعراض الى العمل . وله صديقات يزرنه فينقطع بكليته اليهن . ولـــم أعرف فيمن أعرف ورعا متعبدا بحضرة "زائـرة" مثله متحدثا بكل جوارحـه . . . " (١)

لقد رسم أبا شبكة نفسه بصدق واخلاص، ولكن الصورة على ما بها من دقة وتفصيـل ما تزال تنتظر المزيد من الاضواء والظلال .

فلأتحدث اذن عن اباثه، عن هذه السجية الجليلة الجميلة في خلقه . لقد لازمتـة منذ صغره حتى موته . كان تلميذا يأبى انتهار معلميه، ومعلما يأبى نقائص زملائـــه ، وصحافيا يأبى استغلال قلمـه، وشاعرا يأبى الفهل من غير قلبه . وحين كان سواه يهـش لمرأى الدينار والدرهم ، فيبيع هذا ثناء، وذاك تأييدا ، كان هو — على ما به مـــن فقر — عصيا على الاغراء قويا على النفس الامارة بالسوء ، صامدا صمود الدوحـة امـام الرياح والى هذا الاباء نظر الادباء والنقاد ، وتحدثوا معجبين او محللين شخصيتـه الشاعر من خلالـه .

يحدثك عن هذا الاباء الناقد مارون عبود ، فيقول : " في خلقه اباء حتـــى العنجهية . يريك نفرات هي بنت عم الجنون كلالة . في احشائه آلام متقـدة، آلام مـن الحب ، آلام من أعباء الحياة ، حب مجنون يشخر كوقيد البلان ، يتعالى حتى يدرك السقف ثم يهبط رويـدا رويـدا . " (٢)

---

(١) بطرس معوض : دراسات وذكريات ص ١٢٦ — ١٢٧ .
(٢) دراسات وذكريات ص ٢٧ .

ويذكره الاستاذ عبد الله لحود بقوله : "وعلى ذكر "ده فيني" أقول ان أبا شبكة كان يشبه هذا الشاعر بكبريائه البالغة أقصى الحدود ، وان صلابة أبي شبكة في دائه الاخير شبيهة بصلابة ده فيني أمام المرض وتحديه الالام والاوجاع ." (١)

ويذكره الاستاذ كرم البستاني بقوله : "فقد كان عصبيا شديدا التأثر أنوفا ابي النفس" (٢)، والاستاذ ادوار البستاني بقوله : "لانه كان أنفة تطاول الكبرياء" (٣) .

بل ان الاستاذ الوزير الدكتور سليم حيدر، حين تحدث عن أبي شبكة بمناسبة ذكراه الثامنة ، جعل هذا الاباء ، بل هذه العنجهية عنوانا لحديثه، ومفتاحا لشخصية الشاعر، وسبيلا الى تحليل كثير من شعره وعنون حديثه بهذا العنوان "عنجهية الشاعر" (٤).

كان أبيا مفرطا في الاباء ،حتى ان من يجهلون حقيقته كان يحملون هذا الاباء على محمل الكبرياء .

ولأتحدث عن وفائه، فقد كان وفيا في دنيا الجحود . وفيا لمبادئه ومثله العليا ، ولحبه ومن أحب، ولأساتذته ومدرسته، ولأصدقائه وأصحابه، وأسرته .

"كان أبو شبكة في صداقته مثالا للوفاء ، وكان في وفائه عنوانا للاخلاص ." (٥)

---

(١) دراسات وذكريات ص ٤٨
(٢) المصدر نفسه ص ٧٣
(٣) المصدر نفسه ص ٥٩
(٤) ألقيت هذه المحاضرة في الندوة اللبنانية مساء ٢٧ كانون الثاني ١٩٥٥
(٥) ميشال ابو شهلا : دراسات وذكريات ص ١٣٠

وفي حياة أبي شبكة اكثر من صورة وضاءة لهذا الوفاء، ولكن أروعها هي صورة وفائه لعصاه ! كانت له عصا ورثها عن أبيه وخطفها منه الجند في يوم من ايام المظاهرات ، كان يعبر فيه الطريق وما كان من المتظاهرين . فقبض عليه الجند ، ولكنه سرعان ما استعاد حريته بأمر من وزير الداخلية . الا أن شيئا ثمينا آخر لم يعد اليه : عصاه العزيزة !

وصاح يطالب بها فلم يجبه أحد . وهنا لجأ الى قلمه العنيف الثائر ليكتب في المطالبة بعصاه ما لم يكتب أحد مثيله في مثيلها ...

انها لمقالة ثائرة ، من نار

ها هوذا يصيح :

" أطبق علي الجنود وخطفوا عصاى السوداء من يدى
أين عصاى السوداء ؟ عصاى التي قلت فيها شعرا
أيها الجندى الذى خطف عصاى من يدى . من أنت ؟
من تكون ؟ وأى شأن لك بعصاى ؟
عصاى التي قلت فيها شعرا اين هي أيها الجندى ؟
ان لعصاى رنة لا تفهمها ، وتاريخا قد يخجلك أن تعقب اليه بالذاكرة
من غير أن ترتعش وتقشعر .
لقد تفيأ اجدادك ظلها يوم كانت غصنا مورقا تأوى اليه طيور السماء
وتتمنى غزاة الارض أن تتفيأ ظله فترة من الزمن !
ما عملت بعصاى أيها الجندى ؟ أين عصاى ؟ "

... ويستمر صائحا موبخا . ثم يعلم أنها غدت في قبضة أحد قواد الجند الغرباء فيسرع الى وزير الداخلية ، وهو في جمع من الوزراء ويهتف : عصاى ! عصاى السوداء !

ولا يخرج الا وقد اطمأن أن عصاه سترد اليه . (١)

والى جانب الاباء والوفاء نجد في خلق ابي شبكة وطباعه ظرفا وحبا للنكتة . فقد كان على ما ملأ فؤاده من الألم ، ساخرا لطيف الدعابة في حياته الخاصة ، بل كثيرا ما كانت كتاباته — لا شعره — تحمل هذا الطابع . وفي "رسومه" وهي كثيرة وفي مقالات له مثل "كريزة" (٢) و "طاولة الزهر" (٣) و "جولة في السراى" (٤) نماذج لطيفة من الدعابة ، بها تحدى أبو شبكة واقع حياته المر ، فابتسم على أسى وضحك على جروح .

قال له صديق يوما : كان يظن الناس أنك لا تكتب الا أشياء دامية دامعة ، الا أنك تجيد الكتابة الهزلية كما تجيد تلك .

فأجاب : لم أخرج الدموع الا من هذه المهازل ، يا صاحبي . وكل بلد تكثر فيه المهازل تكثر فيه الدموع . (٥)

بيد أنه على حبه للنكتة وبراعة اسلوبه فيها كان يأبى أن يضحي بالحقيقة في معرض المزاح ، وكان يكره أن يجر المزاح الى حكم خاطىء او تقرير سيء . (٦)

---

(١) المعرض . العدد ٩٤٤ ص ٤ سنة ١٩٣١
(٢) المعرض . العدد ٩٠٣ ص ٨ سنة ١٩٣٠
(٣) المعرض . العدد ٩٠٥ ص ١٠ سنة ١٩٣٠
(٤) المعرض . العدد ٩٤٥ ص ٥ سنة ١٩٣١
(٥) المعرض . العدد ٩٠٥ ص ١٠ سنة ١٩٣٠
(٦) ميشال ابو شهلا : دراسات وذكريات ص ١٣١

وبعد فلا بد لي من أن أضيف الى هذه الملامح البارزة من شخصية أبي شبكـــــة عاملا هاما من عوامل تميزها ، ومؤثرا عميقا في أدبـه وشاعريتـه . ذاك هو ثقافته الواسعة .

ثقافة أبي شبكة

هذا الرجل العجيب الذى كان معلما وكاتبا وصحافيا وناقدا ادبيا ومؤلف قصص ومترجما بارعا وشاعرا كبيرا، من اين استقى علمه، واستمد ثقافته فاحاط بكل هذه العلوم والفنون وجلى في مضاميرها ؟

انه لم يقض في المدرسة زمنا طويلا، ولم يصل لما يسمونه مرحلة الدراسة العالية، ولكنه في الزمن الذى قضاه في المدرسة تعلم كثيرا، ووهب الادب القسط الاوفى من عنايته واهتمامه. وقد كان للادب العربي القديم محله من مطالعات الشاعر ومحبته، وارجح انه تخيّر منه شعر المحبين، والعذريين في العصر الاموى، واقاصيص هواهم العفيف العطر. ثم شعر المعرى، خاصة، فقد بدت آثارها هذا التخير في آثاره النقدية والشعرية.

وهذا الكلف بشعر العذريين، وبشعر المعرى تفسره عاطفتان قويتان كانتا تملآن قلب الشاعر آنذاك ـ وقد ظلتا تملآنه ـ هما الحب والنقمة. الحب الذى ربطه بغلواء، وبمفاهيم تعلو عن غلواء وعالم الواقع الى عالم من صنيع المثال. والنقمة التي كان يحس بها عنيفة، على الواقع الاجتماعي السياسي الاقتصادى لبلاده يومذاك، وعلى الحياة التي تضيق بأمثاله من الاحرار. (١)

وقد بدا أثر هذا الزاد الشعرى الذى تزوده من دواوين شعراء الحب الاعفة، ومن شعر المعرى في كثير من كتاباته النقدية، وفي شعره ايضا. ولقد أشار كثيرا الى اسماء احبائه من هؤلاء الشعراء. (٢)

---

(١) القيثارة ص ٢٩. البيت الاول من قصيدته "وطوى الزمان كتابه"

(٢) القيثارة ص ٥، ١١، ٤٩ "الى الابد" ص ٥٤، ٥٥

وكان من ذوى الفضل عليه في مده باسباب من الثقافة العربية رجل من سكنة "الزوق"(١) هو "أبو رحمون" (اسمه الحقيقي جورج صباغة)(٢).

---

(١) هي "ذوق ميكائيل" كما يلفظها اهلها، وكما كان يكتبها أبو شبكة.
(٢) يوسف سليم ساروفيم : من حديث خاص أذن بنشره.

ثقافتـــه الفـرنسيـــة

بدأت ثقافة أبي شبكة الفرنسية بايام دراسته في معهد عينطوره. وهو معهد كـــان يولي تدريس اللغة الفرنسية، وادبها، وتاريخ فرنسا وحضارتها اهتماما كبيرا. بل ان هذا المعهد هو الذى بدأ بنشر اللغة الفرنسية في سوريا ولبنان، بعد أن كان السوريـــون واللبنانيون لا يتكلمون مع العربية الا الايطالية (١). ومن أجل هذا منحته الاكاديميـــة الفرنسية عام ١٩٣٦ الجائزة الكبرى للغة الفرنسيـــة.

ولقد كان يدرّس الفرنسية فيه اساتذة من ذوى العلم الراسخ والمقدرة، بل ان رئيس المعهد في عهد شاعرنا "الاب سرلوت" كان شاعرا مجيدا، وقد ابدع شعرا رصينا عميـــق الاحاسيس، تتضمنه ثمانون قصيدة ومقطوعـــة.

في هذا المعهد عرف ابو شبكة الطريق الى الثقافة الفرنسية فتزود منها زادا وفيرا. وسرعان ما تمكن من اللغة الفرنسية، واذا به وهو في السادسة عشرة من العمر او دونهـــا ينظم فيها الشعر، وينشده بزهـــو وجرأة امام ابناء هذه اللغة، واهل الفصاحة فيها (٢).

وراح أبو شبكة يقبـــل على الادب الفرنسي، وخصوصا الشعر والقصة، يقرأه باعجـــاب واستمتاع عظيمين، ويتأثر به نفسيا فقد وجد صداه في عواطفه، ثم يتأثر به فيما ينظمه من شعر بالعربيـــة.

واننا لواجدون ادلة اقباله على قراءة الادب الفرنسي، واعجابه به في كثير من القصائد الفرنسية التي نقلها الى العربية شعرا، وهو ما يزال دون الثالثة والعشرين. ومنهـــا مـــا نجده في "القيثارة" باكورة مجموعاته الشعرية، فهناك "المصدورة" وهي رواية للكاتـــب

---

(١) المكشوف. العدد ٣٦٥ ص ٤ سنة ١٩٤٤.
(٢) الجمهـــور. العدد ٦٢ ص٢٢ سنة ١٩٣٧.

"جول لوماتر" أخذ أبو شبكة موضوعها "وتصرف بها تصرفا مطلقا، فمشاهد الفتاة المريضة امام الروءيا ووصفها المنطبق على حالتها لا اثر لها في الاصل الفرنسي .(١) و "الى لورانس" (٢) و "الى بدوية جميلة كانت تدخن النارجيلة في حديقة شرقية" (٣) وهما قصيدتان للامرتين وقد ترجمها بتصرف. و "لا تعط الحب" (٤) وهي قصيدة لمدام مرسلين ده بورد فلمور (٥). و "تذكرى" (٦) وهي قصيدة لالفرد ده موسه، وقد ترجمها بتصرف ايضا .

ولعل مما يدلك على عظيم اعجابه بالادب الفرنسي ، وشديد اقباله عليه ان تسمعه يقول انه قرا فصلا اعجبه من مسرحية "فرخ النسر" لا مرّتين او عشر مرات ، بل "اكثر من مئة مرة".

"في اثناء الحرب الكبرى الماضية، او في السنة الاخيرة منها على الاصح وقعت بيدى مسرحية "فرخ النسر" فقراتها على غير هدى، وعلى غير هدى احببت الفصل الخامس منها بل عشقته. وقد لا ابالغ اذا قلت اني قراته اكثر من مئة مرة. ويقيني ان شعراء المسرحيات الفرنسيين ما كتبوا حتى الان اجمل واروع منه. ومنذ ذلك الحين احببت ادمون روستان وصرت اتمنى ان تنتهي الحرب لارسل الى الشاعر كتابا اشكره فيه على ذلك الوجد والالم اللذين يطفح بهما شعره في الفصل الخامس من "فرخ النسر"...

---

(١) القيثارة ص ٥٢
(٢) القيثارة ص ٩٤
(٣) القيثارة ص ١٠٢
(٤) القيثارة ص ١٠٩
(٥) شاعرة مبدعة ومغنية اوبرا وممثلة ، ولدت سنة ١٧٨٦.
(٦) القيثارة ص ١٢٦.

ولكن ما كادت تنتهي الحرب حتى حملت الينا الصحف نبأ وفاة ادمون روستان فاسقط في يدي وبلغ مني الحزن مبلغا انساني ان لبنان في فسحة عيد وان الوقت للطبل والمزمار والعود والكنارة فهرولت الى السوق، واشتريت عقدة سوداء ربطت بها عنقي ومسحت وجهي بمسحة الكآبة والالم .» (١)

وعن طريق الفرنسية نهل أبو شبكة من معين الاداب الاخرى . قرأ الالياذة من ترجمة نثرية بالفرنسية، و "الانايد" لفرجيل و "اورشليم المنقذة" للوتاس الطلياني وقصائد اخرى منقولة الى الفرنسية لشعراء اقدمين يقول التاريخ انهم درجوا على سواحل لبنان (٢) وقرأ ملحمة "الفردوس المفقود" لملتون مترجمة بقلم شاتو بريان، اكثر من مرة وملأ هوامشها تعليقات. وقرأ "فوست" و "دفينا كوميديا" (٣).

ومن هذه القراءات الكثيرة، المتأنية، استمد ابو شبكة علما غزيرا بآداب الفرنجة ظهر أثره في مقالات عديدة، عن الادب الفرنجي، واعلامه. اذكر منها على سبيل التمثيل والتدليل:

أثر الحب في الفن — شوبن وجورج سند (٤)
غرام الفريد ده موسه بجورج سند (٥)

---

(١) المكشوف. العدد ٣٥٢ ص ١٢ سنة ١٩٤٤
(٢) الجمهور. العدد ٤٣٩ ص ٤ سنة ١٩٤٦.
(٣) الاديب. ج ٥ ص ٥٥ سنة ١٩٤٢
(٤) المعرض. العدد ٨٩٢ ص ١٤ سنة ١٩٣٠
(٥) المعرض. العدد ٨٩٣ ص ٩ سنة ١٩٣٠

من صفحات التاريخ الغرامي ـ فكتور هيغو وجوليت دروه (١)
من صفحات التاريخ الغرامي ـ سنت بوف واديل هيغـو (٢)
دنتي والهزلية الالهيـة (٣)
الادب عند الافرنج ـ لامرتين ـ تأثير الشرق عليه ـ مذهبه السياسي (٤)
الادب عند الافرنج ـ الادب الايطالي ـ بترارك الشاعر الايطالي (٥)
الادب عند الافرنج ـ الادب الالماني ـ غوتـي (٦)
الادب عند الافرنج ـ الادب الانجليزى ـ شيلي ، تنيسون ، برونك (٧)
الادب عند الافرنج ـ الادب الانجليزى ـ بيـرون (٨)
الادب عند الافرنج ـ فكتور هيغـو (٩)
الادب عند الافرنج ـ فكتور هيغـو (١٠)
الادب عند الافرنج ـ الفريد ده فينـي (١١)
الادب عند الافرنج ـ سيرانوده برجراك (١٢)
الادب عند الافرنج ـ بونابرت ، شاتو بريان يحارب امبراطور وثورة (١٣)

---

(١) المعرض . العدد ٨٩٩ ص ١٠ سنة ١٩٣٠
(٢) المعرض . العدد ٨٩٤ ص ١٧ سنة ١٩٣٠
(٣) المعرض . العدد ٩١٢ ص ١٠ سنة ١٩٣٠
(٤) البرق . العدد ٣٣٧٠ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(٥) البرق . العدد ٣٣٧١ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(٦) البرق . العدد ٣٣٧٢ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(٧) البرق . العدد ٣٣٧٤ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(٨) البرق . العدد ٣٣٧٣ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(٩) البرق . العدد ٣٣٧٦ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(١٠) البرق . العدد ٣٣٧٧ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(١١) البرق . العدد ٣٣٧٨ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(١٢) البرق . العدد ٣٣٨١ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(١٣) البرق . العدد ٣٣٨٢ ص ٢ سنة ١٩٣٠

الادب عند الافرنج — بونابرت ، شاتو بريان يحارب امبراطور وثورة (١)
المسارح الفرنسية في القرن السابع عشـــر (٢)
الادب عند الافرنج — من الادب الفرنساوى — الفريد ده موسه قبل عهده بجورج سند (٣)
برانجه شاعر الشعـــب (٤)
الشاعر شارل ل غوفيك (٥)
بول فاليرى في آرائه الخاطئه — الوحي الشعرى (٦)
بول فاليرى في آرائه الصائبة — الوحي الشعرى (٧)
ذكرى الشاعر الريفي ميسترال (٨)
شارل بيغـــي Charles Peguy (٩)
روءيا دانتي — قصيدة خالدة للشاعر فيكتور هيغـــو (١٠)
هريو بين الادب والسياســة (١١)
كتاب فرنسا الحرة . بنجمان كونستان (١٢)
قصائد جديدة (١٣) (مجموعة قصائد — بالفرنسية — للشاعر فوءاد ابي زيد)

---

(١) البرق . العدد ٣٣٨٣ ص ٤ سنة ١٩٣٠
(٢) البرق . العدد ٣٣٨٣ ص ٨ سنة ١٩٣٠
(٣) البرق . العدد ٣٣٨٥ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(٤) البرق . العدد ٣٤٢٦ ص ٤ سنة ١٩٣٠
(٥) البرق . العدد ٣٤٢٧ ص ٢ سنة ١٩٣٠ (بتوقيع مستعار لابي شبكة هو أ . ش)
(٦) الجمهور . العدد ٢٥ ص ٢ سنة ١٩٣٧
(٧) الجمهور . العدد ٢٦ ص ٢ سنة ١٩٣٧
(٨) الجمهور . العدد ٣٠ ص ٥ سنة ١٩٣٧
(٩) الجمهور . العدد ٤٤ ص ٥ سنة ١٩٣٧
(١٠) الجمهور . العدد ٧٤ ص ٨ والعدد ٧٥ ص ٨ سنة ١٩٣٨
(١١) الجمهور . العدد ٨٢ ص ١١ سنة ١٩٣٨
(١٢) مجلة الاديب . ج ٤ ص ١٠ سنة ١٩٤٢
(١٣) الاديب . ج ٢ ص ٦١ سنة ١٩٤٣

مصابيح من خزف [١] (مجموعة قصائد - بالفرنسية - للشاعر ادمون سعد)
انكسار القلب [٢] (مجموعة قصائد للشاعر الفرنسي اراغون)
ادمون روستان [٣]
أفضل مفكر في عصره [٤]

ولا بد من الاشارة الى ان اعجاب ابي شبكة العميق بالثقافة الفرنسية وبالادب الفرنسي ، ثم اعجابه بما قدمته الثورة الفرنسية الى العالم من مفاهيم سامية ، هي الحرية والعدالة والمساواة . هذا الاعجاب وذاك قاداه الى الاعجاب بفرنسا كلها ، والى التنويه بفضلها العميم على الدنيا في حماس واندفاع شديدين .

بيد ان هذا الاعجاب بفرنسا وتاريخها وآثارها كانت له حدود ، ولم يكن لينسي أبا شبكة بلاده وتاريخها وآثارها ورجالها ، أو يجعله راضيا بذلة تنام عليها ، فلا تطالب بحقوقها ولا تجهر بابائها .

نرى هذا الموقف العزيز في قوله :

" أجل انا " لمعجبون بفرنسا وتاريخها وآثارها " ايها المخلصون لوطنكم الشاعرون بحقوقكم ، على ان الاعجاب بفرنسا لا ينفي اعجابنا بتاريخنا وآثارنا وبرجالنا ايضا فلا ننحر هذا

---

(١) الاديب . ج ٥ ص ٥٧ سنة ١٩٤٣ (بتوقيع مستعار لابي شبكة هو أ . ش)
(٢) الاديب . ج ٥ ص ٥٨ سنة ١٩٤٣ (بتوقيع مستعار لابي شبكة هو أ . ش)
(٣) المكشوف . العدد ٣٥٢ ص ١٢ سنة ١٩٤٤
(٤) المكشوف . العدد ٤١٢ ص ٥ سنة ١٩٤٥ (يعني بول فاليري)

التاريخ ونشمت بتلك الآثار ونذل هؤلاء الرجال! ففي كل عرق من هذه العروق خلجة نبل وشرف ارفع من ان تنال حقوقها بالترضي والسؤال، واسمى من ان تلجأ الى سبل ذليله في استدراج المسيطرين الى القيام بواجبهم نحو هذا البلد.

ان المظاهر الفخمة في الحفلات الدينية وفي امثالها لا تكفي للدلالة على "فخامة" العلاقات التاريخية بيننا وبين فرنسا، فيجب علينا ان نضع لهذه اللياقات حدا الى ان يتم "التفاهم" بيننا وبين هذه الدولة التي احببناها لئلا يستمر التملق فيصبح عادة اصيلة تغور في نفوسنا وحقوق آخر عقب من ذرية هذا الشعب.." (١)

وكان من نتائج حبه فرنسا ان اصابته سهام راشها قوم من مواطنيه، يتهمونه في وطنيته، وفي عروبته.

ويثور أبو شبكة، يثور لانه يسمع مثل هذا الحوار:

كان اثنان يتحادثان فقال احدهما للآخر:

غريب أمر ابو شبكه! .. كان لعهد خلا وطنيا حتى الثورة فماذا بدّله؟

فأجابه الآخر: وهل تبدّل؟

ـ تبدّل. ألا تسمعه في الراديو؟ الا تقرأه في الصحف؟ لقد تبدّل كثيرا، مع انه شاعر عربي، واديب عربي، وكل مؤلفاته كتبها بالعربية.

ـ طيب، ولكن ماذا تبدل فيه؟ هل اصبح فرنجيا؟

---

(١) العاصفة. العدد ٨٠ ص ١١ سنة ١٩٣٤

ـ أصبح يحب الفرنسيين !

ـ وهل كان يبغضهم ؟

ـ لا ، ولكن الاحوال تبدلت اليوم . فكان ينبغي له ان يساير ... (١)

يثور أبو شبكة ، وبمقالة قصيرة ، في صفحة واحدة من مجلة ، يرد عن نفسه السهام ، ويهاجم المتلونين المتقلبين ، والاتباع الامعات ، والاذلاء الشحاذين ، والقرود ، والخدم ، عبيد الدينار والدرهم ..

انه يابى كل الاباء ان يكون قلمه بغيا ، وظهره مطية .

ويابى ان يقنع في المأتم بقناع المساخر ، وان يحمل بيد قصبة ذليلة ويستندى بالاخرى اجرة ذلها ، فيظهر في الناس اليوم وفي التاريخ غدا بمظهر الشحاذ بدلا من مظهر الاديب .

ويعود الى غامزى قناته ، المتحدثين عن وطنيته بما ينتفض له غضبا واباء ، فيقول :

" اذا كانت الوطنية هي ان أميع وأسيل حتى يذوب جذعي الاعلى في جذعي الاسفل فيصبح حتى التنويه بفضل آداب أمة بايعها العالم بالفضل ضربا من الخيانة أو شتيمة وطنية ، واذا كانت الوطنية هي ان اصغر المردة واعظم القردة ، وان انكر لاجل مسود ذى دخيلة او للحصول على نعمة ذليلة ما سكبته الاجيال في دمي بهجة على فمي ـ اذا كانت الوطنية هي هذا فانا لست وطنيا ! " (٢)

---

(١) المكشوف "... أنا لست وطنيا" العدد ٤٠٦ ص ٧ سنة ١٩٤٥

(٢) المصدر نفسه

وهو في مقالة اخرى له، يرى ان هذا الاتهام يوجهه زيد الى وطنية عمرو، ناشئ عن حال من الحيرة والارتباك والفوضى يعيش فيها الناس في لبنان .. "والويل لك اذا وقفت في هذه الفوضى موقف العادل، موقف الابي، فانت خائن سافل، تبيع وطنك من الاجنبي .

كل من يريد ان ينجو من الخيانة يجب عليه ان يتهم سواه بها ! هذه قاعدة الحيلة وهذا اساسها ...

ليس في لبنان خائن لوطنه، وليس فيه مارق بسيادته وكرامته، بل فيه دساسون لا يستحون، شغلهم الشاغل المتاجرة بهذا الصنف الخبيث من الوطنية". (١)

---

(١) المكشوف . العدد ٤١٨ ص ٨ سنة ١٩٤٥

التـــــــــوراة

كان للتوراة ، بعد الثقافة المدرسية ، والثقافة الفرنسية اللتين تلقاهما أبو شبكـــة ، المنزلة الثالثة في تكوين ثقافته العامة والتأثير في أدبه ، وشعـــره خاصـــة .

وقد أقبل أبو شبكة على مطالعة التوراة منذ صباه ، بشغف واعجاب ، واستمر على هذه المطالعة سنوات طويلة في شبابه ورجولته فقد استهواه ما فيها من "الافكار الشريفة" و "البيان الرائع" و "الايقاع السليم ." (١) ويظن بعضهم انه اهتدى الى منبع التوراة الفيـاض عـــن طريق الشعراء الرومانسيين الذين أطال ورود شعرهـم .(٢)

ولا بد أن يكون قد رأى فيها ما يعود على شاعريته بالخير والايحاء الثر ، مثلما عـادت على سواه من شعراء الفرنجة والعالم ، فهـو يقول في حديث لـه عنهـا :

" .. وقديما كانت التوراة ينبوع الشاعرية الصحيحة فقد اوحت الى هيغو ولامرتيـــن ودنتي وغوتي ومعظم شعراء اوروبـا والعالـم .." (٣)

بل انه في كتابه " روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة" يدعو الادباء العـــرب بحماسة الى التزود من ادب التوراة ، والادب الاجنبي ، فيقول : " ولا سبيل لنا ان ننكر ان الادب العربي لم يبلغ في اي عصر من عصوره منذ فجره الى اليـوم ما بلغه الادب اليوناني او اللاتيني او العبراني . ففيـم يشيح الادبـاء والمتادبون في البلاد العربية عن تلـــك الذخائر الالهية المدفونـة في مطاوى كتب اليونانييـن واللاتيـن والعبرانييـن . .(٤)

---

(١) رفائيل بطـي : مجلة الثقافة . العدد ٤٢٦ ص ١٩ سنة ١٩٤٧
(٢) صلاح لبكي : لبنان الشاعر ص ١٦٩
(٣) البـرق . العدد ٣٣٧٨ ص ٣ سنة ١٩٣٠
(٤) ص ٨٧ ـ ٨٨

ثم يروح يذكر نماذج مختارة من ادب التوراة كفلسفة ابن سيراخ ، "ونشيد الاناشيد" و "سفر أيوب" و بعض أسفار "تثنية الاشتراع".

ويعود بعد هذا فيذكر، فعل الخمير المتمرس، بعض ما اخذه كبار شعراء فرنسا وانجلترا من التوراة ، أو ما تأثروا به منها : قصيدة لامرتين "سقوط ملاك" تكاد تمتزج جميع فصولها باسفار التوراة. قصيدة الفريد ده فيني "الوى ، أو اخت الملائكة" مستوحاة من الآية الثالثة عشرة من سفر التكوين. ملحمة ملتون الخالدة "الفردوس المفقود" مستلهمة من سفر التكوين.. وهكذا. (١)

وقد تحدث أحد عارفيه عن شديد عنايته بالتوراة، وعن وفرة ما حفظه منها ، فقال :

"ولعل أبا شبكة هو الاديب الوحيد — بين ادباء الشرق — الذى خزن في حافظته التوراة وما فيها من آيات ، وقد فاق من هذه الناحية الكثيرين من رجال الدين، وانك لتراه يردد آيات ارميا وحزقيال واشعيا وابن سيراخ وطوبيا ... بالنصوص الكاملة وارقام الفصول والايات. ولعله وجد في الكتب المقدسة خير مستوحى وأخصب مادة للفكر البشـــرى ، فغرف من ذلك الينبوع قدر ما وسعت الذاكرة.." (٢) ومما يدل على سعة اطلاعه علـــى التوراة انه قرأ "الفردوس المفقود" لملتون مترجما الى الفرنسية شاتو بريان، وقرأ "فوست" لغوتي فملأ هوامشهما تعليقات تشير الى ما اخذه المؤلفان في كتابيهما عن التوراة.

---

(١) ص ٨٨ — ٩٢

(٢) سامي محجوب : العاصفة العدد ١٠٠ ص ١٢ سنة ١٩٣٧

والحق ان أثر التوراة في ابي شبكة كان واضحا عميقا، كتب عنها بعض المقالات ، كمقالة "التوراة في الميزان". الملائكة يسرحون على الارض ويعشقون بنات البشر (١)، و "كتاب التوراة في الميزان. التناقض في رواية تلك التفاحة الجانية على آدم (٢) ، واكثر من الاستشهاد بعباراتها وحوادثها، وكان لها بعد رومانسيي فرنسا أثر بيّن جدا في شعره لا سيما في "اغاني الفردوس"

وقد بلغ هذا الاثر من الوضوح والقوة والعمق حدا جعل بعض الناقدين يقول : "ان التوراة كانت احدى المراحل الحاسمة في تأثرات أبي شبكة الادبية... ولعل الفريد دي فيني ـ صاحب القصيدة الرائعة "غضب شمشون" و "موسى" في العهد القديم ـ كان ممن حبب الى ابي شبكة ادب التوراة." (٣) وجعل ناقدا ثانيا يعد أبا شبكة "رسول ادب التوراة في العالم العربي". (٤)

---

(١) أبو ناصيف (توقيع مستعار لابي شبكة) : العاصفة . العدد ٤ ص١٢ سنة ١٩٣٣
(٢) العاصفة : العدد ٦٣ ص١٢ سنة ١٩٣٣

(٣) صلاح لبكي : لبنان الشاعر ص ١٦٩
(٤) عبدالله لحود : دراسات وذكريات ص ٤٧

" في ميـــــــدان الحيـــــــاة "

.....

لقد قدر لابي شبكة الذى ولد غنيا في عائلة موسرة أن يعيش فقيرا، فقد كانت النكبة الفادحة التي اصابت العائلة بوفاة معيلها بدء الطريق الى تغير حالها المادية.

وقد حاول أبو شبكة أن يعيش من راتب وظيفة يتولاها في احدى دوائر الحكومة ولكنه خاب. وهو يحدثنا في مقالة "أنا" (١) عن واحد من المسودين ظل يغريه بقبول وظيفة فلما نزل عند اغرائه راح هذا يحمله الرسائل والبطاقات المقفلة الى هذا وذاك من ذوى الحل والعقد ولكنها لم تعقب خيرا او تجد نفعا. وهنا خطر لابي شبكة بدافعين من فضول وشك ان يفتح واحدة من هذه الرسائل، وان يقرأها. وقد فعل فقرأما جعله ينتفض غيظا وغضبا.. ففي الرسالة اللئيمة كانت هذه السطور القذرة:

"تظاهر امامه باللطف وعده خيرا قريبا لانه زاحني بطلباته وزياراته المتكررة. ماذا جد بمسألة...؟ اني اعلق اهمية كبيرة على نجاحه لانه يستحق الالتفات ولا تنس انه خدمنا ايام الانتخابات ولا نزال بحاجة اليه. سانزل الى بيروت في هذين اليومين واراك في البيت..." (٢)

والحق ان ابا شبكة حين رضي لنفسه ان يبحث عن وظيفة، ما كان مستجيبا في ذلك الى رغبة أو مندفعا في حماسة، وانما كان خاضعا أو منقادا لضرورة مادية. كانت الوظيفة الحكومية تعني عنده القيد وهو الشاعر الذى احب الحرية ومجدها، وأكرم نفسه وصانها. وفي رسالة بعث بها الى خطيبته أولغا نجد حملة عنيفة على الوظيفة وعلى الذين يزينون له نشدانها. انه يقول غاضبا: "... يقولون لي ان الافضل ان تعمل في احدى دوائر الحكومة وأن ثمة كبارا "بلهاء" ياخذون بيدك للحصول على وظيفة لائقة. انهم لمخدوعون! ان نفسي

---

(١) المعرض. العدد ٩٥٥ ص ٨ سنة ١٩٣١
(٢) دراسات وذكريات ص ١٣

لن تنحط الى مثل هذه الدركة ! لقد عشت في حرية سامية ، وسأموت في حرية سامية . أنا لست بحاجة الى أيد دنسة قذرة ، خصبة بالبلاهات . أنا رجل عملت نفسي بنفسي ويد الله وحدها تحميني . ولست بحاجة الى بعض الوريقات تقدمها الحكومة الى "صغارها الجائعين" . لي سياستي الشخصية . وهي التي ستبدع اشياء رائعة ، وسترين" (١)

انصرف أبو شبكة عن فكرة التوظف ، ورأى أن يلوذ بعلمه وأدبه ، وقرر أن يعيش بقلمه وأن يظل هذا القلم نظيفا . كان قراره هذا خطيرا ، ولكنه كان منتظرا . وقد أثار عليه حينا بعد آخر نقمة أشباه الرجال ، وقاده الى الافلاس وسوء الحال .

كانت حاله المادية كثيرا ما تسوء وتشتد به الحاجة الى المال ، هذا السيد المستبد والخادم الطيب . وكان اذا تأزمت الحال يبحث احيانا عن اصدقاء يمدونه بقليل من الليرات يستدينها منهم ويردها اليهم متى انقشعت الغيوم . ولكنه كثيرا ما كان يجد الخيبة واليأس في انتظاره . ويتضح له أن الصديق الذي يشاطره افراحه وملذاته في اوقات الصفاء واليسر هو غير الصديق الخيالي الذي يستند اليه في اوقات الضيق والعسر (٢) .

وفي المنشور من رسائله الى أولغا ، ومن مذكراته نجد اكثر من ذكر أو اشارة الى ضعف حالته المادية ،

فها هوذا في أشد الفرح وأعظم الاغتباط لان خمسة عشر دولارا قد جاءته من المهجر ، وها هوذا يبشر أولغا بهذا النبأ السار :

" بشرى كبرى . والدك يحمل كتابا مضمونا من سليمان نجلا فيه خمسة عشر دولارا .

---

(١) دراسات وذكريات ص ١٢٨

(٢) المعرض . العدد ٩٠٣ ص ٨ سنة ١٩٣٠

سأرسل اليك عشر ليرات سورية قريبا . اختم رسالتي باللغة العربية لانها اكثر وقعا في من لغة هيغو ولامرتين وأتباعهما ساعة يقذف الي البحر بدولارات" (١).

وها هوذا يكتب في مذكراته :

"أول شباط ١٩٣١

تناولت هذا الصباح جنيهين مصريين ثمن اربع رسائل بعثت بها الى جريدة "المساء" في مصر. ولو لم أقبض هذا المبلغ لادانني اليأس الى قتل رئيس الجمهورية او رئيس الوزارة.

فشكرا للجريدة المصرية وشكرا لمقالاتي لانها انقذتني من جريمة كدت ارتكبها .. (٢)

٦ شباط ١٩٣١

تناولت هذا الصباح اعلاما من محكمة كسروان تطالبني فيه الخزينة بدفع المسقفات وتبلغ قيمتها ستمائة واربعين غرشا سوريا . من أين تريد الخزينة أن اجيئها بهذا المبلغ؟.. (٣)

١٦ شباط ١٩٣١

استدانت (٤) خطيبتي غلواء عشر ليرات سورية ونصف ليرة . فتأمل شدة الطفر الى اين دفعتني ... (٥)

---

(١) دراسات وذكريات ص ١٧٨ ـ ١٧٩
(٢) دراسات وذكريات ص ١٩٤
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٦
(٤) كذا في الاصل
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠١

وفي مذكرات يوم ٧ ايار ١٩٣٤ لا نجد الا هذا الخبر "الخطير" :

"قبضت اليوم ثلاث ليرات سورية من فؤاد حبيش ." (١)

لم يكن أبو شبكة الكاتب ليطوى حديث ضائقته المالية في اعماقه . بل ان لهذا الحديث في كتاباته، حظا واضحا من العرض والابانة . وهو اذ يعرضه لا يبكي ولا يستبكي . انما تجده يصف احوال عسره، وقصص ضائقته باسلوب فيه سخرية مرة ، حلوة، وبدعابة محبوبة . نعم لقد كانت الحاجة تضطره الى ان يقصد بعض من يتوسم فيهم الخير ليقترض منهم شيئا من المال ، ولكن هذه الحاجة لم تستطع أن تلوي من قناته، او ان تصل الى قلمه، في شعره ونثره . كان اذا شكا سمعت شكوى الحر ، وتذكرت شعر الاباء في لامية العجم، وميمية القاضي الجرجاني ، وقافيّة الشريف الرضيّ ... لقد ظلت شكواه عزيزة في نجوة من مدمع او ذلة او انهيار .

وهاك نموذجا من شكواه الابية، الساخرة :

.. صممت النية على الاستدانة بعد ان خيل الي او تأكدت ان هناك فئة من الاصدقاء المخلصين الاوداء ترقب خروج لفظة من فمي لتحل اكياسها وتنثر الدنانير على قدمي نثرا ، وبعد ان تأكدت ان هذه الفئة سيطربها طلبي اطرابا لا مزيد عليه فتشكر ثقتي بها وتكون هي الممتنة لا انا ... ثم عدت فانتبهت الى اني مصاب بداء الافلاس وان هذا الداء لا يشفى الا بخمسين ليرة سورية فلطمت صدري بيدي وقلت : " خمسون ليرة يا رب ! هليلويا ! استجب يا رب ! ... واذ كنت تتقاذفني الالام النفسية مر بالقرب مني بائع جرائد يصيح بملء فمه "الافلاس في بيروت" فاستوقفته في قارعة الطريق وقلت له : "وفي جيبي ايضا" ومر آخر يصيح : "الكريزه في بيروت !" فاستوقفته وقلت له : "وفي السماء ايضا" فظن الاثنان انني مجنون فضحكا واستمرا في طريقهما يصيحان "الافلاس في بيروت ! الكريزه في بيروت!" (٢)

---

(١) دراسات وذكريات ص ٢١٤

(٢) المعرض . العدد ٩٠٣ ص ٨ سنة ١٩٣٠

ولقد كان لهذه المقالة صدى لم يكن الشاعر المفلس ليتقصده او ليتوقعه فقد تحولت المسألة الى ("تراجيديا" تراجيديا هائلة !) حين تلقى رسالة مضمونة وجد فيها ثلاثين ليرة سورية وكلمة رجاء لقبولها من مرسلتها، وهي فتاة سورية لم تذكر اسمها .

يقول أبو شبكة : "اما التراجيديا فهي ان الفتاة تاثرت بمقال "كريزه" الذى نشرته في احد اعداد "المعرض" فصور لها اني فارغ الجيب الى حد اليأس فدفعتها فطرتها الحساسة النبيلة الى مدّى بثلاثين ليرة .

يا لها عاطفة شريفه استدرت من عيني ثلاثين دمعة كانت ابلغ قصيدة صامتة في ثلاثين بيتا .

ايتها الفتاة !

ان العاطفة الصادقة كثيرا ما تكون خطرا على ذويها . لا اريد بهذه الحقيقة الاليمة ان اخنق في قلبك فطرة الاحساس النبيل، ولكني ارغب اليك ان تبقي هذا الاحساس لنفسك فلا تجعليه يتعدى احلامك الى التنفيذ لئلا تدنسيه بسخريات البشر الذين لا يفهمون من الاحساس الا أحرفه الخمسة !

.... أما اذا ارجعت اليك ما ارسلته فلاني افهم العاطفة عن طريق غير هذه الطريق ومن وجه غير هذا الوجه، ولاني لا احب ان يكون بين سلالة السماء وسلالة الرغام صلة او نسب. (١)

---

(١) المعرض . العدد ٩٠٧ ص ١١ سنة ١٩٣٠

أبـو شبكـــة المعلـــم

كان على أبي شبكة وقد دخل ميدان الحياة العامة ان يجد له مهنة يتعيش بهـــا . نعم، انه كان شاعرا مجيدا، ولكن زمن التعيش بالشعر قد ولى . ولئن كان هناك من لا يزالون يتعيشون به، فما كان ابو شبكة الابي الانوف، الحريص على كرامة نفسه، وعزة شعـره من هـؤلاء .

ورأى بعد ان خاب أمله في ان يغدو موظفا ـ ان يكون معلما . فالتعليم مهنـــة كريمة، سامية القصد وهو، بعد، مهنة كثير من الادباء في زمانـــه .

وصار معلما، ولكنه لم يستطع الاستقرار في مدرسة واحدة، ومن المدارس التي مـارس فيها مهنة التعليم معهد اليسوعيين وكان ذلك عام ١٩٢٧[١] . . ومدرسة المقاصـــد الاسلامية ومدرسة الفريـر[٢] . ثم لم يستطع الاستمرار على التعليم فطلقه ثلاثا . .

كان جو التعليم الذى عاش فيه زمنا، صورة مصغرة لافاعي الفردوس . ففي هذا الجو الذى يجب ان يعبق بروائح السمو النفسي، والكرامة الخلقية، كانت تعيش انفاس غيـــر طيبة من نفوس غير صافية . . يجمعها ابو شبكة في كلمات ست، هي : النفاق، والرياء، والخبث، والحسد، والعجرفة، والدس، ويقـول :

"رأيت المعلم، زميلي وحامل رسالة ابن مريم ينظر الي بعين تتلون بتلك النقائص الست، كأن هذه الضيفات لا تعي عن احتلال فندق لها حتى في نفس المؤدب . رأيته يسعى بي ويغتابني، ويبذل ما في نفسه لاخراج التلاميذ من ربعة فضلي، غير عابئ بما يدس مـــن السم في الناشئة اليافعة، رأيته في الامتحان يتلاعب بصفي فيسقطه ليسقط رعايتي في عيـن المدير . واى حرج عليه في ان يضحي بمستقبل ثلاثين املا ما دام في نفسه شهوة ؟

---

(١) المكشوف . العدد ١٥٠ ص ٤ سنة ١٩٣٩

(٢) يوسف سليم ساروفيم : من حديث خاص معه اذن بنشره

ورأيت هذه المدرسة تتآمر على تلك ، وفي كلتيهما اخوة في الوطنية وفي الـــــدم ، وغاية كل منهما اضعاف اليقين في الاخرى، كان كل امريهون في سبيل غرض تجارى ٠٠٠٠ فسئمت النقائض المعششة بين جدران المدرسة فهربت لا التفت الى الوراء كاني هارب من سـدوم ٠ » (١)

---

(١) الجمهـور ٠ العدد ٧٠ ص ٨ سنة ١٩٣٨

الفصـــــــل الثـــــانـــــي

" فـــــي دنيـــــا القلـــــم "

.....

فـي الصحافة والكتابة السياسية

انصرف أبو شبكة، حين طلّق التعليم، الى الصحافة يصرف اليها معظم جهوده ووقته. ولكنه لم يحصل منها على ما يسد مؤونته ويكفيه شر الحاجة فكان على غزارة نتاجه، وكثـــرة سعيه لا يكاد ينجو من ضيق مادي حتى يأخذ بتلابيبه ضيق ثان.

وتبدأ علاقة ابي شبكة بالصحافة، وباصحاب الصحف منذ سنة ١٩٢٢ وكان يومذاك في التاسعة عشرة من عمـره.

ففي احد ايام هذه السنة دخل على الاستاذ زكور في ادارة مجلة "المعرض" ودفـع اليه بقصيدة غرامية "لنشرها في اول عدد يصدر" فقرأها، وأثنى عليها. وبذلك كانت مجلة المعرض مهدا لقصائد ابي شبكة الاولى، وكانت المجلة التي عمل فيها محررا ونشر كثيرا مـن الشعر والنثر — مقالات وتراجم — لا سيما في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١.

وبعد تموز ١٩٣٢ توقفت "المعرض" عن الصدور. وعادت فصدرت في ايار ١٩٣٤، فعاد ابو شبكة يكتب فيها مقالاته، وابحاثه ومترجماته، وينشر شعـره.

ولكن عمله كمحرر في "المعرض" لم يكن وحده سبيله الى التعيش. فما كان يتقاضى من المجلة راتبا شهريا معلوما، وانما كان يبيع المقالة الواحدة بمبلغ زهيد هو ثلاث ليـــرات سورية. ولكن حتى هذا المبلغ الزهيد كان يعني لجيب ابي شبكة الخاوي، الثراء الجديـــر بان يدون في مذكراته. ففي مذكراته عن يوم ١١ شباط ١٩٣١ ترد هذه الجملة الفرحـــة "... وقبضت خمس عشـرة ليرة سورية ثمن خمس مقالات من جريدة "المعرض" ..." (١)

---

(١) دراسات وذكريـات ص ١٩٩

لذلك نجده في سنة ١٩٣١ مثلا · يوزع جهوده، ونتاجه على صحف اخرى في لبنان ومصر· كالبرق، والعاصفة "صوت الاحرار" اللبنانيات، ومجلة "المقتطف" التي كانت تدفع اليه جنيها مصريا عن المقالة الواحدة" (١) وجريدة "المساء" المصريتين ·

وكان عمله في بعض الصحف كثيرا متنوعا · ففي "صوت الاحرار" التي عمل فيها سنة ١٩٣٤، كان لقاء خمسين ليرة شهريا ـ يكتب عن السياسة الخارجية، ويرتب صفحة الادب، وينشر رواية متسلسلة او تامة ، ويصحح الاخبار المحلية (٢).

ويهمنا من عمله الصحافي ما كتبه من مقالات سياسية واجتماعية كثيرة · يهنا فيه الكاتب الصحافي ، والمعلق السياسي ، والناقد الاجتماعي ، الذى كان يتخطى حدود مهنته كمحرر يتقاضى اجرته لقاء تعب مضن، في الترجمة، وكتابة الاخبار والتعليات، وترتيب الصحائف الادبية، الى نطاق اوسع واسطع· فاذا هو كاتب كريم القصد ، وناقد برئ من الغرض ، ومواطن حر الضمير ·

كان يكتب مقالاته في بيته، ينهض في الصباح ويجلس الى طاولة التقليدية التي تعرفه ويعرفها منذ زمن طويل ، وسيكارته في فمه، وركوة القهوة الى جانبه ثم ينصرف الى الكتابة وقد يأتي على مقال برمته قبل أن يحمل اليه الهواء صفير القطار من جهة الخليج ·· فيبتسم لطاولته مودعا · (٣)

وكانت مقالاته كثيرة، ينشرها في اكثر من صحيفة، ولم تكن كتابة المقالة الواحدة لتستغرق اكثر من ساعة · ولكن قلة ما تستغرقه كتابتها من وقت لا ينفي عنها صفتي التركيز والنضج

---

(١) دراسات وذكريات ص ١٩٥
(٢) دراسات وذكريات ص ٢١١
(٣) أبو شبكة : مجلة الجمهور · العدد ٩١ ص ٧ سنة ١٩٣٨

فالمقالة " وليدة مكتبة طويلة عريضة انحصرت كلها في رأس الكاتب بعد جهود كثيرة استلزمت اياما وليالي ، ووليدة اختبارات واستنتاجات شخصية ادركها الكاتب في مراحل حياته، وهي الى ذلك وليدة موهبة خصه بها الله . " (١)

اما مواضيع هذه المقالات فمتنوعة، وكان، اذا عسر عليه العثور على موضوع يبني عليه مقالته، يعمد الى المطالعة، فتفتح عليه الباب الموصد ويجد الموضوع المنشود . (٢)

وأبو شبكة في مقالاته مواطن محب لوطنه، مخلص لمبادئ الحق والعدالة والمساواة والحرية .

وفي آرائه ثورة صارخة على كثير من مفاسد المجتمع، واسواء السياسة، ودعوة الى التحرر من هذه الادواء التي تنخر جسم الامة، وتعرقل سيرها نحو مستقبل افضل ، وحياة أكمل .

يهاجم المجتمع الذى لا يوفر العمل لمحتاج اليه ، فيقول :

" ان مجتمعا يحتال على العامل ، فيشغل الاعزب، ويعطل المتزوج هو مجتمع مجرم (٣)

ويثور على ظلم الحكام فيقول :

" فقطرة من عدل الحاكم تفجّر الينابيع، وتحيي موات الارض، وتملأ القرب . اما ظلمه فيجفف السواقي وينثر الشجر ويهرئ الثمر ، ويمسك ماء السماء، ويوحي الكواهة والاشمئزاز حتى الى البؤر والمستنقعات . (٤)

---

(١) أبو شبكة : الجمهور . العدد ٧٦ ص ١١ سنة ١٩٣٨
(٢) أبو شبكة : الجمهور . العدد ٤٣ ص ٥ سنة ١٩٣٧
(٣) المكشوف . العدد ٣٨٨ ص ٩ سنة ١٩٤٤
(٤) المكشوف . العدد ٣٧١ ص ١ سنة ١٩٤٤

ويحمل على الذين يستعيضون عن النظر الى المستقبل، بالالتفات الى الماضي، فيقول: " ليس في الدنيا أشقى من بلد لا يذكر بسوى ماضيه... بماذا ترى نستطيع غدا ان نواجه الاحداث في هذا العالم الذى يتمخض بولادة جديدة؟ ابماضينا ام بحاضرنا؟(١)

ويحمل على "الطائفيين" فيقول:

" ..واني لاصح في آذان اولئك المضعضعين في عصبياتهم، المملوكين لحزازاتهم، الجاهلة ان الوطن العربي الذى تحملون به وتوقعون لاجله الواقعة لا يبنيه الا مدارس تطهر نفسها من امثال هذه العصبيات وهذه الحزازات، ولا يشد اواصر بلابلها ونسورها الا اللغة والدين. والدين عدو الطائفية ودعامة المجتمع." (٢)

ويدعو الى تحرير المرأة من عبودية الحذر. فيقول:

"ان للمرأة حقا طبيعيا بالمساهمة في اعمال الرجل، على الا تسيء الى بيتها، فمما اعتق الشارعون المرأة ليستعبدها الزوج في خدرها." (٣)

ويؤلمه غمط حق الاديب في الدولة فيقول:

".. على ان ما يؤلمك ان قسط الادباء في هذه الدولة أضأل من حظهم كان هذه الدولة حرب على الاديب". (٤)

ويتحدث عن صلة لبنان بالبلاد العربية، فيراها ثقافية. ثم يذكر الاساس الذى ينبغي أن يقوم عليه التعاون بين لبنان والبلاد العربية فيقول:

---

(١) المكشوف. العدد ٣٨٥ ص١ سنة ١٩٤٤
(٢) مجلة الحكمة ج ٢ ص٢٠ سنة ١٩٥١
(٣) الجمهور. العدد ٨٤ ص ٨ سنة ١٩٣٨
(٤) الجمهور. العدد ٦٠ ص٥ سنة ١٩٣٧

"واذا كنا نحن اللبنانيين ننظر نظرة ارتياح الى المباحثات التي تدور اليوم بيننا وبين سائر الاقطار العربية فانما ننظر هذه النظرة من جهة واحدة لا غير، هي جهة التعاون الثقافي الذى يربطنا في الوقت نفسه بجميع الشعوب والامم التي تستهدف النور وتعمل على رقي الانسان... ولا يخيلن الى احد اننا نقصد بهذا اية تفرقة واى تباعد، بل نريد ان يتم بيننا التعاون ليس على اساس تلك الشائعة المروجة خطأ، وهي ان لبنان بلد صغير يسهل خنقه اقتصاديا بل على اساس الاعتراف الصادق بحق لبنان في تصريف شؤونه على ما يلائم مصالحه، وعلى اساس الاحترام الصادق لكل صداقاته قديمة كانت او حديثه." (١)

وفي عام ١٩٣٤ شرع ينشر فصولا كتبها عن رجال السياسة في لبنان، في جريدة "النداء" وهي فصول نقدية كان يوقعها باحد تواقيعه المستعارة، وهو "الشاطر حسن". والشاطر حسن هو الذى قبض على الاربعين لصا في قصة "علي بابا" المشهورة. (٢)

وكانت لهجة مقالاته التي يبعث بها الى الصحف المصرية عنيفة حادة. وكان يهاجم بها السياسة اللبنانية أشد هجوم. وفي مذكراته نجد هذه الفقرة:

٣ شباط ١٩٣١

بعثت هذا المساء رسالة الى جريدة "المساء" المصرية طعنت فيها بحكومة لبنان العاهرة، فالحقائق التي لا اجراء ان اقولها في هذه البلاد اقولها في مصر، وهكذا المصريون فانهم يقولون هنا ما لا يجرؤون على قوله في بلادهم. (٣)

---

(١) المكشوف. العدد ٣٩٧ ص ٧ سنة ١٩٤٥ من مقالة عنوانها "في لبنان شعب"
(٢) الياس ابو شبكة: دراسات وذكريات ص ٢١٠
(٣) الياس ابو شبكة: دراسات وذكريات ص ١٩٥

وفي عام ١٩٤٤ نجد له مقالات سياسية كثيرة، جعلت منها مجلة المكشوف افتتاحيات لاعدادها. ونجده، في هذه المقالات، يعمد الى ذخيرته من الاقاصيص الفرنسية عن الحيوانات فيرويها باسلوب ساخر، مرح ثم يختمها بعبارة تتضمن مغازيها، وتشير الى الغرض السياسي الذى استهدفه. (١)

ولعل السبب في قصده الى هذا الاسلوب الرامز الذى يشير، ولا يصرح هو ان الحرب كانت قد شبت، وان الرقابة كانت مبسوطة على الصحف والمجلات. وكثيرا ما كانت "المراقبة" تحذف موضوعا او بعض موضوع من المكشوف، وغيره (٢).

ولقد ضاق ابو شبكة بهذه الرقابة. وثار على قيودها فعمد الى كتابة افتتاحية عنوانها "حرية الكتابة"، وكان طبيعيا الا تسلم من قلم الرقيب يحذف منها ما شاء في ثمانية من المواضع، دل عليها بياض يتخلل السطور.

ومما سلم من نقمة الرقيب قوله: "مما لا شك فيه، ومن الامور الراهنة التي لم يختلف عليها مفكرون اصحاء، امن الشرق كانوا ام من الغرب، من هذه الجمهورية او من تلك الملكية أن حرية ابداء الرأى هي الشكل الاسمى للانعتاق الفردى، والدليل الامثل على احترام الشخصية البشرية ... ولقد قطع التاريخ الدليل على ان مسلك المجتمع والفرد يتسع او يضيق بمعدل قبولهما الذود عن حرية الفكر والعمل والدفاع عن المبادئ الادبية، مبادئ احترام العهود المقطوعة، واحترام حقوق الانسان" (٣)

ولقد كان نقده السياسي يوم كان يكتب في المعرض عام ١٩٣١، جامعا بين اللذع والدعابة. كان يومذاك كفيلسوف ضاحك، وكواحد من هؤلاء الادباء البارعين الذين قالوا كل ما ارادوا من

---

(١) راجع مقالة "ما ذنب الخراف؟". المكشوف. العدد ٣٧٤ ص ١ سنة ١٩٤٤

(٢) راجع المكشوف: العدد ٣٧٤ ص ٣ سنة ١٩٤٤، العدد ٣٧٦ ص ١ سنة ١٩٤٤، العدد ٣٨٠ ص ١ سنة ١٩٤٤

(٣) المكشوف. العدد ٣٨٠ ص ١ سنة ١٩٤٤

خطير القول، وعلى افواههم ابتسامة هازئة، بالناس الذين يضحكون لطرافة ما يقرأون. ويغفلون عن الحقيقة الكبيرة، وهي انهم يضحكون من نفوسهم !

كان ابو شبكة من كتاب السياسة، خاض غمارها وعالج مواضيعها، داخلية وخارجية، بآراء ناضجة ولهجة صادقة نابعة عن ايمان مخلص بالمثل الانسانية العليا، بالحرية والعدالة والمساواة.

وكانت هذه المثل اكبر من ان تتوفر في حزب من الاحزاب او عند طائفة من الطوائف السياسية، لذلك اثر ابو شبكة ان يظل طليقا، فلم ينتم الى حزب، ولم يتعصب لطائفة. كان ضميره وحده حزبه المفضل فاتبعه بفخار.

وقد سئل مرة : اي الاحزاب اللبنانية أحب اليك ؟ "

فقال : " كل لبنان حبيب الي ... ولكني لا انتمي الى حزب ولن انتمي حتى المس بيدي ، واري بعيني انه بالامكان تطبيق المبادىء" (١)

بيد انه في الفترة القصيرة التي سبقت وفاته صار من مؤيدي الكتلة الوطنية التي كان رئيسها اميل اده ، وكان من المقرر ان تصدر الكتلة الوطنية جريدة، يكون ابو شبكة من محرريها . (٢)

وكان عمله في الصحافة يستأثر بكثير من وقته، ولا يتيح له وقتا كافيا يخلو فيه الى نفسه، ويخلد الى افياء شاعريته، فيبدع منها اطيب الشعر. والى هذا العمل المرهق ، المضيّق على شاعرية الشاعر اشارت مرة مجلة الجمهور فقالت : " والحقيقة التي لا جدل فيها انه لو لا المشاغل الدنيا الشاغلة التي تضغط على ابي شبكة فتستعمر وقته سواء لترجمة البرقيات أو لكتابة المقالات في الصحف اليومية ، او لغير هذا من الاعمال التي لا تتصل ايما اتصال بالفن لكان بامكانه ان يجود جودات شعرية خصبة رحبة. ولكنها دنيا غريبة كما تعلم لا تفتح بابا حتى تقفل الف باب لا سيما في احياء الشعراء، هؤلاء الذين كتب على لوحاتهم يوم الوحي الشقاء." (٣)

---

(١) المكشوف. العدد ٣٩٢ ص ١٠ سنة ١٩٤٥

(٢) يوسف سليم ساروفيم : من حديث خاص اذن بنشره

(٣) الجمهور. العدد ٩٥ ص ٢ سنة ١٩٣٨

الرسوم

ولعل أبرز ما تركه ابو شبكة الكاتب هو "رسومه"

و"الرسوم" هذه صور قلمية بارعة وفق فيها قلم ابي شبكة ايما توفيق. وقد عرضها على صفحات "المعرض" بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ فكان لها اهميتها يومذاك.

وأسلوب هذه "الرسوم" متميز بعناية فائقة بذلها الكاتب، ولم يبذل نظيرها الا في نثره الفني.

ففي هذا الاسلوب من حسن اختيار اللفظ وبراعة التاليف وجمال النسيج بل وطرافته ما يلفت النظر. وفيه من جزالة البيان العربي العباسي ونصاعته الشيء الكثير.

ويرى الاستاذ رفائيل بطي في بحث له عنوانه "الياس ابو شبكة كاتبا وشاعرا" ان ابا شبكة في رسومه مجار للشيخ عبد العزيز البشري في صوره القلمية التي كان ينشرها في "السياسة الاسبوعية" بعنوان "في المرآة". انه يقول:

"ان هذا الاديب الموهوب وان تتلمذ في فنه المستحدث على اساتذته الفرنسيين، فلا ريب في انه كان لما شرع يجلوه الشيخ عبد العزيز البشري ـ المنشيء النابغة ـ في مرآة "السياسة الاسبوعية" من شخصيات مصرية، فضل لفت نظره الى هذا الصنف من صنوف المواد الصحفية، وقد حمله استحسان الناس لها على جمعها في كتاب بعنوان "الرسوم"[1]

اذكر من نماذج هذا الاسلوب بعض "رسم" الاديب الشاعر امين تقي الدين:

"حسن الامة، تغشى وجهه شحوب جميل يتحير بين لوني الفجر والصباح، وتملت مقلتيه العربيتين عذوبة صوفية تبتلت اليه ملاوة من الدهر ولما تزل.

حمل من عسف الدهر اوزارا ثقالا وقد يكون سبب ذلك انه آوى اليه صدق الضمير فلم يتمنّ يوما ولم يدهن. جبل من صعيد طيب فهو صورة الله في خلقه، وقليلا ما يقع الصديق في خلائف الارض على صديق مثله.

---

(١) رفائيل بطي: مجلة الثقافة. العدد ٤٢٥ ص ١٨ سنة ١٩٤٧

تجلس اليه فترى على اديمه الجميل ظلا من جمال النفس فكان جسده ونفسه نجمـا من سلالة واحدة ، اما حديثه فلا تغشاه غبرة من التكلف فهو حديث النفس المرسلة علـى فطرتها ، وما اجمل الفطرة التي لا تستغشي في نفس الاديب غير ثوبها ... » (١)

كما اننا نجد في "الرسوم" أطيافا من النكتة البارعة، والدعابة المستملحة، فمن ذلك قوله في الاستاذ ميشال ابو شهلا:

"بدين الجثة، عاليها، واسع فناء الصدر، نافر الثديين، يمشي دفعة واحدة كان علـى صدره رحـى .

تألبت اللحوم على ساقيه فالتفت احداهما بالاخرى ، الا ان هذا الالتفاف لم يمسح عنها جمال التركيب ، فقد سكبتهما الطبيعة في اكمل قوالبها ... أترفه الله او الحظ ، وقد يكون لهذا الترف يد أثيمة على شعره ، فلقد شاء سوء الطالع الا تحضن المخيلات وتلد الا اذا حالفت القلة جيوب اربابهـا ... » (٢)

ولم تقتصر ريشة ابي شبكة على رسم الادباء كميشال ابو شهلا(٣) وامين تقي الدين(٤) وشبلي الملاط (٥) وخليل تقي الدين (٦) بل راحت ترسم رجال السياسة والادارة واهـل النفوذ في لبنان على مثل نهجها الذى نهجته في رسوم اهل الادب والشعر : دقة في الوصف وأسلوب جامع بين جزالة القدماء ورقة المحدثين، ونظرات حادة نافذة تحسن التقاط اللقايـا ، وحسن ابداء للمحاسن، وبراعة في عرض المساوئ خلف ستار يشف ولا يكشف ويشير ولا يثير .

---

(١) مجلة المعرض . العدد ٩٠٢ ص ٩ سنة ١٩٣٠
(٢) مجلة المعرض . العدد ٩٠٥ ص ٥ سنة ١٩٣٠
(٣) المعرض . العدد ٩٠٥ ص ٥ سنة ١٩٣٠
(٤) المعرض . العدد ٩٠٢ ص ٩ سنة ١٩٣٠
(٥) المعرض . العدد ٨٩٩ ص ٦ سنة ١٩٣٠
(٦) المعرض . العدد ٩٠٧ ص ٨ سنة ١٩٣٠

الا ان هذه الرسوم ورسوم الادباء ينقصها ان تكون اكبر بحيث توضح الاتجاهات العامة في شخصيات المرسومين وتعرض بيئاتهم .

وممن رسمتهم يد ابي شبكة الصناع : حسين الاحدب والدكتور ايوب تابت وابراهيم حيدر [١] وميشال زكور وهنري فرعون وعبد الله اسحق [٢] وجورج تابت وحبيب طراد واميل تابت [٣] وسليم تقلا وعز الدين العمري والشيخ كسروان الخازن [٤] وميشال شيحا والامير توفيق ارسلان والدكتور مسعود يونس [٥] وجبران التويني ويوسف السودا وحسين قزعون [٦] .

---

(١) المعرض . العدد ٩١٦ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(٢) المعرض . العدد ٩١٧ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(٣) المعرض . العدد ٩١٩ ص ٤ سنة ١٩٣٠
(٤) المعرض . العدد ٩٢٠ ص ٤ سنة ١٩٣٠
(٥) المعرض . العدد ٩٢١ ص ٨ سنة ١٩٣٠
(٦) المعرض . العدد ٩٢٢ ص ٢ سنة ١٩٣٠

فـــي الترجمـــة

كان من فضل اتقان أبي شبكة اللغة الفرنسية، وشغفه بادبها ان اقبل على نقل كثيـــر من النتاج الادبي الفرنسي الى اللغة العربيـــة.

فما كاد يترك المدرسة حتى نقل الى العربية مسرحية "السامرية" ثم أخرجها على مسرح بلدته "الزوق".

وتلا هذه المسرحية بثانية هي "سيرانو ده برجراك" التي الفها بالفرنسية ادمـــون روستـــان[1].

وانصرف بعدئذ الى طبع مترجماته، وجلها رواياته وتمثيليات، هي "الحب العابـــر" لهنري بوردو، و"عنتر" لشكرى غانم، و"جوسلين" و"سقوط ملاك او الهة لبنان" للامرتين، و"مجدولين" لالفونس كار، و"الطبيب رغما" و"مريض الوهم" و"المثرى النبيل" و"البخيل لموليير، و"مانون ليسكو" تأليف ا.ف. بريفو، و"بول وفرجيني"، و"الكوخ الهندي" لبرناردين ده سن بيير، و"ميكرومیغاس وثلاث قصص" لفولتير.

اما ما ترجمه، غير الروايات والتمثيليات، فهـــو:

"المجتمع الافضل" لاندريه فيكتور و"قصر الحير الغربي" لدانيال شلو مبرجه و"اوسكار وايلد امام القضاء" لادمون روستان و"بودلير في حياته الغرامية" لكميل موكلير[2].

ولابي شبكة راي في ما يدعو الكاتب الى ترجمة النتاج الغربي الى اللغة العربية، عبّـر عنه في مقال له عنوانه "لماذا نترجم".[3] انه يعد الترجمة وليدة الحاجة المادية الماســـة

---

(١) الياس ابو شبكة: المكشوف. العدد ٣٥٢ ص ١٢ سنة ١٩٤٤

(٢) ورد التعريف بهذه المترجمات في حديثي عن مؤلفات الشاعر.

(٣) المعرض. العدد ١٠١٦ ص ١٥ سنة ١٩٣٤

التي تكتنف الاديب الشرقي ، وقنوطه من ان يكون لنتاجه الاصيل المنبعث عن جهد مضـــن طويل ، ثمرة مجدية في بلاده، لذلك فهو " لا يجد مندوحة من الالتجاء الى افكار غيره ليبيعها بثمن قد لا يكفيه مؤونة وقت قصير كالوقت الذى صرفه لنقل تلك الافكار ..." (١)

ولقد كان ابو شبكة سريع الترجمة عن الفرنسية الى العربية، وقلما استعان بالمعاجم من اجل هذا الغـرض . (٢)

اما اسلوب ابي شبكة في الترجمة فشبيه باسلوبه في الكتابة الصحفية، يعمد فيه الـــى اختيار الالفاظ المألوفة السهلة، ويودعها في العبارات البسيطة الواضحة . وليس في هـــذا الاسلوب ما في "الرسوم" من احكام الديباجة وجزالة اللفظ ، او ما في اوصافه للطبيعة مـــن نصوع السبك وتألق اللفظ . انه في الترجمة كاتب منطلق على سجيته، لا يتأنى ولا يقـف . وفيم يتأنى ويقف وهو ينقل افكار غيره "ليبيعها بثمن قد لا يكفيه مؤونة وقت قصير ..." انـه يترجم المقالات والروايات ، لا ليعبّـر عما في نفسه ، او ليدل على ادبه . فحسبه انه فتـــح لهذه النفس، وهذا الادب اكثر من جو وميدان . انه يترجم ليكتسب شيئا من المال يستعين به على العيش، وما اصعب العيش يريده الاديب من قلم نظيـف !

ولست اريد بما قلت ان انسب الى مترجمات ابي شبكة ضعفا في الاسلوب او تخلفـا عن البيان ، بل اريد ان اقول انها دون نثره الفني منزلة واننا ان اردنا ان نحكم على نثر ابي شبكة ، فلننظر الى ما أبدعه منه تلبية لداع في النفس، وتعبيرا عن احساس لها فكـان نثرا كانه الشعر أو شعرا كانه النثـــر .

---

(١) البرق . العدد ٣٣٧٠ ص ٢ سنة ١٩٣٠ .

(٢) اولغا ساروفيم : من حديث خاص معها اذنت بنشره .

فـــي القصـــــة

كان أبو شبكة شاعرا مبدعا وكاتبا بارعا، تحدث عنه عشرات النقاد والادباء وخصـــوا شعره ونثره بكثير من العناية والبحث، ولكنهم مروا بقصصه سريعا، لا بل انهم لم يقفوا عندها فما قرأت فيما كتب عنه اصدقاؤه وطائفة كبيرة من الادباء والنقاد اية اشارة الى قصصه الطويلة والقصيرة. ولعل ضعف مستواها الفني وانحدارها عن مستوى شعره ونثره الفني مما صـرف عنها انظارهم. والحق ان ابا شبكة كان يكتب القصص القصيرة. كما كان يكتب المقـالات المتنوعة ويترجم البحوث — تلبية لحاجة المجلات التي يعمل فيها محررا. وكان يكتب القصة للدهماء لا لسواهم، فلا تستغرق كتابتها اكثر من ساعة ونصف الساعة.(١) كانت كتابـــة القصة عنده عملا صحفيا يستجيب فيه لداعي المطبعة قبل ان يستجيب لداعي النفس. ويدلك على هذا قوله مرة للشاعر امين نخلة: "..عليّ الليلة تلفيـق قصة وتصنيف مقالة"(٢).

ومن قصصه القصيرة: "اديب متزوج"(٣) و"صديق الاديب"(٤) و"الحب في ساعة"(٥) وله رواية تمثيلية قصيرة ذات فصل واحد هي "الاوادم الطازه او حديثو النعمة"(٦) والقصص الثلاث بسيطة الحوادث، ترمي الى النقد الاجتماعي باسلوب ساخر، ولكنها تفتقر الى مزيـد من البراعة الفنية والحبكة. وقصة "الحب في ساعة" واقعية عاشها المؤلف. اما "الاوادم الطازة" فيهما "كرواية تمثيلية ذات فصل واحد" انها كثيرة المشاهد، وان هذه المشاهد قصيرة، وبعضها مفرط في القصر فليس في المشهد الثاني مثلا الا حوار بين اثنين هما نعيمة ربة المنزل وشفيق ابنها. وحظ نعيمة من الحوار ثلاث عبارات، ولكنه مع هـذا يزيد على حظ شفيق الذى لم يفه الا بعبارتيـن.

---

(١) العاصفة. العدد ٩٩ ص ٤ سنة ١٩٣٧
(٢) المصدر نفسه
(٣) المعرض. العددان ٩١٦ ص ٢١، والعدد ٩١٧ ص ٢٠ سنة ١٩٣٠
(٤) المعرض. العدد ٩١٨ ص ٢٢ سنة ١٩٣٠
(٥) المعرض. العدد ٩٧٧ ص ١٢ سنة ١٩٣١
(٦) المعرض. العدد ٩٩٣ سنة ١٩٣٢

و "التمثيلية" تهدف الى انتقاد محدثي النعمة المتفرنجين الذين لا يحسنون نطق العربية، وتظهر تصادم الجيل القديم مع الجيل المحدث.

وقد اشترك أبو شبكة مرة في مباراة قصصية كان المحكمون فيها الاساتذة : جبران تويني وزير المعارف آنذاك ، وكرم ملحم كرم ، وتقي الدين الصلح ، وخليل تقي الدين ، وميشال ابو شهلا . وبلغ عدد المتبارين ثلاثة وثلاثين .

ويهمنا من هذه المباراة أمران ، أولهما أن اللجنة التحكيمية قررت متفقة انه ما من قصة من قصص المباراة بلغت من الفن القصصي درجة تستحق الحصول على جائزة ما ، وانها رأت الا تحرم المتسابقين المجلين ثمرة جهودهم فقررت توزيع نصف الجائزة على الاول والثانيين ، والاحتفاظ بنصفها الثاني لمسابقة جديدة قابلة ، تأمل ان يكون للمشتركين فيها نصيب اوفى من المضي في الخيال .

وثانيهما أن أبا شبكة كان المجلي في هذه المسابقة، فحاز نصيبه من الجائزة وهو خمس عشرة ليرة !

أما القصة التي أفاءت على أبي شبكة الجائزة وليراتها الخمس عشرة فعنوانها "وردة القرية".

وهي كشعره تستمد موضوعها وصورها وشخوصها من حياته الخاصة وبيئته . بل انها لتشابه كل المشابهة قصيدته الطويلة "غلواء". فوردة في القصة فتاة قروية من عجلتون ، تقية مهذبة ينتقل بها أخوها المهاجر العائد الى وطنه باربعين الف من الدولارات ، الى أجمل أحياء بيروت " بيروت المدينة الحمراء" حيث زخارف المدنية ، وسراب الحضارة " فلم يلبث عفاف ذلك القلب أن تبدد في تلك الصحراء الدنسة." (١) وانتهى الامر بوردة الى الانتحار. مثل غلواء "الفتاة البريئة التي تنخدع بزخرف العالم فتسقط، ثم يشملها الندم فتكفر بالبكاء والموت." (٢)

---

(١) المعرض . العدد ٩٣١ ص ١٧ سنة ١٩٣١

(٢) المعرض . العدد ٩٣٤ ص ٥ سنة ١٩٣١

وفي القصة حب للطبيعة ، وثورة على الظلم ، وتمجيد للعمل ، وحملة على المهاجـــرة ، والمهاجرين "حطم البحر القذرة" (١).

ولابي شبكة قصة اخرى طويلة، عنوانها "العمال الصالحون" نشرها في كتاب طبعتـه المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٢٧ م .

والقصة هذه لم تستكمل عناصر الفن القصصي ، فهي لا تدور حول موضوع واحد ، بل تعرض صورا مختلفة لاشخاص كثيرين لا يبدو الترابط بينهم وثيقا الى حد يجعلهم كلهم اشخـــاص قصة واحـــدة .

ولهـذه القصة هدف اجتماعي اشار اليه ابو شبكة في عبارات "الاهداء" . فقد قدّم القصة الى "الامهات العاملات والاباء العاملين . الى شباب هذا العصر وفتياته، الى النفوس المتخلقة باخلاق التضحية والواجب اقدم هذه الروايـة ."

تمجد هذه القصة العمل والواجب والتضحية، وترى هذه الفضائل متوفرة في قوم طيبيـن، هم ، كما نتبين من وصفهم ونهج حياتهم، من ابناء الطبقة الوسطى محدودو الثقافة، محدودو الدخل ، محدودو المطامح . ولكنهم عند ابي شبكة، "بفضائلهم الصامتة وتضحياتهم المظلمة"، "قوة عظيمة من قوى الانسانية ." و "عليهم يتوقف مستقبل الوطن". (٢)

ومما يقلـل من شأن هذه القصة فنيا أن أبا شبكة في مواضع متعددة منها يلجأ الـــى طريقة الوعظ المباشر، فيعلن آراءه وأغراضه في غير تظليل ، أو توشيح . غير تارك للقـــارئ لـذة المكتشف الظافـر .

وفي القصة بعد هذا كثير من الآراء لا تخلو من حكمة، وكثير مـن التعابير الشعريـــة الجميلـــة .

---

(١) المعرض . العدد ٩٣١ ص ١٧ سنة ١٩٣١
(٢) راجـع خاتمـة القصـــة

وجو القصة، وفيه الطبيعة المشرقة ، وصدق العواطف وودا عة الوجوه ، يخلق في القارئ شعورا بالهدوء والاطمئنان .

ولابي شبكة ، بعد هذا، "طاقات زهور" وهي مجموعة قصصية اصدرها عام ١٩٢٧ متضمنة ثماني قصص قصيرة متشابهة المنهج والغرض .

هذه القصص القصيرة التي تنتظمها "طاقات زهور" تحمل طابعا دينيا بارزا ، مستمدا من الدين المسيحي والمذهب الكاثوليكي . فالقصة الاولى " سيدة عابرى السبيل " [١] تروى لنا نبأ بيلاطس البنطي الذى حكم على المسيح بالصلب على خشبة كبيرة، بين لصين ارضاء لليهود وتهدئة لثائرتهم ، وما قاساه من عذاب الضمير . ثم نبأ جثته التي ظلت شريدة زمنا مديدا . لفظتها الارض وأبتها هوة عميقة في الجبل ونبذها نهر التيبر ، والرون من بعده وأبعدتها عن ثراها مدينة لوران . ثم استقرت في جبل بلبنان عرف باسم جبل بيلاطس، ولكنها لم تنج من سخطه العظيم عليها وضيقه بها .

وقصة " العكاز الذهبي " [٢] تدور حول خطيئة الكبرياء التي ارتكبها الكاهن سليم، وعذاب المطهر الذى كفّر به عن خطيئته ، وشفاعة مريم العذراء ثم خلاصه من نار جهنم .

وقصة "وردة الجنة" [٣] شبيهة بالقصة السابقة ... نرى فيها الاخ "سليما" في دوامة من الشك . ثم نراه يطهر نفسه بالالم ، ويعود الى الايمان .

ومثل " العكاز الذهبي " و "وردة الجنة" قصة "راهب وملك" [٤] .

أما قصة "الزهرات البيضاء" [٥] فتروى خبر ولد سامرى اختطفه البحر واعاده الى امه الحزينة مختنق الانفاس . ثم رد اليه الحياة مريم العذراء وابنها الطفل يسوع .

---

(١) طاقات زهور ص ٣
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠
(٣) المصدر نفسه ص ٢٦
(٤) المصدر نفسه ص ٣٦
(٥) المصدر نفسه ص ٤٨

وفي القصة "مطوقة الطوباوى يوسف ده كوبرتينو" [١] نجد يوسف الكاهن التقي وقد بات غرضا لسهام ابليس ينوشه به ، ويصب عليه العذاب حتى يورده مورد الردى .

اما القصة السابعة "كتاب الفرض" [٢] فقصة كتاب الصلوات الدينية الذى قرأ فيه لويس السادس عشر ، قبل اعدامه ، الصلوات الاخيرة .

والقصة الاخيرة "الناسك" [٣] تحدثنا عن ناسك اعتزل الناس ، وطالت عزلته سنينا عشرا هرب بعدها حين كثرت وفادات مقدسيه عليه ، الى قرية منفردة ثم الى عمود مرتفع ادرك نهايته مستعينا بجبل طويل . وظل هناك زمنا ، ناجيا من زحمة الناس ، ثم تركه حين احدقوا به من جديد .. وانتهى به الامر بعد الضرب في شعاب الارض الى الاسكندرية ليردها الى الكنيسة ، فقد انحرفت عنها .

على ان هذه القصص لا تتميز بطابعها الديني فحسب ، وانما تتميز بطابع ثان لا يقل عن الاول عمقا واصالة . ذاك هو الطابع الرومانسي حمله ابو شبكة الشاعر الى ابي شبكة القاص .

وصلة الرومانسية بالدين ، وبالكثلكة خاصة ، واضحة معروفة . ولقد كان من المظاهر الهامة الرومانسية القرن التاسع عشر احترام الرومانسيين شعائر الدين وذودهم عنها . وخير الامثلة في هذا الصدد شاتو بريان (١٧٦٨ — ١٨٤٨) Chateaubriand وكتابه "عبقرية المسيحية" Jenie du Christianisme الذى الفه دفاعا عن الكثلكة وردا على هجمات الكتاب العقليين في القرن الثامن عشر ، وكان واحدا من الاحداث العظيمة في نمو الادب الرومانسي . لم يبنه على فلسفة مدرسية وانما صحب فيه النفس الانسانية وهي تبحث عن محيط تلقى فيه التعبير الصادق ، والجمال الحق . [٤]

---

(١) طاقات زهور ص ٥٢
(٢) المصدر نفسه ص ٦٢
(٣) المصدر نفسه ص ٦٩
(٤) Justus Buchler, K.William Kapp and Robert S. Sopes: Introduction to Contemporary Civilization in the West. (Columbia Univerdity Press.) P. 46

واننا لواجدون الرومانسية في هذه القصص في كثير من المشاهد والمظاهر والسمات والاتجاهـات.

في "سيدة عابرى السبيل" (١) نجد الى جانب بيلاطس البنطي وعذابه وتشرد جثته، "فريدا" الولد الضاحك الذى كان يسمى فيما مضى "عصفور الغابات" قد غدا اسير كآبة عميقـة بعدما انسحق والده تحت صخر هائل في معبر الشيطان حيث جثة بيلاطس وشبحـه.

وفريد هنا، هذا الولد الذى فقد مرحه ولزم الحزن بعد مصرع ابيه، في حادث فجائي مؤلم، قريب الى قلب ابي شبكة الذى فقد وهو ما يزال طفلا اباه المحبوب حين اغتاله اللصوص في ديار الغربـة.

هذه الكآبـة مظهر رومانسي، يتصل بمظهر ثان نرى فيه "فريدا" يلوذ بالطبيعة، بضفاف البحيرة الزرقاء ومياهها الهادئة، وبالاكمات المعشبة الخضراء..

ونجد الرومانسية في هذا الكلف بوصف طقوس الكنيسة الكاثوليكية واحتفالاتها الدينية وهذه العناية بتفصيل الوصـف.

يقول الناقد ارنست بابت في صلة الرومانسية بالكثلكة وطقوسها واحتفالاتها: "لقـد عللت الاهتداءات الرومانسية الى الكتلكـة باسباب عديدة، كالرغبة في الاعتراف والجـاذب الجمالي في الطقوس الكاثوليكية وفي الاحتفـالات.." (٢)

فأبو شبكة وغيره من الرومانسيين يحبون هذه الطقوس والاحتفالات التي تشتثير فيهم العواطف والاخيلة وتطلع عليهم باشكال شتى من الجمال والايحاءات.

ها هوذا الكاهن سليم في اول عهده بالرهبنة يلبسه الرهبان ثياب المبتدئ البيضاء ويرسمون حول جبينه الاكليل الرمزى، وها هـوذا يهـز المبخرة الذهبية امام المذبـح. (٣)

---

(١) طاقات زهـور ص ٣

(٢) Rousseau and Romanticism P. 205

(٣) طاقات زهور. قصة "العكاز الذهبي" ص ٢١. انظر ايضا ص ٢٢

وها هوذا دير روايومون يحتفل بعيد عظيم فتغص الكنيسة الكبيرة الضخمة الاعمدة بالجمهور ، وتتصاعد من الجمهور المصلي ضجة مبهمة كاصطخاب الامواج ثم يفتح شباك الخورى وتتقدم طائفة موٴلفة من مئتي راهب ابيض يتقدمهم الرئيس واضعا على راسه تاجا من الصوف وقابضا بيده المضطربة على عكاز من العاج . (١)

واننا لنجد الرومانسية ايضا في هذه المراحل الثلاث التي تتعاقب في اكثر من قصة اعني مراحل الخطيئة والتكفير والخلاص ، ففيها من تمجيد الالم ما نعرفه عند ده موسه ولامرتين ، ومن تقديس التوبة والغفران ما نراه عند هيجو ، ومن الصبر والتحمل الصامت ما نجده عند ده فينيي .

خطيئة الكاهن سليم الذى " شعر بعاطفة مجد باطل تحرك قلبه الضعيف السكران " (٢) وتطهره " بنيران المطهر حيث قضي عليه ان يكفر عن خطيئة الكبرياء حتى يوم الدينونة الاخيرة (٣) ثم نجاته من عذاب جهنم الاليم بشفاعة مريم العذراء التي كان يحبها محبة عظيمة . (٤)

وخطيئة الكاهن الياس الذى كانت خطيئته ان تسلطت عليه الريب والشكوك وكان تكفيره عنها بان كبل رجليه بالسلاسل وجلد جسده حتى ادماه ، وكان خلاصه بان لجأ الى الله ينشد الشفقة ويستوهب الايمان . (٥)

وكذلك هو شأن الخاطىء الذى دفن نفسه حيا في دير روايومون ولقي أشد العذاب في تكفيره عن اثمه ، ثم شمله الله برحمته . (٦)

---

(١) طاقات زهور . قصة "راهب وملك" ص ٣٦
(٢) طاقات زهور . ص ٢٢
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢
(٥) المصدر نفسه . قصة "وردة الجنة" ص ٣٤
(٦) المصدر نفسه . قصة "راهب وملك" ص ٤٧

هاتان السمتان ، الدين والرومانسية هما اهم وابرز ما يميز هـذه الاقاصيـص التي هدف فيها أبو شبكة الى الوعظ والارشاد . وكانت عنده — قبل ان تكون قصصا "صفحات روحية ملؤها التعزيـة والحـب" "في كل صفحة منها عظة لمن يتعظ وعبـرة لمـن يعتبـر." (١)

---

(١) طاقات زهور . ص ٢

في النثر الفني

ليس بين النثر الكثير الذى خلفه ابو شبكة الا القليل مما ندعوه نثرا فنيا .

كان ابو شبكة قد اتخذ من قلمه وسيلة للعيش . وانها لمهمة شاقة أن ينهض قلم شريف بعبء اعاشة الاديب. لذلك كان على ابي شبكة ان يضاعف من جهد هذا القلم وان يستدر منه النتاج استدرارا ، فكتب للجرائد والمجلات في لبنان ، وفي مصر ايضا ، في مواضيع متعددة ، والف الكتب ، وترجم القصص وغير القصص . هذا فضلا عما كان ينظمه من شعر وعما كان يبذله لهذا الشعر من العناية والاهتمام .

ولست اريد بما قلت أن أغض من شأن هذا النثر الذى وصفت او أن ارده الى ضعف في الاسلوب او فقر في المحتوى . كلا ، فما انا بمدع هذه الدعوى ولا انا قاصد اليها ، فقد كان ابو شبكة من الحرص على قيمة الادب وكرامة الاديب بحيث لا يسف في اسلوبه اذا وسعه التحليق ولا يضعف فيه اذا تمكن من القوة .

والحق ان هذا النثر الذى أشبع به ابو شبكة فهم المطابع متميز بما لا يغض منه في موازين الكتابة واقدار الكتاب فهو لطيف اللفظ يجرى في يسر وسهولة ، ويغلب عليه من ضروب الكلام المساواة فما هو بالمتسع في اطناب او المتجمع في ايجاز وانما هو كلام تساوى الفاظه معانيه وتعرضها واضحة مشرقة .

وهذه السمات والصفات قد حددها الغرض المستهدف من هذا النثر ، فهو يهدف أول ما يهدف الى ان يكون مبناه ومعناه في متناول اكثر القراء ، وهم الذين تتألف منهم جمهرة قراء الصحف والمجلات والقصص .

أما هذا النثر الفني الذي أبدعه قلم أبي شبكة فنراه في " الرسوم " التي صوّر بها رجال الادب والسياسة والادارة في لبنان في هذه الرسوم نجد ابا شبكة يبحث عن اللفظة في كلام القدماء قبل محدثيهم ويضمها الى اختها اللفظة في جملة قصيرة وعبارة محكمة . ثم ينسج من كل ذلك ، في تأن وتنقيح ، صورة متناسقة الاجزاء .

ولن أمثل لهذه "الرسوم" فقد سبق أن فعلت ، في حديثي عن ابي شبكة الصحافي والكاتب والسياسي .

واذا اردت أن ترى كيف يكتب أبو شبكة نثرا فنيا في غير " الرسوم " فاقرأ له هذا الوصف الحافل بالصور الشعرية ذات الاضواء والظلال ، النافذ الى جمال الطبيعة (١) وأسرار فتنتها . وتأمل كيف يرى مشاهدها بعينيه وخياله وكيف يرسم لها بقلمه ما تتمناه ريشة الرسام . تأمل هذه الالوان البنفسجية التي يلون بها القمر قمم صنين ، هذه الالوان البنفسجية الكابية التي تسيل على المنخفضات شلالات باهتة غبراء وينعقد بعضها في مطاوي الاكتاف فتبدو كأنما هي بحيرات نائية توارت من الليل في غبرة شفافة ، وهذه الربوات من القمح على البيادر الغائمة في ابتسامة القمر . وهذا المزيج المبهم من نور القمر وضوء الفجر يرتعش ارتعاشا فضيا على شعفات الربى ويطمئن في الاودية والمنخفضات ..

مالي اجترئ من هذا الوصف الجميل ما لا يغني قليله عن كثيره .

مالي لا ادونه متصل العبارات ، متلاحق الانفاس ، فأرضي أهل النقد ، والتذوق ونسمع معا صوت أبي شبكة يقول :

---

(١) لأبي شبكة في وصف الطبيعة نثر كثير خص به مناظر الجبال ومشاهدها الجامعة بين الروعة والجمال . منه مقالته " الصخرة الجبارة في أعالي الجبال " المنشورة في الجمهور . العدد ٩٦ ص ٧ سنة ١٩٣٨

.. كان القمر يلون سلسلة القمم من صنين بألوان بنفسجية كابية تسيل على المنخفضات شلالات باهتة غبراء وينعقد بعضها في مطاوى الاكتاف فتبدو كأنما هي بحيرات نائية توارت من الليل في غبرة شفافة عند ما سلكنا منحدر وادى الصليب في ظاهر حراجل ، القرية الهادئة المطمئنة القائمة على مرتفع الف وثلاثمائة متر عن سطح البحر ، لنرقى الى مرتفع الف وثلاثمائة اخرى .

وما كدنا نعبر اكواخ الفلاحين وتتوارى عن اعيننا ربوات القمح على البيادر الغائمة في ابتسامة القمر حتى احتللنا من الوادى وحشة الذئب ، وخيّل الي أني أسمع المعري ينشد :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكدت أطير

.....

وبعد مسيرة تسعين دقيقة أو أكثر صرت الى سفح القمة العليا ، ارفع قمة من صنين ، واذا بمزيج مبهم من نور القمر وضوء الفجر يرتعش ارتعاشا فضيا على شفعات الربى ويطمئن في الاودية والمنخفضات فحولت نظرى الى الوراء فشاهدت قلعة " فقرا " تستيقظ من سباتها العميق وتتخايل في شبه غمامة شفافة من النور الغضي الجدران وهي تكاد لا ترتفع الا قليلا عن سلسة الصخور الجبارة المحيطة بها ، وكانت هذه القلعة على حد ما جاء في الاساطير — تمد ظلها العظيم الى البحر وقد تكون الاثر الوحيد الباقي من قلاع الفينيقيين (١) .

أو اقرأ له هذا الوصف لنوار ، الشهر الخيّر الجميل :

---

(١) المعرض . العدد ١٠٨١ ص ١٢ سنة ١٩٣٥

نوار [١] خامس شهور السنة وكأنه يد الطبيعة السخية مبسوطة بأصابعها الخمس وعليها خيرات الارض وبهجة السماء .

ونوار هو الينبوع تفجر من اعاصير الشتاء وسيوله ، وثلجه ووحوله ، مستحلبا من التراب (ماء) ومن الصخر رداءه .

هو للنحل ، حلم العسل ، وللحقل آخر أمل اذا اعطى احيى ، واذا أمسك أمات . ففي يده الموت والحياة .

وهو في البستان قلب ولسان ينفرج الاول عن اسرار آذار وينكشف الثاني عن اساطير نيسان .

ونوار ، بلبل هنا وهناك كنار . للشعر قافية وللموسيقى قرار . تستمد منه الأرض زهورها ، والزهور عطورها ، والقلوب نورها .

للربيع آخر قطرة ، وللصيف اول جمرة .

هو شاعر الشهور ، وحكيم البذور ، غناها طفلة ، ويوعاها حبلى .
تلعثمت الطبيعة في آذار وأفصحت في نوار .

نوار ، نونه نضار ، وواوه ولاء ، والفه أمل وراؤه رجاء .

هو الشباب اكتمل ، على شفتيه نضجت من الشمس القبل ، واختمر على وجنتيه الغزل .

وهو الحب في كماله ، جمع بهجة شعوره الى اتزان خياله ، وشف من فورة القوة الى هدوء القوة .

---

(١) الأديب ج ص ٢ سنة ١٩٤٣

فنوار عاشق جبار ، على وشاحه المخضب بالارجوان ، دماء نيسان ، وعلى صولجانه ، طغراء سلطانه .

نوار ، حلم النبات والازهار ، وسيد الطبيعة المختار . "

•

هنا وصف يكتبه أبو شبكة مستجيبا الى هاتف من نفسه وحدها . انه لا يكتبه ليبيعه الى هذه المجلة أو تلك الجريدة لقاء ليرات معدودات لا تسمن ولا تغني من جوع وانما يكتبه كما ينظم شعره مستوحيا فيه عاطفته ومشاعره ومارا عليه بريشة الفنان قبل كلام الكاتب . ثم يصفيه ويدأب على التصفية حتى يعود جملا وعبارات موجزة قصيرة تضم الكثير من فنون البيان تشبيها ومجازا وسجعا وطباقا . وتشير الى عمق في الفكرة ودقة في النظرة .

الا ان هذه الصفات التي يتسم بها اسلوب ابي شبكة في رسومه أو وصفه ليست صفات كل نثره الفني . فقد تغيرت هذه الصفات بتغير الزمان . وتغيرت بتغير المواضيع .

واذا اردت نموذجا آخر من نثر ابي شبكة الفني تظهر فيه صفات اخرى غير ما ذكرت ، فاليك هذا الجزء من مقالة ادبية له عنوانها (الميلاد المثلث الالوان . ثلاث ذكريات بيضاء وسوداء وحمراء)

الذكرى الحمراء (١)

وهبت من الغرب ارياح فاترة بددت في الشرق أخيلة الجناح اللاجيم ، فبرزت ازهار الامل تضحك في الاودية والربى ، وقهقهت الغبطة حتى في الكوخ . واتلعت

---

(١) المعرض . العدد ٦٤ ص ٥ سنة ١٩٣٧

حتى البنفسجة الوديعة عنقها تحاول ان تخلع عنها الحياء القديم .

وكبركان ملئت احشاؤه ضغط الحمم انفجرت الحياة بكل ما في احشائها من المخزنات . فذابت تقاليد العائلة وانسربت الى مهوى سحيق ؛ وخشي الناس وجه الماضي لهوله فمحوه ؛ وسئموا الالم فطلبوا اللذة ؛ وشقوا لها دروبا فرشوها بأزهار الفاتحين ، وجاءت اللذة قرسا جموحا فبذلت الاعراض مواطئ لحوافرها وسخرت لصهيلها الاوزان ، وفي موكب هذه اللذة مشى حتى مذود الطفل ، وحتى بابا نوئيل .

فالمذود صار خمارة ،

وبابا نوئيل .. تحول الى امرأة عارية الفخذين في فمها شهوة ، وفي عينيها نداء ، وعلى كتفيها فروة بيضاء تغطي نصف كتفيها .

والاطفال اصبحوا مسوخا ، العابهم دبابات واذرعهم قصبات معطوبة .

والاباء يحيون ذكرى مولد الحب العظيم في كهف الحب الفاجر .

والامهات ، ...

نحن الآن في الليل الرابع والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٣٧

الاجراس تقرع في مغارة الطفل ، والسماء صاحية ولكن نجمة المجوس منطفئة

المجد لله في العلى ، وعلى الارض الخصام ، وفي الناس المعرة،

في هذا النموذج تلاقينا لفحات من "أغاني الفردوس" منها : البركان الذى ملئت احشاؤه ضغط الحمم ، والمهوى السحيق ، واللذة والاعراض المهتوكة ، والخمارة ، والمرأة العارية الفخذين ، والفم الشهواني ، والحب الفاجر و.. على الارض الخصام وفي الناس المعرّة ،

ثم نجد صدق الاحساس وعنف الانفعال .

الكاتب هنا رومانسي النزعة، يائس من هداية المجتمع فهو يعرضه بلا اقتناعة ويهاجمه بأسلحة سبق ان استخدمها لمثل هذه الغاية في "افاعي الفردوس" تلك هي الفاظه المحمومة الدالة على الاضطراب والانفجار والانحدار والشهوات البهيمية.

بل انك لتجده يحكي في كتابته احيانا اسلوبا توراتيا. بأن يلتزم الجمل القصيرة ويكرر بعضها، ويقدم المفعول به على فاعله، ويعمد الى التشابيه المبتكرة، والى تنويع ضروب الكلام من خبر وانشاء، ومن امر ونهي وتعجب واستفهام. وبأن يذكر من المرأة محاسنها الجسمية جاريا على منهج "نشيد الانشاد".

"تعالي الي كالطيف. غطي رجليك حتى الكاحلين. وخصرك هذا احجبيه عني وعيناك هاتان لا تحركيهما. وفمك ... آه، وفمك هذا حجريه. وشعرك صنعي عليه قبعة لا حبرة، فهذه تغويني وتوالمني، تعالي الي كالطيف، قطعة واحدة من الليل لا نور فيها ولا بريق. ولكن .. في حنجرتك سحر فاغمريني به، ودعيني انسى انك جسد فهذا يوجعني ويغويني." (١)

---

(١) الجمهور. العدد ٧٧ ص ٨ سنة ١٩٣٨

في النقد الادبي

رحم الله ابا شبكة ، ما كان أوسع افقه واغزر نتاجه، لقد حمله جناحاه القويان بعيدا في آفاق الشعر، وحملته خطاه الثابتة عميقا في ميادين النثر. كان شاعرا وكان كاتبا ثم شاء ان يقف بين الشعراء والكتاب يرفع بيده المخلصة الجريئة ميزان النقد الادبي يزن به نتاجهم ، ويحكم له او عليه .

كأي ناقد ، تام الاداة ، كان لابي شبكة في النقد آراء متلائمة متلاحمة منبعثة عن ايمانه بمفاهيم عامة عن الشعر، والشاعر ، والادب، والاديب ، لا اجرؤ على ان اسميها مدرسة نقدية او نظريات نقدية فقد كان ابو شبكة عدو "المدارس" و "النظريات" في دنيا الادب والفن .

ونحن واجدون آراء ابي شبكة ومفاهيمه في المقدمة النفيسة التي صدر بها ديوانه "افاعي المدارس" وعنوانها "في حديث الشعر" . وسأعمد الى عرضها بايجاز نظرا لاهميتها وفائدتها .

يبدأ أبو شبكة حديثه بقوله : "لا أكتب هذه المقدمة لأحدد الشعر او لأعلم الشاعر كيف ينبغي له أن يشعر وأى طريق يجب عليه أن يسلك ليعد الى هيكل النور الاسمى او لأجيء بنظرية اتعصب لها واعلن لاجلها حربا فالشعر كائن حي تحتشد فيه الطبيعة والحياة . فلا يقاس ولا يوزن ، والنظريات مذاهب واغراض لا تعيش الا على هامش الادب كما يعيش العرض على هامش الجوهر او كما يعيش الدكتاتور الزائل على هامش الامة الازلية . "

هكذا يبدأ ابو شبكة حديث الشعر ، فيعلن بقوة ان لا نظريات في الشعر والادب لان الشعر اوسع من ان يحد ويسبر غوره ...

وينطلق في حديثه ، فاذا المنطق يؤازره في امكان صحة النظريات او المذاهب في شؤون السياسة ذات الحدود ، وعدم امكانها في الشعر الذى يعبر عن الحياة التي " لا جنسية لها ولا اوضاع ولا حدود " .

ثم يرد المحاولات الرامية الى تحديد الشعر بالطريقة الفلسفية لانه يرى في هذه المحاولات دليلا على الشك في الشعر نفسه " فالمرء لا يلزم جانب التفلسف الا عندما يخالجه الشك " .

ثم ينتقل الى رأى للشاعر الفرنسي بول فاليرى ، او نظرية هي " اذا آمن الشاعر بالوحي قتل الابداع (١) " فيناقش هذا الرأى طويلا ...

انه يعتقد ان الوحي حالة من حالات النفس عند تأثرها المباشر بقدرة خارقة وهذه القدرة غير منفصلة عن الانسان لانها جوهر نفسه . وعلى هذا الجوهر تنصهر المرئيات وتشترك في العمل جميع الحواس .

ثم يخلص من ذلك الى القول : "اذن فالقدرة الخارقة التي يتأثر بها الشاعر هي نفسه . والنفس قوة لم يدرك كنهها أحد . فكيف ننفي الوحي الشعرى ما دامت النفس مصهر الشعور .

---

(١) ورد هذا الرأى في محاضرة القاها الشاعر عن "الحياة والشعر" وهي مترجمة ، مع محاضرات اخرى له ولغيره في كتاب "من النقد الفرنسي" . ترجمها محمد روحي فيصل راجع ص ٢٦ - ٢٩

وابو شبكة في رأيه هذا قد وفق او حاول التوفيق بين رأيين : رأى المعتقدين بوحي شعري يتم بطريقة سحرية • من آفاق بعيدة فاذا نطق الشاعر فانما هو ناطق بما تدفق اليه من هذا الوحي ، لا دور له في هذه العملية الا الوساطة • وساطة من ينقل العواطف والافكار والصور الى عالم الرموز والالفاظ •

ثم رأى المعتقدين بأن الشعر ، كله او جله ، من صنيع الشاعر ، الحالم ، المفكر ، المتأثر ، الحي ، انهم ليأبون ان يكون الشاعر مجرد وسيط ، فأن كان كذلك فأين العبقرية والنبوغ واين جلال الجهد الانساني ؟!

اراد ابو شبكة ان يوفق بين الرأيين فلم ينكر الوحي الشعرى ، ولم ينكر قيمة الابداع الفردى ، بأن جمع بينهما في نفس الشاعر ، يلتقي فيها الايحاء والاستيحاء • وتتقبل ما يوحى به اليها ، من اين ؟ منها ايضا !

وفي هذه المحاولة نلمح الفارابي وهو يفسر النبوة ، قائلا :

"ولا يمتنع ان يكون الانسان اذا بلغت قوته المتخيلة نهاية الكمال فيقبل في يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة او محاكياتها من المحسوسات ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالاشياء الالهية • فهذا هو اكمل المراتب التي تنتهي اليها القوة المتخيلة واكمل المراتب التي يبلغها الانسان بقوته المتخيلة ••• (١)"

---

(١) اراء اهل المدينة الفاضلة ص ٧٦

ثم يعمد الى مناقشة رأى اخر لفاليرى ، مشتق من رأيه السابق ، وهو "ان الشاعر من يستطيع النظم ساعة يشاء ، وليس الشاعر وقفا للمصادفة" . ويوفق ابو شبكة في مناقشة هذا الرأى الذى يجعل من الشاعر نجارا او حدادا مثلا ، يعمل متى شاء ويكف عن العمل متى اراد .

فعنده ان الشاعر لا يخضع لزمن في انجاز عمله ، وانه يمر بساعات خدر لا ينظم فيها شيئا . وليس في ذلك غضاضة على قريحته .

ويعود بعد هذا الى رأى ثالث لفاليرى هو ان الشاعر الموهوب من يختار اللفظة الصالحة لاحداث الرعشة النفسية واحياء العاطفة الشعرية . نيرد عليه بقوله "على ان الشاعر الحقيقي لا طاقة له على اختيار اللفظة فله من شعوره الزاخر ما يصرفه عن هذه الالهية وعندى ان الشعر ينزل مرتديا ثوبه الكامل . وهذا الثوب جزء من الشعور لا يتجزأ . وقدر ما تكون ثقافة الشاعر من الرقي والذوق الموسيقي في روحه يكون البيان راقيا في شعره وهذه اللفظة التي يريدنا بول فاليرى على ان نختارها تتكاتف العناصر الروحية فينا على اختيارها ..." (١) .

وابو شبكة في رأيه هذا مصيب ، وجار مع علماء الجمال على نهج واحد .

ان مهمة اللغة الشعرية عندهم هي نقل العاطفة ، نقلا صادقا امينا ، وتعبير خارجي عن حال داخلية . فمتى توافقت تجربة الشاعر مع تعبيره توفر في قصيدته الفن . واكرم ما يكون هذا التوافق حين تغدو المادة والصورة على حال من التداخل يجعل الفصل بينهما امرا عسيرا كل العسر ، والشعراء المبدعون ، المجلون هم الذين تقوى عندهم

---

(١) افاعي الفردوس ص ١١

علاقة المادة بالصورة ، وكذلك هم الكتاب الفنيون .

ولكنهم مع وثيق ايمانهم بمتانة الصلة بين المادة والصورة ، وصعوبة اختيار اللفظ ، لا ينفون ان الشاعر له ان يعيد النظر فيما نظم ، فيبدل الفاظا ، ويحذف اخرى . وهذا ما فعله كابر الشعراء ، وما يفعلونه . انهم لينطلقون في نظم قصائدهم مع التيار الشعوري الدافق ، فاذا هدأوا عادوا الى نتاج قرائحهم ،ينظرون اليه نظرات الفنانين ، ويصفونه في بوتقة الفن .

وخلص بعد هذا الى التعليق على قول للاب بريمون هو : " انه لا حاجة لفهم معنى الشعر ، فالسحر المنبعث عن موسيقاه يؤثر في النفس تأثيرا مباشرا ، فلم يقبله كل القبول . فعنده ان الموسيقى عنصر من عناصر الشعر وليست الشعر كله ، فلا يجوز ان تنحط الفكرة عن الموسيقى او الصورة عن الفكرة او الشعر يرافق جميع وجوه التفكير ولكن لا يكون المرء اذا هو اقحم الفلسفة في شعره اقحاما ، وراح يناقش فيها كالمعلم العالم وكما فعل المعري شاعرا تام الشاعرية .

ولم تكن اراء ابي شبكة هذه ، الا من نتاج مطالعاته الغزيرة ، وخبرته الادبية وتمرسه بالنثر والشعر • وقد عبر عنها في المجلات والصحف التي كان يكتب فيها ، بعزم واصرار ، وباقتناع ويقين •

شن ابو شبكة حربا عنيفة على المدارس والنظريات الادبية ، فقد كان معتقدا الاعتقاد كله ان الادب — والشعر خاصة — ينبغي ان يكون حرا من كل قيد ، فلا يخضع لمذهب ادبي ، او مدرسة نقدية ، او نظرية شعرية فنية •

كانت النظريات عنده امراضا ينبغي تجنبها ، فقال : " ومن نكد الدنيا على الادب ان يكون الناقد ذا نظرية يتشبث في تطبيقها على ما يقع عليه من ادب الناس فالنظريات في الادب امراض ٠٠٠(١) "

اما الداعون لهذه النظريات فكانوا في عرفه متفكهين ، متحكمين ، فقال : " ٠٠٠ ثم ما هذه المقاييس والانظمة والدساتير يطلع بها علينا المتفكهون ويفرضونها فرضا كأن في ايديهم ارسانا يوجهون بها الحياة على ما يحلو لهم • خذوا الادب كما هو فاذا كان جميلا قويا فانشقوه واذا كان بشعا مملولا فافرغوه (٢) "

وقد حمل على هؤلاء النقاد واستنكر محاولتهم توجيه الادب الى حيث يريدون ، وكأني به يرد على ناقديه اذ يقول : "ليس للناقد ان يأخذ على امرئ طريقا يسلكها على ادبه ، فالادب هو الحياة — واصر على هذا القول — وليس لاحد ان يتقاضى احدا السير في الحياة على غراره ، ليس للناقد ان يسأل اديبا : لماذا لم تكتب هذا او ذاك • ولماذا قلت ما لا ينبغي لك ان تقول • لماذا اغريت هذا الجانب من حياتك

---

(١) الجمهور • العدد ١٨ ص١٢ — ١٩٣٨

(٢) الجمهور • العدد ٦٥ ص٦ سنة ١٩٣٨

فحملت الناس على الاشتباه به • ولماذا قلت هنا ما يناقض قولك هناك • بل للناقد ان ينظر في القطعة المنقودة من وجهتها الادبية لا من وجهتها التاريخية فكثيرا ما لا تمثل هذه القطعة ناحية من نواحي حياة كاتبها ، بل ناحية من نواحي الحياة العامة في المحيط الذى يعيش فيه هذا الكاتب • (١) "

اما الناقد الحق عنده فهو ذلك الذى ينقد نقدا نزيها ، غير متأثر باحكام سابقة او باتجاهات معينة • هو من يقصر نقده على الاثر الفني بما فيه من تجربة شعورية ، ويهدى التوفيق في التعبير عنها ، ونقلها الى المتذوق •

والذى لا بد ان يتوفر في الناقد من الفضائل والمزايا ليكون من النقد على خير مناهجه ، بصيرة تنفذ الى الاعماق عن طريق الوجدان ، وعدل تتجرد به النفس من الطفيليات وفلسفة تسبر غور الفكرة وتستخرج منها الجوهر المكنون ، وشعر يستعين به الناقد على فهم شعور الغير (٢) •

ولا بد له ، فضلا عن العلم والادب والخبرة ، من الاخلاق (٣) •

وقد بحث ابو شبكة موضوع هذه "المدارس" والنظريات "الادبية بحثا مفصلا في كتابه "روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة ، ثم علل سبب نشوئها في فرنسا وسبب انتقالها الى الشرق العربي • ففي فصل من الكتاب عنوانه "الغموض دخيل على الادبين (٤) يذكر ان الحرب العالمية الاولى اعقبت في الادب الفرنسي ظاهرة جديدة هي انصراف

---

(١) الجمهور • العدد ٩٨ ص ١٢ سنة ١٩٣٨

(٢) الجمهور • العدد ٩ ص ١٢ سنة ١٩٣٨

(٣) الجمهور • العدد ١٠٥ ص ٥ سنة ١٩٣٨

(٤) بريد الادبين الفرنسي والعربي

هي انصراف الادباء الفرنسيين عن الماضي الادبي المجيد وعدهم اياه "اثرا من الاثار المقدسة لا قاعدة للمستقبل ينسجون على مثلها (١) " وهذا الاتجاه ولد كثرة الاراء وتشعب المذاهب واستشراء الفوضى .

ثم يذكر ان بعض الادباء العرب المقلدين السائرين على نهج الاوروبيين والفرنسيين خاصة — استهزأوا فعلة الفرنسيين ، ونادوا بضرورة التمثل بالغرب ، واشادوا بالنظريات الحديثة "كأن الادب متاع الى حين يتبدل تبدل الحذاء (٢) " . ثم يعدد هذه المذاهب والنظريات فاذا هي (الكوبيسم) و (السنوبيسم) و (الرياليسم) و (الامبريسيونيسم) و (الفوتوريسم) و (المسمبوليسم) . "أصبحت هذه الاسم دلالة على اتساع معارف الناقدين في الادب . ولم يكتف النقاد بهذا بل راحوا يقيسون الادب ويزنونه على نحو ما يفعل الغربيون الذين ضاعوا في مجاهل اوهامهم ، فكل نقاد لا يحمل ميزانا وبيكارا لا يدرج في عداد المثقفين ، وكل مقال لا يسند بالمكاييل والموازين لا يحظى ، باحترام المستنيرين والمتأدبين (٣) . "

وابو شبكة في مهاجمته العنيفة للنظريات والمدارس الادبية مجاراة رأى اقطاب الرومانسية الفرنسية ، وعلى رأسهم فكتور هيجو الذى قال في مقدمة كتابه "كرمويل" : "ان الفن هو ، ولا يعقل ان يتقيد بقاعدة او يخضع لقانون " .... ففي التقليد موت العبقرية ، والعبقرية هي التي تخلق وتبدع ، لا التي تقلد وتتبع " (٤) .

ولا بد ان يكون ابو شبكة قد تأثر بهيجو ، فملامح الشبه بين اتجاهيهما واضحة

---

(١) روابط الفكر والروح ص١٠٥

(٢) المصدر نفسه ص١٠٧

(٣) المصدر نفسه ص١٠٧

(٤) محمد الجلوى : ابولو . العدد الخامس من المجلد الثاني ص٣٥٢ سنة ١٩٣٤

بينة • يقول هيجو : " ... اذ لا قواعد ولا مذاهب الا مذاهب الطبيعة التي تهيمن على الفن كله والا القواعد الخاصة التي تعطي شروطا خاصة لكل موضوع " (١) • فيسير ابو شبكة على اثاره ويقول : " ... فالطبيعة هي قيثارة الشاعر ، وعبثا يحاول الشاعر البحث عن اوتاره في غير هذه القيثارة ... (٢) "

وهيجو يقول : " ان كل ما في الطبيعة هو في الفن ايضا ، فليسقط تقسيم الانواع ولتضمحل قواعد الذوق " (٣) •

وابو شبكة يقول : " الشعر كائن حي تحتشد فيه الطبيعة والحياة ، فلا يقاس ولا يوزن • والنظريات مذاهب واغراض لا تعيش الا على هامش الادب ... (٤)

---

(١) مجلة الاديب ج ٦ ص ١٧ حزيران ١٩٤٥ من مقال مترجم بقلم خليل هنداوي عنوانه " الطبيعة والفن " •

(٢) اغاني الفردوس ص ١٧

(٣) مجلة الاديب ج ٦ ص ٢١ سنة ١٩٤٥

(٤) اغاني الفردوس ص ٥

ورأى ابي شبكة القائم على نقض المدارس الادبية ، ومهاجمة اصحابها والتأكيد على ان الادب لا مدارس له ، وان النقد لا ينبغي ان تسيره قواعد مدرسية ، او نظريات ليس بالرأى الغريب ، المبتكر عند دارسي النقد وتاريخه لا كجزء من اتجاهات الرومانسيين فحسب بل في نطاق المدارس الادبية عامة . فهذا الرأى شبيه جدا بما يعرف عند الغربيين بأسم مدرسة التأثير او المدرسة "الانطباعية" . فهذه المدرسة ثائرة على مذهبية النقد ، والادب ، ولا تلجأ في النقد الا الى مقياس واحد هو التأثير . فتأثير القصيدة — مثلا — في القارئ او لها . ان منهج هذه المدرسة هو اللامنهج . وانصارها ينفون عن الفن اى ارتباط ، ولا ينصبون له هدفا ، ولا يقيدونه بالتزام . فليس الفن — والادب خاصة — تصوير الحقيقة ولا التزام الواقع ، وليس هو في خدمة الاخلاق او المجتمع . انه لا يخدم الا شيئا واحدا هو الشعور . وما دام الشعور متغيرا متطورا ، فالمقاييس ايضا تتغير وتتطور ، ولا يعمد في النتيجة مقياس . فهل اطلع ابو شبكة على اراء هذه المدرسة .

اغلب ظني انه اطلع ، فقد كان علمه بالادب الفرنسي غزيرا وكانت عنايته بالنقد الادبي فائقة ، ولا بد ان يقوده هذا العلم وهذه العناية الى معرفة نهج هذه المدرسة الانطباعية التي كانت قد نشرت مبادئها في اواخر القرن التاسع عشر في كل من فرنسا وانجلترا ، وقال بها كثيرون منهم اناتول فرانس ANATOLE FRANCE الذى عبر عن هذه المدرسة بكل وضوح في كتابه الحياة الادبية " بقوله : "ان علم الجمال لا يرتاح على قاعدة ثابتة ، فهو كالقلعة التي بنيها الخيال في الهواء . ولقد حاول البعض ان يقيموه على اساس علم الاخلاق ، ولكن علم الاخلاق خرافة لا وجود لها . (١) ،

---

(١) لويس عوض ، دراسات في الادب الاميركي (مقالة ، النقد الادبي في اميركا ص ١٩٦

ترى ما قيمة هذه المدرسة النقدية التي انضوى تحت لوائها الياس ابو شبكة ، على غير علم منه او على غير رغبة ؟ لقد حسب انه بمهاجمة "المدارس" الادبية النقدية سيقف في ميدان النقد بلا "مدرسة" ولكنه غفل — ان لم اقل تغافل — عن انه لم ينج من "المدرسية" وانه بات منتميا الى "مدرسة اللامدارس" — ان صح هذا التعبير — وانه في موقفه هذا سيقف بين مدرستين، تدعوان لمثل ما دعا اليه "الرومانسية" وفي طليعتها فكتور هيجو، و"الانطباعية" ومن طلائعها اناتول فرانس الاديب الفرنسي ، وولتر باتر Walter Pater الناقد الانجليزى صاحب كتاب "دراسات في تاريخ الرينسانس" ومنكن H.C. Mencken وناثان J. Nathan الناقدان الاميركيان .

الحق ان اسس هذه المدرسة ما تزال تحيا ، وانها لتؤلف اليوم في النقد الادبي المعاصر تيارا دافقا قويا ، ومدرسة جمة الحيوية تعرف باسم "مدرسة النقد الجديد" او ما يسميه الناقد اوكتور بالنقد التحليلي .

ولهذه المدرسة قادة من فحول الادب والنقد ، حسبي ان اذكر منهم جون كرو رانسوم J.C. Ransom صاحب كتاب "النقد الجديد" الذى صدر عام ١٩٤١ ، وايفور ريتشاردز I.A.Richards الناقد الانجليزى الكبير ، و ت. س. اليوت T.S.Eliot الشاعر الناقد الشهير، والاستاذ الناقد وليم امبسون W. Empson والاستاذين رينيه فييك René Wellek وروبرت بن وارن Robert Penn Warren مؤلف كتاب "نظرية الادب" الذى صدر عام ١٩٤٩.(١)

هذه المدرسة لا تعتنق الا مبدأ واحدا . هو مبدأ الادب. اما غير هذا من المبادئ والمذاهب والايدلوجيات فلا صلة له بالادب ، بل انه ليفسد نقد الادب ، ولهذا فمن الضرورى تجنب اقحامه في عملية النقد .

ان اهل هذه المدرسة ينادون بدراسة النص الادبي او الاثر الفني لا من حيث هو وثيقة تاريخية ، او قضية اجتماعية ، بل من حيث هو نص ادبي لا اكثر ولا اقل . (٢)

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٨

ويلاحظ الدكتور لويس عوض الشبه بين الانطباعية " والنقد الجديد " فيقول : وبعد ، فمن حقنا ان نتساءل عن ماهية هذه المدرسة الجديدة ، مدرسة النقد الجديد أهي مدرسة جديدة حقا ؟ أم انها أحياء لاتجاه قديم كان موجودا ثم اختفى ؟ أو ليس جائزا ان مدرسة النقد الجديد او النقد التحليلي هذه ان هي الا احياء لمدرسة التأثير او المدرسة الانطباعية التي كانت قوية في السنوات الاولى من هذا القرن ؟ ان عزوف اتباع النقد الجديد عن كل مذهب مجرد او فكرة مسيطرة يفسرون بها الادب ويتذوقون بها جماله لتوحي حقا بأنهم مكتفون بالادب لذاته ، مؤمنون بأن للادب ذاتا مكتفية بذاتها لا من حيث قواعد الانشاء فحسب ، بل من حيث التأثير كذلك . وليس هناك مبدأ عام يحدد لنا اصول التذوق الادبي . وليس هناك مبدأ عام يجمع ابناء هذه المدرسة فيجعل احكامهم على الادب متشابهة ، فلكل منهم احساسه بالجمال ، ولكل منهم فهمه لمواضع الابداع ، ولكل منهم طريقته الخاصة في التأثر بما يقرأ أو بما يرى . وهل هذا غير المذهب التأثيري قد لبس ثوبا جديدا . فاذا النقد القديم يبدو وكأنه نقد جديد ؟ ان كل ما نجده من فرق بين مدرسة التأثير ومدرسة النقد الجديد هو ان الحكم الادبي في الاولى يعتمد على الادراك الكلي للجمال ، على حين انه في الثانية يعتمد على التفتيت والتحليل (١) .

لن احاول استكناه الغيب ، فاتحدث عن مستقبل هذه المدرسة ومصيرها ولكني ارى انها اليوم في منتهى القوة ، وانها ستتمتع بعمر طويل ، فلها فتوة الجدّة ، والادب يعشق الجديد . ولها سمة الحرية والادب يتنفس الحرية . ثم انها تؤكد على الفرد مؤثرا ومتأثرا وتفسح السبيل الى صلة مباشرة بين الفنان المبدع والمتذوق بلا وسيط خارجي ، يتمثل في مذاهب غير ادبية نقدية تحكم على الاثر الفني قبل ان يحكم عليه المتذوق بأن تضعه في قوالبها الجاهزة فان انسجم فيها ظفر بالثناء والا فالويل له .

---

(١) دراسات في الادب الاميركي " ص ٢١٩ - ٢٢٠

لقد كان الفرد المتذوق ضائعا في دوامة قوية من تيارات علوم الفلسفة والاجتماع والاخلاق والادب وغيرها ، وكانت احكامه متأرجحة بين هذا العلم وذاك ، ومقتبسة من هذا العلم او ذاك ، فجاءت مدرسة " النقد الجديد " لتزيل عنه حيرته ، وتكشف امامه درجة ، وتقول له : أنت ، لا غيرك ، الحكم . ودونك النتاج الفني ، او الادبي ، انظر الى اثره في نفسك . ثم لا تكثر من الاسئلة فحسبك اسئلة ثلاثة : ١ — ماذا قال الشاعر ؟ ٢ — كيف قاله ؟ ٣ — ما قيمة ما قال ؟ . فان وفقت الى الاجابة على هذه الاسئلة ، جوابا حسنا فقد عرف الشاعر طريقة الى نفسك ، وعرفت انت طريقك الى نفسه ، وحييت في التجربة الشعرية التي مرت به .

.

على ضوء هذه الاراء والاتجاهات راح ابو شبكة يمارس فن النقد الادبي ، باحثا عن تأثير ما ينقده في نفسه ، فكان يحكم على الاثر الفني وفق ما يحدثه في نفسه من انطباع ، فان اعجبه اطرى وحبذ في حرارة واخلاص .

وكان اعظم ما يؤثر في نفسه ان يلمس الصدق في عاطفة الاديب والاخلاص في حديثه ، فالصدق عنده اجمل مزايا الشاعر (١) وثمة شيء آخر كان يهزه ويحدث في نفسه انطباعا حسنا ، ذلك هو الالم ، الذى وصفه يوما بانه "اله الشعراء على الارض ، اذا لم يجدوه في ذاتهم عمدوا الى البحث عنه في كل ما يحيط بهم . . " (٢)

واني ارى من الضروري لكي تستكمل صورة النقد الادبي عند ابي شبكة اضواءها وظلالها ان اورد هذه الطائفة من ارائه النقدية في شؤون ادبية ، ومواضيع شعرية متنوعة ، وان اذكر عددا من مقالاته النقدية التي مثلت مذهبه في النقد الادبي ، وآراءه في الادب والشعر وفنونهما .

---

(١) الجمهور . العدد ١٠٤ ص ١٤ سنة ١٩٣٨
(٢) المكشوف . العدد ٣٦٩ ص ٦ سنة ١٩٤٤

الشـــاعر

" ان الشـاعر الذى يذيـب حبة قلبـه اجمل من الشاعر الـذى يهرق ماء عينيه ، والاديب الذى يلهو بفقاقيـع الكلام غير الاديب الذى يسـتمد نوره من انوار الحق ، فسطر من هـذا اجدى من كتاب من ذاك "(١)

الماكياج في الادب

" ان الادب كالحياة جاف باهـت بـدون " ماكياج " والماكياج في الادب هـو الفن وهل يصلح الادب بدون فن ، ان الاديـب العظيم هو من يجمع في ريشـته الوان العصـور ويسـتعين على تطبيقها ذوقـه وعقلـه وشـعوره والذوق والعقـل والشعور هي عدة الاديب "(٢)

الادب والاخـلاق

" لا اومن بادب لا يؤمن بالاخلاق ، او اذا شـئت لا أومن بادب لا يبـنى على الاخلاق . ولا تبحـث عن الاخلاق في القاموس فلن تجدها بـل ابحث عنها في نفسك فنفسك قاموس الحياة والحياة اوسع من ان يعيها قاموس اللغة "(٣)

نريد ادبا جـديدا

" نريد ادبا جـديدا نسـتقل به ونطبعه بطابـع عـن نفوسـنا ، نريـد ادبا يقـوم على ثورة في الفكـر والنظم والتقاليـد ، نريد ادبا يخرج عن القاعـدة الـتي سـنها المتقدمون ولو تهجم المتهجـمون ، نريـد ان نضحي بتلك النظم والتقاليـد الادبية في سـبيل الفكرة والفن ." (٤)

---

(١) ـ المكشوف . العدد ٣٧١ ص١ سنة ١٩٤٤
(٢) ـ الجمهور . العدد ٦٥ ، ص ٦ سنة ١٩٣٨
(٣) ـ الجمهور . العدد ٢٢ ، ص٢ سنة ١٩٣٧
(٤) ـ المعرض . العدد ٩٤٤ ، ص٦ـ٧ سنة ١٩٣١

تناقض الشاعر

" ولنفرض ان الشاعر جاء في قطعة واحدة او في قطعتين بصورة متناقضة عن نفسه فهل في ذلك دليل على انه لم يصدق ولم يعرب عن شعوره الصحيح ؟ اليست الحياة مزيجاً من المتناقضات ، من الالم واللذة والحب والبغض ، والصفح والانتقام ، والانغماس في الشهوة والترفع عنها فلم لا يكون الشاعر كذلك ؟ " (١)

الشاعر والمجتمع

" ومن الخرق فصل الشاعر عن المجتمع فهو ملتقى منازع البشر والوتر الاعظم الذى تنقر عليه احاسيس الناس ومطامحهم . " (٢)

شعراء الانسانية

" نريد اليوم نحن ابناء القرن العشرين ان نبدأ بعهد يصعد بنا على درجات الفن المقرون بالجمال ، ولا نود فقط ان يكون فينا شعراء الشعب ، بل شعراء الانسانية . " (٣)

التجديد والقدماء

" يجب علينا ان نوجد مواضيع احلام رحبة نضمنها بقايا الانسانية وحي فيها رفات التاريخ . يجب علينا ان نتعمق في افكارنا ونرحب نفوسنا في العمل والاسفار والتأملات والحب . ولكن لا يجب علينا ان نقلد المتقدمين الذين - بالرغم من نبوغهم وفضلهم - لم يكونوا الا علماء بيان ومشعبذين . " (٤)

---

(١) الجمهور . العدد ٩٨ صفحة ١٢ سنة ١٩٣٨
(٢) روابط الفكر والروح ص ١٣٣
(٣) مقدمة " سقوط ملاك " ص ٩ - ١٠
(٤) المصدر نفسه ص ١٠

الغموض في الشعر

" والواقع ان الغموض في الشعر دخيل على الادب العربي ، فهو من الكتب لا من الجو ، فجو الشرق صريح مشرق فلا مبرر لهذا الغموض في خيال شعرائه ... ونحن لا ندري اى مبرر لمثل هذا الغموض في شعرنا ، ولا يسعنا الا ان ناسف لتلك الغارة الادبية على صعيدنا الادبي ، وتلك السيطرة على حيال الجيل الجديد .. "(١)

الطبيعة والشاعر

" فالطبيعة هي جوه الفسيح (اى جو الشاعر) تتكيف احاساساته بتكيف المظاهر المتقلبة فيه ، واذا خرج الشاعر من هذا الجو خرج من نفسه وكذب على نفسه . " (٢)

الشعر الحقيقي

" ان الشعر الحقيقي يجب ان يقوم على قواعد ثلاث : الفن والنفس والوحدة او الصناعة والموضوع اما اذا انحط عن قاعدة من هذه القواعد الثلاث فيكون قد انحط عن مستواه ، فاين هي الوحدة في شعرنا ؟ اين العبرة فيه ، واين هي الرابطة الفكرية ؟ لا ارى في شعرنا شيئا من ذلك . " (٣)

وحدة الادب العربي

" فالادب العربي وحدة لا فضل في تكوينها الا للادب العربي وحده . وهذه الوحدة ليست بنت اليوم بل هي بنت الامس البعيد ، بنت الاجيال الغابرة . " (٤)

---

(١) الكشوف . العدد ٣٥٨ ص٦ سنة ١٩٤٤
(٢) افاعي الفردوس ص ٢٠
(٣) المعرض . العدد ٩٤٤ ص٧ سنة ١٩٣١
(٤) الكشوف . العدد ٣٥٥ ص٥ سنة ١٩٤٤

العامية والفصحى

" اية ثقافة يمكن البلاد العربية ان تتوقعها اذا هي اهملت اللغة الفصحى واعتمدت العامية ؟ فاللغة الفصحى واحدة والعامية لغات • ومن مصلحة المستعمرين ان تضمحل اللغة العربية ، الرابطة الوحيدة لشعوب العرب وتحل محلها لهجات تجزئ الاقطار العربية الى اقاليم تقوم على اساسها دويلات صغيرة ، او قبائل على الاصح ، يسهل تذليلها واستعمارها •" (١)

لنضع الشعر في مرتبته !

في عام ١٩٤١ نشرة "جريدة النهار" قصيدة لصاحبها ، الاستاذ جبران تويني ، وصف بها النارجيلة وقال في تقديمها للقراء " •• فبدا لي ان استبدل النثر بالشعر مما نظمته في اوقات الفراغ •••"

وقرأ ابو شبكة القصيدة ومقدمتها ، فاعجبته الاولى ولم تعجبه الثانية • بل ساءه ان تنتقص مرتبة الشعر ، فلا يتكلف له الشعراء الا اوقات الفراغ •

وتناول قلمه وسطر به هذه الرسالة :

اخي الاستاذ جبران ،

استهللت صبحيتي اليوم بقراءة قصيدتك في النارجيلة ، سقى الله ايامها وابلاً من الرضوان ، فبيضت وجها وسودت آخر ، بيضت وجه صحيفتك وسودت وجه من بيضها • على ان لك احسن منها ، فعسى ان نراه بخير • وان تكن سرقتني شكاة "اركيلتك" وحلا لي من بعض نغماتها جرس النفس الشاعرة في ساعات الغرق اللذيذ فقد ساءها هي ، وهي من اطيب معادن الفرس ولها على حافظ ما لها على طهمازه ان تتوجها بما ليس خليقا بها ، فقد آن لنا ان نضع الشعر في مرتبته فلا نتكلف له الا اوقات الفراغ " من هنا • وما علينا اذا لامنا "الجديون" من الناس فلهم جدهم ولنا جدنا • وما ادرانا ان هذا ليس افيد لهم من ذاك في وقت تكالبت

---

(١) الجمهور • العدد ٨١ ص ٨ سنة ١٩٣٨

فيه المادة حتى على الروح وقطع الدليل على امة الشعر ، نثرا كان او نظما ، اقوى وافيد في زمان الجد منه في زمان المرح • والسلام عليك من اخيك

الياس ابو شبكة (١)

في ١٣ من تشرين الثاني سنة ١٩٤١

فكرة الاديب اثمن من شرفه

عندما كتب ميخائيل نعيمه قصة جبران ، كشف للقراء اشياء واشياء عن حياته الخاصة ، فعرفوا ان "جبران" كان شابا مهاجرا عاش عائلا على ابرة اخته ، ثم على عاطفة عانس شمطاء قبيحة ، وانه افترس فتاة عذراء وارغمها على اسقاط الجنين •• فانبرى قوم يأخذون على نعيمه انه نشر ما نشر ، فأساء الى الادب العربي ، واساء الى صديقه جبران ، وكان من هؤلاء فليكس فارس — وهو عند ابي شبكه من الادباء المفضلين — •

وراى ابو شبكة الصواب الى جانب نعيمه ، فكتب يؤيده :

" ••• وبما ان روح جبران عميقة في ادبه فلا بد من التسلل الى عمق اعماق حياته لاستجلاء هذا الادب ، ولم يحمل نعيمه المقلم ليصور صديقا بل حمله ليكتب عن انسان ، فجبران لم يبق ملك صديق او رفيق فالموت جعله ملك الناس • والثمرة التي اعطاها جبران في حياته هي اثمن من ان تفقد مصدر عصيرها بنظرات وظواهر لا قيمة لها الا في التقاليد • ان فكرة جبران لاثمن من شرفه اذا كان في ما اتاه من مزاجه البشرى مساس بهذا الشرف • واى قيمة لجبران الرجل لولا هذه الفكرة الروحية المتصلة بجسده الحيواني ؟ (٢)

---

(١) المكشوف • العدد ٣٣٣ ص٥ سنة ١٩٤٢

(٢) الجمهور • العدد ٢٠ ص٨ سنة ١٩٣٧

نمـــوذج من نقـــده

ارجوحة القمـر(١)

شـــعر لصـــلاح لبكـي

نلاحـظ في اسلوب النقـد الادبي عند ابي شـبكة ، سواء في نقده ارجوحة القمر او سواها ، انه منصف عادل . بل انه على ما في طبيعته من القوة ، وعلى ما في نفسه من الحماسة للادب والغيرة على الشعر يرد قلمه عن ان يقسو او يندفع مشتدا .

ها هوذا في نقده الارجوحة ، يؤيد مذهبه في ضرورة وضوح الشعر . فلا يستسيغ اغراب لبكي في بعض معانيه وصوره فيقول ان قول صـلاح :

فلا شم الفجر يذكر فيه لشـيء ولا عربـدات الضـياء

فيه" تعمل واسـعاف في تصنع الصورة الغريبة ووضع الشيء في غير موضعه ، فلن افهم كيـف يعربد "الضـياء" الا عندما افهم كيف تدوي الصورة .. فللكلمة قيمة ولهذه القيمة كرامـة لا يحق للشاعر ان يبتذلها"

ثم يعود ابو شـبكة ، بعد تسجيل السيئات ، الى تسجيل المحامد ، فيقـول : " ومهما يكن ففي "ارجوحة القمر" قصائد كاملة "كالصدى" و "من انت" و "الربيع" و "الديمـة" و "حلم عذراء" ، ففي الربيـع وصف صادق وشعور نفساني جميل وفي "الديمة" فكرة حسنة في اخراج حسن وصورة رائعة للامل الاخضر"

ثم يدلي بحكم عام على الشاعر ترجح فيه كـفة المحاسن على المساوىء ويفتح امام الشاعر الطريق ، فيقول :

" وفي هذه المجموعة المختارة من ادبه ارج شاعرية وهنت في طريقها الى القمة فاقامت في منتصف الطريق تلهو بنشر اعرافها على الاكمات الوديعة والروج الخضراء ... على ان هذا لن يلبث ان يزول فيواصل الشاعر طريقه الى حيث تهيأ لموهبته ان يصل ."

---

(١) الجمهور . العدد ٦٨ ص٧ والعدد ٦٩ ص٦ سنة ١٩٣٨

طائفة من مقالاته النقدية

من منقوداته ، وهي كثيرة :

" مجنون ليلى "(١)
" الجبل الملهم "(٢) وهو ديوان شعر للشاعر شارل قرم
" عمر افندى "(٣) قصة للطفي حيدر
" قميص الصوف "(٤) مجموعة قصص لتوفيق يوسف عواد
" كان ما كان "(٥) مجموعة قصص لميخائيل نعيمه
" ارجوحة القمر "(٦) شعر لصلاح لبكي
" سبحة صوفي "(٧) مجموعة افكار لراجي الراعي
" على المنبر "(٨) مجموعة محاضرات للدكتور نقولا فياض
" الباب المرصود "(٩) نظرات في الادب لعمر فاخورى
" اصوات شرقية "(١٠) مختارات من الادب العربي المعاصر نقلتها الى الاسبانية الانسة ليلى نفاع .
" اشعة ملونة "(١١) ديوان الشاعر العراقي احمد الصافي النجفي
" انات حائرة "(١٢) ديوان الشاعر المصرى عزيز اباظه
" عنترة "(١٣) شكرى غانم
" وجوه وحكايات "(١٤) مارون عبود

---

(١) المعرض . العدد ٩٤٢ ص٧ سنة ١٩٣١
(٢) = . = ١٠٢٢ ص١٦ سنة ١٩٣٤
(٣) الجمهور . = ٣٥ ص٥ سنة ١٩٣٧
(٤) = = ٣٧ ص١٠ سنة ١٩٣٧
(٥) = . = ٤١ ص٥ سنة ١٩٣٧
(٦) = . العددان ٦٨ ص٨ و ٦٩ ص٦ سنة ١٩٣٨
(٧) = . العدد ٧١ ص٨ سنة ١٩٣٨
(٨) = . = ٧٢ ص٨ سنة ١٩٣٨
(٩) = . الاعداد ٨٥ ص٧ ، ٨٦ ص٨ ، ٨٧ ص٧ ، ٨٨ ص٧ سنة ١٩٣٨
(١٠) = . العدد ٩٠ ص٧ سنة ١٩٣٨
(١١) = . = ١٠٢ ص١٤ سنة ١٩٣٨
(١٢) المكشوف . = ٣٥٣ ص١٠ سنة ١٩٤٤
(١٣) = . = ٤١٩ ص٥ سنة ١٩٤٥
(١٤) = . = ٤٢١ ص٩ سنة ١٩٤٥

عصبة العشرة

اعلن ابو شبكة آراءه الادبية النقدية كثيرا، واتخذ ها له مناهج واضحة ينفذ منها الى نقد الادب عمليا، في ميادين النقد الادبي في الصحف والمجلات . وفي ميادين متعبة ، مضنية ، لا تخلو من غمرات يثيرها الاقران ضد الاقران ، فلا يسلم منها خاسرا او رابح وقلما يصمد فيها اهلها .. ولكن ابا شبكة كان من القلة الصامدة . حارب منفردا . وحارب متحدا مع اخوان له في الصحافة والادب وفي الراى . فكانوا عصبة جريئة ، وكان لهم في دنيا النقد الادبي شأن كبير ".

تلك هي "عصبة العشرة ".

ضمت هذه العصبة ادباء شبانا، تثقفوا خير ثقافة ، واطلعوا اطلاعا حسنا على الادبين العربي والغربي ، ولا سيما الفرنسي . وكان ميشال ابو شهلا واسطة عقدهم فكانوا يجتمعون عنده في ادارة جريدة " المعرض " ويلتئم من جمعهم مجلس ادب ، وندوة فكر ، وميدان نقد (١) . اما صاحب الجريدة الاستاذ ميشال زكور " فلم يكن له في جريدته سوى مقاله الافتتاحي وسوى كلمة نصح وارشاد يقولها وهو ماض في سبيله كأن قصاراه ان يقولها لا ان يعمل بها "(٢)

كان ميشال ابو شهلا قطب العصبة ، وكان الشيخ خليل تقي الدين روحها ولولبها . وكان يغبّ الادارة اغبابا فلا يقصدها الا وقد تجلبب السلاح وكمل اللأمة ، واستعد ليشب على دعي في الادب ، او تحفز يصد مغيرا عليه . وكان شأنه في هجوم العصبة ودفاعها خطيرا .(٣)

والى جانب الشيخ خليل تقي الدين كان يقف الشيخ فؤاد حبيش، مدرعا ابدا بجرأته وهو صاحب " رسول العرى "(٤) الذى احدث يوم صدر ضجة كبيرة .

والى جانب هؤلاء كان ينتصب ابو شبكة .

---

(١) الياس ابو شبكة : المعرض . العدد ٩٠٣ ص ١١ سنة ١٩٣٠
(٢) = = : الجمهور . = ٤٣٩ ص ٤ سنة ١٩٤٦
(٣) المعرض : العدد ٩٠٧ ص ٨ سنة ١٩٣٠
(٤) مؤلف فرنسي للويس شارل روابيه ترجمه وعلق عليه الشيخ فؤاد حبيش سنة ١٩٣٠

كانوا اربعة ،لان الستة الباقين ظلوا خارج نطاق العصبة ولم يقوموا بخدمة فعلية لها • ومنهم : كرم ملحم كرم ، ويوسف ابراهيم يزبك ،وتقي الدين الصلح (١) وتوفيق يوسف عواد (٢) وعبد الله لحود (٣) •

كانوا اربعة وكانوا عشرة" ! • اما كيف يصبح الاربعة عشرة فعملية حسابية بسيطة : فميشال ابو شهلا كان يوقع بعض مقالاته بامضاء "ابو فريد " • والياس ابو شبكه كان يتستر بتوقيع "رسام " و "عصبصب" و "ابو ناصيف " • وخليل تقي الدين اختار اسم "بشار" امضاء توارى خلفه • واستعار فؤاد حبيش توقيعي "جوابة " و " منخل "(٤) •

وقد اشار ابو شبكه شعرا الى "الاربعة " "العشرة "في قصيدة القاها في حفلة عائلية ، هي عماد الطفلة رينه لويس زكور، عنوانها " تبارك العماد " :

اربعة لكنهم عند القياس عشرة
اذا اهابوا بالدجى ارخى عليهم قمره(٥)

شنت "العصبة " اشد حربها على القديم ،وعلى شيوخ الادب "كان كل من "بشار" و "جوابه " و "رسام " بعبع كل اديب جاوز حد الاربعين (٦) " وقد هتف هاتف من العصبة : "اجل ليس بين شيوخ الادب في لبنان من يستحق ان يدعى اديبا" فالاديب كما يفهمه الغرب وكما يحاول كل منا ان يكون هو غير "الشاعر" الذى ينبش قبور الاموات ليسرق اروع ما فيها من معنى وتركيب وصورة وخيال ،وهو غير هذا "الناثر" الذى يكب على الجاحظ وابن المقفع فيستظهر جملا بكاملها ، ثم ينصرف الى استعمالها في مقال ينشئه لا مفكرة جديدة او شعور انبعث في نفسه بل لمجرد صبوة فيه لاستعمال هذه الجمل التي استظهرها ... نحن نريد ان ننفذ بكتاباتنا الى قلوب سائر الطبقات المتعلمة على تفاوت درجات علومها وتباين مقادير ذكائها ،ونريد ان لا نكتفي بالكتابة لخاصة الخاصة التي هي في غير حاجة الى ما نكتب او في حاجة ضئيلة الى نتاج قرائحنا وبيان شعورنا نتفاهم واياها على يدهما .."(٧)

---

(١) فؤاد حبيش دراسات وذكريات ص ١٤٠
(٢) المكشوف • العدد ٤٤ ص٧ سنة ١٩٣٦
(٣) = • العدد ٤٥ ص٥ سنة ١٩٣٦
(٤) فؤاد حبيش : دراسات وذكريات ص ١٤٠
(٥) المعرض : العدد ٩٣٤ ص١٢ — ١٣ سنة ١٩٣١
(٦) الياس ابو شبكه : الجمهور • العدد ٤٣٩ ص٤ سنة ١٩٤٦
(٧) فؤاد حبيش : المعرض • العدد ٩٠٩ ص ٥ سنة ١٩٣٠

وهتف ثان ، مشيرا الى خصومهم ، داعيا الى تخليص الشعر من قيوده ، واستلهام القصيد من قرارات النفوس: " قام بعضهم في الصحف يتحرشون بنا ويعيبون علينا اننا لسنا في طبقة من ننتقد فالى هؤلاء نقول اننا لا نرمي من نقدنا هذا الا الى تخليص الشعر من هذه القيود الثقيلة التي لا تزال تمنعه عن الحركة والانفلات . واننا نريد الشعراء على ان لا يصغوا الا الى صوت الالهام والوحي ولا ينظروا الا في قرارات نفوسهم حين ينظمون ، فان لم يستطيعوا فلا ينظموا ، ذلك خير لهم ولنا وللشعر وابقى .."(١)

وقال ابو شبكة : " ان عصبة العشرة صممت ان تخدم الادب العربي عن طريق النقد وغير النقد ولن ترجع عن تصميمها مهما توالت عليها تهجمات السباب والشتائم من اولئك الذين لا يطربهم الا المدح حتى على السخيف المبتذل "(٢)

كان النشاط " العصبة " اصداء كثيرة لا في لبنان وحدها بل في البلدان العربية فقد تجاوز ذكرها حدود لبنان الى سوريا ، والعراق ، ومصر ، والاندلس الجديدة في الغرب الاقصى ، وقد لاقت هناك تحبيذا وتأييدا في بيئات الاجيال الطالعة هنا وهناك وهنالك ، مما ضاعف ايمانها برسالتها و شجعها على المضي في تأديتها ".

ولم تقصر العصبة نقدها على الادب وفنونه ، بل خصت السياسة بقسط منه ، كان له اثره العميق ، واصداؤه الكثيرة وقد كان خليل تقي الدين اول مقتحمي هذا الميدان ، ومن خلف اسم مستعار كان ينشر المضحك المبكي من شؤون السياسة التي كان بها عليما ، فقد كان يومذاك امين سر مجلس النواب . وتبعه ابو شبكة يترصد رجال السياسة والادارة ، يرسمهم وينقدهم ، ويسخر بهم احيانا ، ويمهر كل رسم بتوقيعه المستعار " رسام "(٣)

واهتم لامر " العصبة " اهل السياسة والادارة والزعامة وحاولوا ان يسكتوا اقلامها ، فلا تجول في ميادينهم ولا تكشف اقنعتهم ، ولكنهم خابوا .

---

(١) المعرض . العدد ٩٠٤ ص ٤ سنة ١٩٣٠ من مقالة " بشار " عنوانها " الحرب بيننا وبين القدماء "
(٢) = . = ٩٣٥ سنة ١٩٣١
(٣) من تواقيعه المستعارة الاخرى . في غير هذا الباب : " ١٠١ . ش " و " ابو ناصيف " و " دون كيشوت " .

واعجب غيرهم بهذا النقد السياسي ، وعبر بعضهم عن اعجابه بهدايا اخوانية ، كخروف يذبح ، او تنباك عجمي يدخن " .

واستمر هذا "العهد الذهبي " سنينا ثلاثا . انهاه الرئيس شارل دباس ، حين عطّل" المعرض" .(١)

ورفض صاحبها الاستاذ ميشال زكور استئناف اصدارها بعد الافراج عنها فبقيت صامتة حوالي سنتين . ثم صدرت ثانية ولكن فرسانها القدماء كانوا قد تفرقوا ، فاتخذت لها الاعتدال والاتزان منهجا .(٢)

---

(١) فؤاد حبيش: دراسات وذكريات ص ١٤٠ ــ ١٤٢

(٢) الياس ابو شبكه: الجمهور . العدد ٤٣٩ ص ٤ سنة ١٩٤٦

مؤلفـــــاتـه

هـذا الجهـد الكثير المتصل الـذى بذله ابو شـبكه في دنيا القلم ، خلـف للمكتبة العربية ما لا يقـل عن ثلاثين كتابا مطبوعا في مواضـيع متنوعة ، بعضها من تأليفه والبعـض الاخر من ترجمته • فضـلا عن مقالات ودراسات وقصائد لو انها جمعـت لتألـف منها عشرون كتابا او يزيد •(١)

وفيما يأتي قائمـة تتضمن اسماء اكثر هـذه الكتب وتعريفا بها :

١ ـ الحـب العابـر

رواية مترجمة عن هنرى بورد وء لعلها اول ما نشره ابو شـبكة(٢) .

٢ ـ عنتر (مطبعة قوزما • بيروت ١٩٢٦) ٦٦ ص

رواية تمثيلية ذات خمسة فصول • مترجمة عن الفرنسية ، مؤلفها شكرى غانم(٣) .

٣ ـ القيثارة (مطبعة مكتبة صادر • بيروت ١٩٢٦) ١٣٩ ص

اول مجموعة من شعر ابي شـبكه •

٤ ـ جوسـلين (بيروت ١٩٢٦)

قصيدة كبيرة مترجمة عن الفرنسية ، للشاعر الكبير لامرتين

٥ ـ طاقات زهور(٤) (المطبعة الكاثوليكية • بيروت ١٩٢٧) ٩٨ ص

٦ ـ العمال الصالحون (المطبعة الكاثوليكية • بيروت ١٩٢٧) ص١٠٧

---

(١) دراسـات وذكريات ص٢١٢ ـ ٢١٣

(٢) راجع ايضا ما كتبه شفيق معلوف في مجلة العصبة ص١٤٥ عـدد آب ١٩٤٨

(٣) دراسات وذكريات ص٢١٢

(٣) مثلت هذه الرواية في باريس ولاقت استحسانا كثيرا • راجع المشرق ص٧٩٥ السنة الرابعة والعشرون •

(٤) ورد هذا العنوان في "الياس ابو شبكه • دراسات وذكريات ص٢١٢ بهذا الشكل : طاقات زهر • والصحيح ما اثبته •

٧ — سقوط ملاك او الهة لبنان (مطبعة مكتبة صادر • بيروت ١٩٢٧)
٢٠٧ ص
رواية مترجمة عن الفرنسية ، تأليف لامرتين •

٨ — مجد ولين
قصة مترجمة عن الفرنسية • تأليف الفونس كار

٩ — المريض الصامت (بيروت ١٩٢٨)
قصيدة طويلة • تروى قصة شاب عاشق ، تتيمه حبا حسناء مصرية ، ويموت بداء الصدر في زحله •

١٠ — تاريخ نابوليون بونابرت (مكتبة صادر بيروت ١٩٢٩)
كتاب الفه ابو شبكه عن نابليون بونابرت (١٧٦٩ — ١٨٢١)

١١ — الرسوم ١٩٣١
مجموعة صور قلمية لرجال الادب والسياسة والادارة في لبنان

١٢ — الطبيب رغما عنه (مكتبة صادر • بيروت ١٩٣٢) (طبعة ثانية مكتبة صادر بيروت ١٩٥١" بعنوان الطبيب على الرغم منه) ٦٣ ص
تمثيلية هزلية ذات ثلاثة فصول مترجمة عن الفرنسية • تأليف موليير •

١٣ — المثرى النبيل (مكتبة صادر • بيروت ١٩٣٢) ٧٨ ص
رواية هزلية مترجمة عن الفرنسية • تأليف موليير •

١٤ — البخيل (بيروت ١٩٣٢) و (مكتبة صادر • بيروت ١٩٥١
طبعة ثانية) ١٢٣ ص •
هزلية تمثيلية ذات خمسة فصول ، مترجمة عن الفرنسية • تأليف موليير •

١٥ — مريض الوهم (مطبعة صادر • بيروت ١٩٣٢)
تمثيلية ذات ثلاثة فصول مترجمة عن الفرنسية • اخر ما الفه ومثله موليير •

١٦ - لامرتين (مكتبة صادر • بيروت ١٩٣٣) ٩٤ ص
كتاب الفه ابو شبكه بمناسبة مرور مائة سنة على رحلة لامرتين الى الشرق (١)

١٧ - مانون ليسكو (بيروت ١٩٣٣ (٢))
رواية مترجمة عن الفرنسية • تاليف ا • ف • بريغو

١٨ - بولس وفرجيني (بيروت ١٩٣٣) •
رواية مترجمة عن الفرنسية • تأليف برناردين ده سان بيير

١٩ - الكوخ الهندي (مكتبة صادر بيروت ١٩٣٣) ٦٣ ص
رواية مترجمة عن الفرنسية • تأليف برناردين ده سان بيير

٢٠ - افاعي الفردوس (الطبعة الثانية • دار المكشوف بيروت ١٩٤٨) ٦٣ ص
مجموعة شعرية تتضمن قصائد للشاعر نظمها بين سنتي ١٩٢٨-١٩٣٨ • عدد القصائد ثلاث عشرة قصيدة ، تتصدرها مقدمة في النقد ، كتبها الشاعر وعنوانها " في حديث الشعر "

٢١ - الالحان (منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٤١) ٩٦ ص
مجموعة شعرية للشاعر • تتضمن ثلاث عشرة قصيدة ، ومقتطفات من " غلواء " •

٢٢ - المجتمع الافضل (منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٤٣) ٧٩ ص
كتاب يتضمن عرضا سريعا للمجتمع كما يجب ان يكون ، من منشورات فرنسا المحاربة تاليف اندريه فيكتور • ترجمه ابو شبكة وكتب له مقدمة •

---

(١) المشرق ص٥٥٧ السنة الحادية والثلاثون • سنة ١٩٣٣)
(٢) هكذا في الياس ابو شبكة دراسات وذكريات ص٢١٢ • اما المستشرق الفرنسي هنري بيريس فيذكر في بحثه : " فهرس القصة والحكاية والرواية المترجمة او المقتبسة عن الفرنسية ان " مانون ليسكو " التي ترجمها ابو شبكة مطبوعة سنة ١٩٣٦ • راجع المكشوف ص٣ عدد ٣٠٧ سنة ١٩٤١

٢٣ ـ لبنان في العالم (منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٤٤)
تأليف جورج معشـق ٠وترجمة ابي شـبكه

٢٤ ـ نداء القلب (منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٤٤) ٦٤ ص
مجموعة شعرية للشاعر ، تتضمن احدى وعشرين قصيدة قصيرة ٠

٢٥ ـ تلك آثارنا (دار المكشوف بيروت ١٩٤٤)
تاليف جان رونسان ، وترجمة ابي شبكة ٠

٢٦ ـ قصر الحير الغربي (دار المكشوف بيروت ١٩٤٥)
تاليف دانيال شلومبرجه وترجمة ابي شـبكه ٠

٢٧ ـ الى الابـد (دار المكشوف بيروت ١٩٤٥) ص ٧٨
مجمـوعة شـعرية للشاعر

٢٨ ـ روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجه (دار المكشوف ١٩٤٣)١٣٦ص
الطبعة الثانية سنة ١٩٤٥ كتاب في النقد والتاريخ الادبي ٠

٢٩ ـ غلواء (مكتبة صادر بيروت ١٩٤٥) ٩٨ ص
قصيـدة طويلة للشاعر ٠

٣٠ ـ ميكروميغاس وثلاث قصص(مطبعة صادر بيروت ١٩٤٦) ٦٩ ص
قصص مترجمة عن الفرنسية ٠ تأليف فولتير ٠

٣١ ـ اوسكار وايلد امام القضاء (دار المكشوف بيروت ٩٤٧) ١١٦ ص
تأليف ادمون روستان وترجمة ابي شبكة

٣٢ ـ بودلير في حياته الغرامية (دار المكشوف بيروت ١٩٤٧)
كتاب مترجم عن الفرنسية ٠ تاليف كميل موكلير٠ آخر منشورات
ابي شبكه وقد ظهر بعد وفاته ٠

مؤلفـــات لـم تطبـــع

وهناك مؤلفـات اخـرى كان ابو شـــبكة عازما على طبعها الا ان المنية عاجلتـه، فلم يقيـض لها النشـر .

يقـول شـــفيق معلـوف :

" ... وفي آخـر كتاب ارسله الي قبل وفاته ببضعة اشهر ذكر لي مؤلفين مخطوطين كان مزمعا طبعهما احدهما الجزء الاول من مؤلـف " في ذلك الزمان " والثاني مجموعـة شـعر عنوانها " من صعيد الالهة " واورد فيما اورده انه معتكـف في بيته يواصل نظم ملحمة كبرى في "زينـب" (١) ولن يعـتم الامر حتى يعود الى النشاط وينزل الى الشارع ..."(٢)

وينقل جورج غريّب ،حديثا لابي شبكة سمعه منه ذات مساء ،ذكر له فيـه عزمه على اصدار " من صعيد الالهة " وفي" ذلك الزمان " قال ابو شـبكة .

ساصدر عن قريب مجموعة شـعرية تتضمن قصائدى في رثاء بعض عباقرة الشعراء والادباء كشوقي وحافظ وجبران وفوزى المعلوف وعمر فاخوري وسـواهم ،وسيكون اسم هذه المجموعة : " من صعيد الالهة " .

وسـيصدر في الوقت نفسـه كتاب " في ذلك الزمان " وقـد نشرت قسـما منه كبيرا منـه في" المعرض " (" الجمهور " ولا يزال هناك قسم دون نشـر ."(٣)

الا ان الكتابين لم يصـدرا فقـد مات ابو شبكه دون ان يتاح له الوقت لاصدارهما . ومسودات الكتابين الان عند انطون صادر صاحب مكتبة صادر ، وكان قـد اشترى من ابـي شبكة حقوق طبعهما ،(٤)

---

(١) ذكر كتاب " الياس ابو شبكه . دراسات وذكريات " ص ٢١٢ ان هذه الملحمة وهي عن زينـب ملكة تدمر الشهيرة ،لم يكتب منها الشاعر سوى ثمانية ابيات اوعشرة . وقد ضاعت هـــذه الابيات ولم يعثر عليها بين اوراقه . وقد ايد خبر ضياعها يوسف ساروفيم .

(٢) مجلة العصبة . ص ١٤٥ عدد آب ١٩٤٨

(٣) دراسات وذكريات ص ١١٤

(٤) اولغا ويوسف ساروفيم : من حديث خاص معهما اذنا بنشره .

وكان ابو شبكة في اول نشأته الشعرية ، وبعد ما اصدر مجموعته الشعرية الاولى " القيثارة " عازما على نشر مجموعة ثانية ، باسم " أنّات الرباب " . وقد اشارت اليها جريدة " المعرض " ، حين نشرت قصيدة له بعنوان " انات الرباب "[١] . فقالت في تقديمها : " عنوان المقدمة الشعرية التي وضعها شاعر البائسين الياس ابو شبكه لديوانه الفني الجديد " انات الرباب " الماثل للطبع في (مطبعة صادر) وهو الزفرة الثانية من ذلك العنصر العذب ."[٢] الا انه طواها غير راغب في نشرها " بعد ان اتسعت ثقافته ، ونضجت شاعريته ، واستوثق اسلوبه فصار لا يرضيه شعر صباه ."[٣]

. . . .

---

(١) لحق هذه القصيدة تنقيح فيما بعد ، ونشرت في اول " نداء القلب " بعنوان " الاناء "

(٢) المعرض . العدد ٨٢٤ ص ٤ سنة ١٩٢٩

(٣) بطرس البستاني : دراسات وذكريات ص ٦٧

الفصـــل الثالـــث

))((

الیـا س ابو شـــبكة

الشـا عـر

.....

ملامح سياسية وادبية من لبنان

عاش ابو شبكة في بيئة مضطربة كثيرة الالوان ، ورثت عن ماضيها تركة مثقلة بالقلاقل ، وامدها حاضرها باكثر مما ورثت فاذا هي في موجة من الاحداث تكاد لكثرة الوانها تغدو بلا لون "

وتاريخ هذه البيئة التي عاش فيها ابو شبكة قديم جدا ، ولكن ما يمهنا من امر هذا التاريخ ان ننظر الى تلك الحقبة القريبة ، الى القرن التاسع عشر ، وعهد الامير بشير الشهابي ، فلهذه الحقبة اثر بليغ في كيان لبنان السياسي ونهضته الفكرية الادبية .

كان عهد الامير بشير عهدا قلقا كثرت فيه **الفتن** والحروب واشتدت الضغائن والاحقاد . الا ان هذا العهد " لم يكن عصر **فتن وثورات** وحروب وضياع حقوق فحسب ولكنه كان على الاخص عصر بناء وانشاء في جميع الحقول الادبية والعلمية والفنية والصناعية . انه عصر النهضة عمت عندنا وامتدت الى الجيران ."(١)

ولقد عطف الامير بشير على الحركة الادبية ، وعلى الشعر بوجه خاص ، فقرب اليه اهل الادب والشعر وكانت مناظراتهم تجرى في مجلسه وبتأييد منه . ومن شعراء مجلسه بطرس كرامه (المتوفى سنة ١٨٥١) ونقولا الترك (المتوفى سنة ١٨٢٨)

وتلا عهد الامير بشير ، الذى نفي من لبنان سنة ١٨٤٠ ، عهد ثان كان اضراره بلبنان شديدا فقد تقلصت فيه امتيازات لبنان الاستقلالية ، واخذ العثمانيون يتحكمون به عن طريق ولاة وعمال لهم كانوا اهل قسوة ومكر ، اوقدوا للخلافات الطائفية نيرانا ، تصلي ابناء البلد الواحد ، وتمكن فيه اقدامهم هم واستطاعوا ان يحولوا الثورات القومية الى فتن داخلية لا ينتصر فيها سواهم .

---

(١) فؤاد حداد : محاضرات الندوة . النشرتان ٣ ، ٤ ص ٩١ سنة ١٩٤٨

وادت هـذه الحال الى ان تتدخل الدول الاجنبية في شؤون البلـد وان تنفـذ اليها . ثم اقبـل عهد ثالث . هو عصر المتصـرفين الـذى اسـتطاع ان يخمـد الفـتن ، ويهدىء ثائرة القلاقـل ، ولكنه لم يمنح اللبنانيين حريتهم واستقلالهم ولم ييسر لهم خبزهم فاشـتدت ضائقتهم ونقمتهم .

اما النهضة الشـعرية التي بدأت في عهد الامير بشير فقد ظلت بذورها نامـية في منتصف القرن التاسع عشر . وظلت السنة الناس تذكر الزمن الماضي ، والزمن الماضـي جميل غالبا ، وظلـت ترد د في سرور وزهو شـعر الشعراء الكثار الذين عاشـوا في مجلـس الامير ، او في زمنه كنقولا الترك والياس اده وبطرس كرامه وناصيف اليازجي وعبد الله الحلـبي وصالح الترشيحي وامين الجندى وجرمانوس فرحات وعبد الغني النابلسـي .(١)

كان شـعر هؤلاء الشـعراء تقليديا في مبناه ومعناه بل ان كثيرا منه كان معارضة وتقليـدا لقصـائد قديمة مشهورة ، ولكنه كان بالنسـبة الى عصره نتاجا له شأنه وله محبوه وكان بعد هـذا اساسا قامت عليه حركة بل حركات شعرية تجديدية في لبنان .

على انه مما يـذكر بالخير لهؤلاء الشعراء انهم اذا كانوا لم يجد دوا في الشـعر ، فقد اضافوا اليه موضوعات لم يعالجها الاقـدمون ، كما فعل احمد فارس الشـدياق .(٢) وانهم كانوا سـجلا لحوادث بلـدهم الاجتماعية والسـياسـية والاقتصـادية ، وابرزهم شـانا في هـذا النحـو من الشـعر نقولا الترك الذى خلف ديوانا كبيرا يضـم حوالـي خمسـمائة مقطوعة وقصـيدة في موضوعات شـتى متنوعة تصور بيئـته العائلية ثم البيئـة اللبنانية العامة .(٣)

وفي منتصـف القرن التاسع عشر اتضحت معالم النهضة الفكرية وقويت . وازد ادت اهمية بيروت فقـد استقر فيها قناصل الدول ، والمرسلون الاميركيون والفرنسيون ، وكثر سـكانها

---

(١) فؤاد افرام البستاني : الروائع (الشيخ ابراهيم اليازجي في اللغة والادب) ص٣ ـ ٤
(٢) رفائيل بطي : الثقافة . العدد ٤٢٥ ص١٧ سنة ١٩٤٧
(٣) راجع " ديوان المعلم نقولا الترك " . ضبط نصوصه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد افرام البستاني المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٤٩

فتجاوزوا الثلاثين الفا بعد ان كانوا ستة عشر الفا في سنة ١٨٣٨ . وفي بيروت انبعث الاشعاع الفكرى من عدة مراكز ، تحدث عنها فؤاد افرام البستاني فقال :

اولها : الحي المعروف بزقاق البلاط الذى اسست فيه اولى مدارس البنات لراهبات مار يوسف ، والارسالية الاميركية التي حولت بعدئذ الى مدرسة البنات الاميركية ، و" الجمعية السورية " التي تعد اول جمعية علمية في العالم العربي ، وكان من ابرز اعضائها سميث وطسون والشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني ، و" المدرسة الوطنية " للمعلم بطرس البستاني التي اسسها سنة ١٨٦٣ ، و" المدرسة البطريركية " التي لا تزال في مكانها حتى اليوم .

وثانيها : حي الصيفي الذى اسس فيه اليسوعيون سنة ١٨٤٨ مطبعتهم الحجرية وسنة ١٨٥٣ مطبعتهم الحرفية ، والفوا " الجمعية المشرقية " سنة ١٨٥٠ لتكون نداء للجمعية السورية . وكان من اعضائها مارون النقاش والشيخ حبيب اليازجي وابرهيم مشاقه وطنوس الشدياق والدكتور ابرهيم النجار .

وثالثها : حي مارمارون . وفيه اخرج مارون النقاش على مسرح اقامه في بيته اول مسرحية باللغة العربية ، كان هو مؤلفها (١)

ولا بد لنا ان نضيف الى مراكز الاشعاع هذه ، مركزا اغفل البستاني ذكره ، ذلك هو الجامعة الاميركية التي تأسست عام ١٨٦٦ (٢) وكان لها منذ تأسيسها حتى اليوم فضل كبير على النهضة الفكرية في البلاد العربية ، بما بذلته من خدمة في مجالات النشاط الثقافي ، من تعليم وبحث ودراسات ومحاضرات وغير ذلك .

هذه النهضة الفكرية كان من فروعها نهضة شعرية نستطيع ان نعد الشيخ ناصيف اليازجي رائدها . وكان فضله فيها انه كسا الشعر العربي في لبنان ديباجة مشرقة ، جارى فيها المتنبي الذى كان شاعره المفضل المحكي .

---

(١) فؤاد افرام البستاني : الروائع (الشيخ ابرهيم اليازجي في اللغة والادب) ص ٦ — ٨

(٢) كان اسمها آنذاك الكلية السورية الانجيلية .

وفي الحديث عن فضل هذا الشاعر يقول صلاح لبكي : " ويا ما ابعد الشقة بين لغته وبين لغة نقولا الترك وبطرس كرامه وغيرهم من معاصريه حتى يخيل ان الشعر معه لم يتطور تطورا بل قفز قفزا . اذ بينما هو عندهم كناية عن كلام مضطرب دخيل مختل الموازين احيانا اذ به يستوي معه خلقا سويا في لغة عربية صافية متينة ركينة تضاهي لغة الفحول من ادباء العربية "(١)

وتبع الشيخ اليازجي شعراء كثيرون نهجوا منهجه في ايثار جزالة اللفظ ومتانة السبك ولكنهم لم يكونوا من ذوى التجديد .

وجاء بعد هذه المرحلة مرحلة جديدة نشط فيها الادباء اللبنانيون الى الاتصال بادب الغرب عن طريق الترجمة . وهي مرحلة يرى الادباء والنقاد لها مكانا هاما في تاريخ النهضة الادبية الحديثة . ومن هؤلاء شاعرنا ابو شبكة فهو يقول :

" كان الادباء المقلدون يبصقون آخر اسنانهم حين احتل مكانهم ادباء اقوى شخصية واسلم بيانا ، وامتن لغة ، وارقى ثقافة ، ولكنهم ... ناقلون او مقتبسون ."(٢)

ويقول ايضا :

" .. واذا كان عهد اديب اسحق ونجيب الحداد عهد نقل واقتباس فقد كان عهد ، احساس مرهف في لغة مصافة(٣) من الابتذال . فاذا عمد اديب لنقل طرفة فرنجية الى لسانه فاول همه ان يلبسها حلة قشيبة من البيان(٤)".

مما تقدم ، نرى ان الشعر في اواخر القرن التاسع عشر قد خطا خطوة محمودة في طريق النهضة ، فتماسكت لغته بعد وهن واتسع نطاق موضوعاته وبدت فيه اثار من الثقافة

---

(١) لبنان ، الشاعر : ص ٥٦ ـ ٥٧
(٢) روابط الفكر والروح ص ٧٣ ـ ٧٤
(٣) كذا في الاصل .
(٤) روابط الفكر والروح ص ٨٢

العصرية وانفعالات بالبيئة العامة . حتى اذا اطل القرن العشرون كان الشعر مستعدا ليخطو خطوة واسعة في مجالات القيم الشعورية والقيم التعبيرية .

الشعر اللبناني في مطلع القرن العشرين

في مطلع القرن العشرين كان الشعر على ابواب تحول جديد في لبنان ، فقد كان التعليم قد انتشر اوسع انتشار والثقافة الاوربية قد تسربت عن طريق المدارس والترجمة وكان النشاط السياسي قد غمر العالم واندفعت منه الى لبنان موجات ، ايقظته سياسيا واجتماعية وادبيا .

كان للاحداث السياسية ويقظة الشعور القومي اثرها في النفوس ، وفي الادب وكان لسنة ١٩٠٨ اهميتها في تاريخ لبنان ويقظته . في هذه السنة انتصرت جمعية تركيا الفتاة بعد كفاحها في سبيل الحرية والدستور فصارت الصحف تمجد هذا الحدث وتهيب بالشعب اللبناني ان يتحرر من عبوديته قائلة : " ... ان جمعية تركيا الفتاة كسرت قيود الرق التي كنت مقيدا بها ايها الشعب الجاهل "(١) غير آبهة بالمتصرف التركي الذى كتب الى الصدارة العظمى في استانبول رسالة جاء فيها : " ان لبنان غير اهل للدستور وانه حسب ان الحرية هي الانفلات من قيود النظام ودليل ذلك ان الشعب تعدى على الجند فحدث بينهم معركة انجلت عن جملة قتلى وجرحى "(٢)

ولما هوى عبد الحميد فرح اللبنانيون ، وعبر الشعر اللبناني عن اهمية هذا الحدث الذى ازال الطاغية العثماني عن عرشه . كما عبر شعراء العرب في غير لبنان عن فرحتهم بسقوط عبد الحميد وآمالهم في الحرية والاستقلال .

---

(١) جريدة البرق . العدد ٢ ص ١ سنة ١٩٠٨

(٢) المصدر نفسه ص ٤ . جرت هذه المعركة في بيت الدين وقد قتل فيها ثلاثة من الاهلين .

ومما نظم من شعر في هذه الحادثة قصيدة لشبلي بك ملاط منها قوله :

امفترش البوسفور بالهام والطلى ... الى جثث ضجت عليك النوائح
ووئاد ارواح العباد تشفيا ... الا انتنت في منخريك الروائح
وافلت يوما من سراديب يلدز ... اليك صدى من مظلم الترب صائح
بان الليالي لو تذكرت قلّب ... وانك في بحر المظالم سابح (١)

وقصيدة لبشاره الخوري عنوانها "عبرة وعبرة" ومنها :

قلل الشرق حاذري ان تميدى ... سقط العرش عرش عبد الحميد

.....

دفنت اعصر المظالم يا شرق ... فرحب بعصرك المولود
وابتسم للفلاح فالتاج معقود على مفرق الفتى المعدود
زال عصر السجود يا ام الارض فهذا عصر الاخاء الوطيد

وقصيدة لمعروف الرصافي مطلعها :

لقد سمعوا من الوطن الانينا ... فضجوا بالبكاء له حنينا

وقصيدة لحافظ ابراهيم مطلعها :

لا رعى الله عهدها من جدود ... كيف امسيت يا ابن عبد المجيد

ومن الحق ان اذكر فضل الصحافة في النهضة السياسية والادبية في هذه الفترة من الزمن . واخص بالذكر جريدة "البرق"(٢) التي كان يصدرها الشاعر بشاره الخورى وينشر

---

(١) جريدة البرق : العدد ٣٦ ص ٢٩٨ سنة ١٩٠٩
(٢) صدر العدد الاول منها في غرة ايلول سنة ١٩٠٨ في بيروت

فيها شعره ومقالاته ، فقد كانت هذه الجريدة فضلا عن نزعتها القوية الناشطة ونضالها السياسي ، منبرا لطائفة من اهل القلم اتسم نتاجهم الفكرى والادبي بنزعة تحررية تجددية تبحث عن آفاق جديدة للفكر والادب ،

ثم شبت نيران الحرب العالمية الاولى ، فعاد القلم الذى عرف اجواء الحرية الى معاناة الاسر ورجع الادب يتمرغ على الاعتاب • حتى اذا آذنت الحرب بالانتهاء كانت هذه النهاية بشيرا بريح طيبة جديدة تقبل من بعيد من المهجر الذى تنفس فيه الادب العربي المهاجر انفاسا جديدة واستشرق آفاقا حرة فسيحة الارجاء •

كان قد هاجر من لبنان ابناء له كثر استقروا في كثير من بقاع الدنيا ، لا سيما مصر واوربا والاميركيتين ، وراحوا يعملون في التجارة والصناعة بهمة عجيبة ذللت لهم المصاعب واظفرتهم بالنجاح ، وصح فيهم ما قاله الشاعر حافظ ابراهيم :

بارض كولمب ابطال غطارفة ... اسد جياع اذا ما ووثبوا وثبوا
لو قيل في الشمس للراجين منتجع ... مدوا لها سببا في الجو وانتدبوا

بيد ان هؤلاء المغتربين لم ينسوا وهم في حمى السعي المجهد وراء العيش ، لغتهم وادبهم بل ظلوا حراصا على هذا التراث الغالي يشدون به اواصرهم مع البلد الذى نبتوا فيه والامة التي اليها ينتمون • واغنوا هذا التراث بما ابدعته قرائحهم من شعر ونثر لهما طابعما الخاص بهما ، المتأثر بثقافة العالم الجديد •

كان الادب المهجري من عوامل النهضة الشعرية اللبنانية بعد الحرب • وكان ابرز شعراء هذه الفترة بشاره الخورى ـ الاخطل الصغير ـ

لقد سبق الاخطل الصغير وعاصره شعراء كثيرون منهم تامر الملاط والاميران نسيب وشكيب ارسلان والياس فياض وامين تقي الدين وداود عمون ووديع عقل ورشيد نخله وشبلي ملاط • وكان لهؤلاء الشعراء من جزالة النظم وفخامة المعاني وسموا الاغراض حظ وفير •

. . . / . . .

ولكن الاخطل تميز عنهم ، كما يرى كثير من الباحثين ، في نواح عدة منها رقة الغزل ، وقوة الاحساس الاجتماعي ، والعاطفة الوطنية . وفي انه الف بشعره حلقة تجمع بين المفهوم القديم للشعر والمفهوم الرومانسي . فهو قد كان بدء وثبة شعرية شقت الطريق امام الرومانسية (١)

لقد ترك كثيرا من موضوعات الاقدمين ، مما نسميه شعر المناسبات ، واهتم بالشعر الوجداني يعبر به عن احاسيسه العاطفية ، وبالشعر الذى يعالج النواحي الاجتماعية والسياسية كما انه عني باسلوب شعره فجمع فيه بين جزالة ورقة ، فكان اقرب في نسجه وديباجته الى اسلوب الحضريين من شعراء بني سبقوه او عاصروه ، كتامر الملاط ، وشبلي الملاط .

ولعل مما يمثل شدة نزوع بشاره الخورى الى التحرر ، والتجدد قصيدة له نشرها في جريدته البرق عام ١٩٠٨ ، وتضمنت نقمة شديدة على شعر المناسبات . قال :

كل يوم لنا حديث جديد وخطاب ملفق لا يفيد
وقصيد لصاحب يقتضيني المدح فيه لا كان ذاك القصيد
كلما سيم كاهن او سمعنا بوجيه وكلما جاء عيد
نتجارى في النظم جرى المهارى
والمغالي هو المجيد المجيد

وكثيرا ما يجهل الشبح الممدوح ماذا نعني وماذا نريد
قد سئمنا هذى الحياة فهلا غاص فينا بحر الحياة المديد
كلنا يدعي التفنن لكن لم يزرنا في الحلك فكر جديد

---

(١) صلاح لبكي : لبنان الشاعر ص٨ و موريس صقر : الاداب . العدد الاول ص٦٦ سنة ١٩٥٥

ومن الذل ان نقبل كفا صفدتنا بالامس منها القيود
ومن الجهل ان نسير كما سارت عليه آبؤنا والجدود
ومن الغبن ان يكبلنا الوهم فنبقى وشأننا التقليد (١)

كان بشاره الخورى في شعره ، صاحب مدرسة في الشعر اللبناني ، ان لم يكن في الشعر العربي كله ، في اسلوبه ومواضيعه ، تخير اللفظ الناصع والعبارة الرقيقة في غير تخل عن الفصاحة او اخلال بها ، واتسع بنطاق الشعر ورفعه من الاعتاب الى الافاق .

اما المدرسة التي تلت هذه المدرسة فهي لشاعرنا الياس ابي شبكة ، مدرسة الرومانسية الخطيرة الشأن في تاريخ الادب .

ومن مدرسة بشاره الخورى ، ومدرسة الرومانسية الممثلة بابي شبكة ، ومدرسة الرمزية الممثلة بسعيد عقل انبثق شعر لبناني كثير ، له من سمات الابداع ما يسمو به الى المختار من ادب العربية الحديث واذا ذكرت بشاره الخورى وابا شبكه وسعيد عقل فمن الحق ان اذكر الى جانبهم شعراء مبدعين منهم امين نخله صاحب " دفتر الغزل " والدكتور حبيب ثابت صاحب " ادونيس " وصلاح لبكي صاحب " ارجوحة القمر " وميشال طراد صاحب " جلنار " ويوسف غصوب صاحب " العوسجة الملتهبة " والدكتور نقولا فياض صاحب "رفيف الاقحوان ".

ولعل خير ما اختم به هذه الالمامة العجلى بلبنان السياسي والادبي في القرنين الاخيرين هو ان اذكر هذه الشهادة التي عطر بها عميد الادب العربي الدكتور طه حسين ، لبنان وادبه :

---

(١) البرق . العدد ٤٩ ص ٣٩٣ سنة ١٩٠٩

"٠٠ ان علماءكم وادباءكم سبقوا الى احياء الادب العربي وتحقيق الصلة بينه وبين الاداب الاوربية الكبرى ٠ فمن زعم لكم من ادباء الشرق المعاصرين انه ليس مدينا بشيء من ادبه فهو منكر للحق ، كافر للنعمة ، جاحد للجميل ٠

ان كثيرا من الناس يزورون بلادكم الجميلة في فصل الصيف يلتمسون فيها الراحة والاستمتاع بجمال الطبيعة ٠ وانا اشاركهم في هذا ٠ ولكني اخص نفسي بمتعة لا يكاد يشاركني فيها احد ٠ فان لا استمتع في بلادكم بطبيعتها الرائعة ونسيمها العذب وثمراتها المختلفة المتشابهة فحسب ، وانما استمتع فيها بادب رائع غض فيه لذة للنفس ، وحياة للقلب ، وتغذية للعقل ٠ واذا كان الجيل المعاصر قد اعرض عن سنة الجيل الماضي في احياء الادب القديم والتعمق في دراسته فان له من الادب الرفيع حظا عظيما سواء في ذلك الشعر والنثر ٠

ثم انا لا استمتع بادبكم الذى يتخذ اللغة الفصحى اداة للتعبير فحسب ، وانما استمتع بادبكم الشعبي الرائع الدقيق النفاذ " (١)

كان لهذه البيئة التي عاش فيها ابو شبكة آثارها في شخصيته وفي شعره ٠ احزنه وانقمه واقعها الاجتماعي فثار عليه وهاجم اضطراب الموازين وضياع القيم المثالية ، وكشف عن النفوس الضعيفة المريضة اقنعتها ساخرا بالرذائل المختفية وراء الاقنعة ٠

عاش ابو شبكة معظم عمره حزينا ، ناقما على حاضره ، حالما بمستقبل افضل واصطبغ شعره بصبغة الحزن والنقمة والاحلام ٠

ولكن احزانه ونقماته واحلامه لم تنبع في نفسه من واقع بيئته فحسب ، بل جاءه نصيب واف منها عبر طريق اخر هو تأثره العميق بالمذهب الرومانسي الذى عرفه حق المعرفة واعجب به اعظم الاعجاب فيما قرأه وتمثله من الادب الاجنبي ، ولا سيما الادب الفرنسي ٠

---

(١) غلاف المكشوف العدد ٣٧٨ سنة ١٩٤٤ ٠ من خطاب له القاه في حفلة اقامها لتكريمه في لبنان ، حبيب ابو شهلا نائب رئيس الوزراء ووزير التربية الوطنية يومذاك ٠

ما هي الرومانسية ، هذا المذهب الادبي الذى تأثر به شعر ابي شبكة ، ثم حمل لواءه في الادب اللبناني ، على كرهه للمذاهب الادبية ومهاجمة دعاتها وانصارها ؟

كيف نشأت في الغرب ، وكيف انتقلت الى الادب العربي وتفاعلت مع عناصره الاصيلة ؟

هذا ما اساحاول الاجابة عليه في البحث القادم .

الرومانسية (١)

كان الياس ابو شبكه شاعرا رومانسيا ، تجلت فيه وفي شعره سمات الرومانسية بكل جلاء وعمق .

كان كواحد من الشعراء الرومانسيين الذين انجبتهم انجلترا والمانيا وفرنسا في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، يعزف على قيثارهم ، ويترنم باناشيدهم ، ويحلق معهم في آفاق الاحلام باشواقه المجنحة .

وكان له مثل حبهم الحائر بين نساء الارض وحوريات البحار ، ومثل حيرتهم المترددة بين الثورة والسكون .

استمد ابو شبكة الرومانسية من اعماق نفسه ، واهواء قلبه ، وظروف بيئته الخاصة والعامة ، وامتلأ بها عقله مما قرأ وهضم من ادب الغرب ، وفرنسا ، بوجه خاص .

اذن ، فمن حق الرومانسية علينا ان نعرضها في هذا البحث الموجز ، الذى يوضح خطوطها العامة ، ويلقي الضوء امام البحث في حب ابي شبكة وشعره .

---

(١) يرد هذا لاصطلاح الادبي باشكال شتى منها الرومانتيكية والرومانطيقية والابتداعية والرومانسية وقد فضلت استعمال الاخير لانه فيما ارى اصح من سواه ففي الرومانتيكية او الرومانطيقية الحاق لياء النسب العربية لما هو منسوب في الفرنيجة فكأنه نسب على نسب . اما لفظ الابتداعية فلا اخاله يؤدي معنى الرومانسية الدقيق الذى لا يحوجه عظيم شيوعه الى ترجمة .

ما هي الرومانســـــية ؟

حاول كثير من الادباء والنقاد الغربيين ان يعرفوا الرومانسية • فذكروا لهـــا تعريفات كثيرة متـنوعة ••

قيـل : هي اثر الثورة الفرنسية في عواطـف الناس وافكارهم • وقيـــل : هي غلبـة الخيال والعاطفة على العقـل • وقيـل : هي الكلـف بالطبيعة والاحساس العميـق بفتنتها • وقيـل : هي تقبل الروح للكآبة والالم • وقيـل : هي حـب العزلة • وقيـل : هي غلبـة غير المعقول على المعقول ، وارادة القوة ، وشـــدة الاحساس بالذاتية ، وثورة العاطـفة على الذكاء والغريزة على العقل ، والتصوف في الحـب وفي تعشـــق الطبيعة "(١)

ولكن ايا من هـذه التعاريـف لا يفي بالمعرّف ، تمام الوفاء •

وهـ الصعـوبة في تعريـف الرومانسـية ناشـئة عن ان "الرومانسـية ليست فلسـفة منظمة ، ولكنها ايمان بديهي يعـبر عنه خلال فن الادب العاطفي الرمزي"(٢) فهي لـذلك لا يمكن ان توضـع ، في قالب من الالفاظ ، يحيط بها كل الاحاطة ، ويجلـوها كل الجـلاء ••

ويضيـف بيرنباوم قائـلا : " ان المرء قـد يعرّف اشـياء طبيعية او ميكانيكية اوعمليـة او رياضية — مثل ماء وسـكين وقصاب ومثلث ، ولكنه كلما سما الى مستويات مـن الوجود تشتمل على عناصر معقـدة ، حيوية ، عاطفية ، عقلية ، روحية بات اقرب الى المستحيل التوصل الى تعريفات قصيرة جازمة •

---

(١) محمد الحليـوى : مجلد ابولو ص٣٥٣ — ٣٥٤ • العدد الخامس من المجلد الثاني سنة ١٩٣٤

(2) E. Bernbaum: Anthology of Romanticism
New York, The Ronald Press Co. Third Edition P. 26

انظر في القاموس الى تعريفات "الحياة" و "المرأة" و "الدمقراطية" ولاحظ كيف تقصر عن توضيح المعاني الضرورية او اللبقة لهذه الكلمات . الرومانسية لا يكاد يعرفها حتى الرومانسيون انفسهم ."(١)

وقول بيرنباوم هذا تؤيده اقوال كثيرين من اهل الادب والنقد . منهم بول فاليرى (Valery) القائل: " لن احدد معنى هذه الكلمة "الرومانطيقية" . وكل من يحاول هذا التحديد يجب ان يكون قد فقد الشعور بالدقة ."(٢)

وارفنج بابت(Irving Babbit) الناقد الكبير، القائل : "كثيرا ما نُخبَّر بان الكلمتين كلاسي (٣) ورومانسي لا يمكن ان تعرّفا على الاطلاق ، وحتى ان امكن تعريفهما ، كما يضيف آخرون ،فلن نجني من ذلك نفعا كبيرا ."(٤)

و ت . س . اليوت (T.S. Eliot) القائل : "ليست الرومنطيقية والكلاسيكية من القضايا التي تهم الكتاب المبدعين كثيرا او يمكن كقاعدة عامة ومن الناحية العملية ان تكون لهم شاغلا عظيما . الحق ان الكتاب قد سُمّوا من وقت الى آخر رومنطيقيين او كلاسيكيين كما اندرجوا تحت اسماء اخرى . ولكن هذه الاسماء التي يطلقها جماعة الكتاب والفنانين على انفسهم انما تلذ اساتذة الادب ومؤرخيه ويجب الا يأخذها سواهم جديا فقيمتها الرئيسية عارضة وسياسية وهي ببساطة محاولة تعريف الكتاب وتقديمهم الى الجمهور المعاصر ."(٥)

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥

(٢) المكشوف . العدد ٣٠٧ ص ٢ سنة ١٩٤١ (اقتباس وترجمة زهير زهير)

(٣) ما قلته في تفضيلي استعمال اصطلاح الرومانسية على سواه ينطبق على اصطلاح الكلاسية ايضا .

(4) I. Babbit: Rossean and Romanticism.
(New York, Meridian Books, 1955) P. 35

(5) T.S. Eliot: Selected Prose
Middlesex, England 1953

P. 31 (ترجمة منح خورى)

الا ان بيرنباوم مع ادراكه صعوبة التعريف ،وشرحه اسباب هذه الصعوبة ، حاول ان يحدد الرومانسية والرومانسي ، فوضعهما بين الوهم واليقين ،قائلا :

" الرومانسية ، كأى ايمان آخر ، تقع في منتصف الطريق بين الوهم الزائف واليقين المثبت • اماالرومانسي فليس بالحالم الفارّ الذى لا يهمه ان تكون احلامه خيالية ،ما دامت سارة ، وليس بالجازم الذى يقطع بان معتقداته يمكن ان تثبت علميا اوعقليا • ولكنه ، مع هذا ، مقتنع بان ايمانه ، وان كان غير قابل للاثبات ، هو حق لا ريب فيه ، وهو منسجم مع الحقائق الخالدة ...»(١)

ولكن اذا صعب علينا ان نعرّف الرومانسية ، فليس بالصعب ان نَعْرِفَها ، بان نعمد الى دراسة نشأتها وتطورها ومظاهرها وآثارها • وهذا ما سافعله •

لقد لاحظ مؤرخو الادب ان الروح الرومانسية ،قد تجلت قبل ان تتخذ شكلها الواضح في بكور القرن التاسع عشر ،بمظهرين واضحين لها احدهما في فلسطين ايام السيد المسيح ، وثانيهما في انجلترا ايام شكسبير • ويمكن ان يضاف الى هذين المظهرين مظاهر اخرى في هذه الفترة من الزمن او تلك ،وهنا او هناك •

وكل هذه المظاهر والبشائر تجمعت في تيار واحد عرف باسم "حركة ما قبل الرومانسية "، في القرن الثامن عشر • وهذه الحركة هي التي انطلقت الى الامام مشيرة الى العصر الرومانسي العظيم ،السائر على آثارها •(٢)

كان القرن الثامن عشر قرنا **خطيرا الشأن** في تاريخ البشرية ، فقد كان تياره جياشا عميقا ،واندفاعه سريعا • وقد ظهر فيه مفكرون وقادة وكتاب وسياسيون وعلماء آمنوا بالمستقبل وكرهوا قيود الماضي ،وجمود الحاضر • فناقشوا اصول المعتقدات، وانكروا الامتيازات وحاربوا الحكم المطلق ،وسخروا من التقاليد البالية ،وحطموا كثيرا من قواعد المجتمع •

---

(١) E. Bernbaum: Anthology of Romanticism P. 26

(٢) المصدر نفسه ص٣

كان القرن الثامن عشر قرن فولتير (Voltaire) الفيلسوف المفكر الساخر الذى استطاع ان يسود عقول ابناء عصره ، وان يملأ اسمه وافكاره الاسماع ، وان يجعل عصره عصر العقل (١) . وكان له تأثيره الادبي في دعم الكلاسية ، فقد كان " احد المحامين البارزين عن الكلاسية "(٢) .

في اوائل هذا القرن كانت الحركة الادبية ، في فرنسا ، فقيرة ، لسيطرة العقل المجرد على اتجاه الادباء ، ولتقيدهم بالقواعد الالية والصنعة البيانية .

الا ان هذه الحال ما عتمت ان تغيرت ، فقد ادى هذا الالحاح العنيف على العقل ، وعلى الالية ، الى ان يتيقظ الاحساس من رقدته ، مطالبا في الظهور وواقفا امام التيار العقلي الذى اوشك ان يغطيه .

وفي اخر القرن الثامن عشر بدت بوضوح ظاهرة عرفت " بيقظة الاحساس " وتمثلت هذه اليقظة في طائفة من الكتب والقصص قائمة على مشاعر الانسان العميقة ، ومعبرة عن حبه واشواق روحه ، مثل قصة " هلويز الجديدة " (Nouvelle Heloise) لجان جاك روسو (Jean Jacques Rousseau) و " بول وفرجيني " لبرناردين ده سان بيير (٣) (Bernardin de Saint-Pierre)

و بروسو تبدأ الرومانسية . بل انه ليقف مثلا لها امام فولتير ممثل الكلاسية . يقول بابت : " لقد لوحظ ان الرومانسية هي كل ما ليس هو بفولتير . والتصادم بين روسو وفولتير ليس تصادم رجلين فحسب ، وانما هو تنازع وجهتين في الحياة غير متفقتين . ففولتير ، كما قال جوته (Goethe) ، نهاية العالم القديم ، و روسو بدء الجديد (٤)

---

(١) محمد الحليوى مجلد ابولو ص١٣٦ . العدد الثاني ، المجلد الثاني ١٩٣٣

(٢) I. Babbit: Rousseau and Romanticism P. 40

(٣) محمد الحليوى مجلد ابولو ص ١٣٨ . العدد الثاني من المجلد الثاني سنة ١٩٣٣

(٤) I. Babbit: Rousseau and Romanticism P. 39

كان تصادم روسو وفولتير تصادما بين الرومانسية والكلاسيكية . وقد بدأ اول فصل من فصوله في انجلترا ، في حرب نشبت بين الابتكار والتقليد ، حين حاول الادباء والشعراء ان يتحرروا من قيود اللغة والنظم ، التي ظلت سائدة في القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر ، مدركين ان الشعر هو الشعور ، وان هذا الشعور لا يبرز الا في لغة طيعة ونظم سهل .

بدأت الرومانسية الانجليزية بالشاعر وليم بليك (William Blake) في القرن الرابع عشر ولكنها اتضحت بعد ئذ بشعراء مثل لامب (Lamb) وسكوت (Scott) وكوليردج (Coleridge) ودى كوينسي (De Quincey) ووليم ورد سورث (William Wordsworth). وكان غرضها الاول ادبيا صرفا متجها الى التخلص من الاساليب الكتابية الاصطناعية الزائفة .

وقد عالج الرومانسيون الانجليز مواضيع عامة متنوعة هي الدين ، والطبيعة وماضي الجنس البشرى وحاضره ، ومستقبله ، وفلسفة الاخلاق والسياسة ، والرجل والمرأة ، والطفولة ، والحب ، والزواج ، والموت والخلود ، والعلم ، والفن .

وانها لمواضيع خطيرة الشان في حياة الانسان ، ومستقبله ، وفي واقعه ومثاله ، وفي حريته ومسؤوليته .

والفترة الرومانسية الانجليزية تتحدد بين ١٧٨٣ - ١٨٣٢ م . ومن الممكن القول ان معظم الادباء والشعراء البارزين في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر كانوا رومانسيين . وفي طليعتهم نجد ثومسون (Thomson) ووليم كولنز (William Collins) وجراي (Thomas Gray) وماكفرسن (Macpherson) وتشاتوتون (Chatterton) ، وكاوبر (Couper) وبرنز (Burns) .

ويقسم بعض المؤرخين هذه الفترة الى قسمين ، الاول من ١٧٨٣ الى ١٨١٢ واعلامه الشعراء : بليك وكوليردج ورد سورث وسكوت . والثاني من ١٨١٢ الى ١٨٣٢

واعلامه بايرون (Byron) ، وسكوت في رواياته ، وكوليردج في نقده ومقالاته ، وهازلت (Hazlitt) **ولامب ودى كوينسي** ، ولاندور (Landor) **وكيتس** (Keats) وشيلي [١] (Percy Bysshe Shelley)

ومن الملاحظ ان الانتعاش الرومانسي كان في الشعر اوضح منه في النثر ، وكان **الشعر خير معبر عن الافكار والاحاسيس** . الا ان هذا لا ينفي جودة النثر في تلك **الفترة** [٢] . **بل ان عصر الانتعاش الرومانسي** كان للنقد الادبي الانجليزى **عصره** الذهبي ، وكان الشعراء كلهم نقدة ، بما كتبوا من المقالات والمقدمات وبما سطروه في مكاتباتهم ورسائلهم [٣] .

اما في فرنسا فقد ظلت الحركة الادبية متأخرة عنها في المانيا وانجلترا فقد انشغلت فرنسا طويلا بثورتها واعقاب ثورتها وبنابليون وحروبه المتطاولة ، عن الالتفات الى الادب .

حتي اذا ظهر روسو ، كان ظهوره بشيراً بيقظة ادبية ، وقد عد فيما بعد احد الرومانسيين الاوائل ، ان لم يكن اولهم .

ثم توالى بعده رواد الرومانسية ، كشاتو بريان (Chateaubriand) ، ومدام ده ستال (Mme de Stael) ولكن رومانسيتهم ظلت في حالة حرب مع الكلاسية السائدة قبلهم ، وفي زمانهم [٤] ، حتى ظهر فكتور هيجو (Victor Hugo) الذى ظل زمنا مترددا بين الكلاسية والرومانسية ، ثم رجح الرومانسية فانضم اليها وصار قائدا لها في طريق جديدة . كان ذلك في عامي ١٨٢٦ و ١٩٢٧ عندما نشر (Odes and Ballads) ومقدمة لمسرحية عنوانها " كرمويل " .

---

(١) E. Bernbaum: Anthology of Romanticism P. 24

(٢) G.H. Mair and A.C. Ward: Modern English Literature Oxford University Press (Great Britain 1951) P. 155

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٥

(٤) James E. Creighton: The Encyclopedia Americana: (New York, 1951) Vol. 23 P. 657

ومع هيجو سار اعلام بارزون ، هم الفريد ده موسيه (A. de Musset) وجورج صاند (George Sand) وتيوفيل جوتييه (Theophile Gautier) وبلزاك (Honore de Balzac)

اما المدرسة الرومانسية في المانيا فتدين لليسنج (Lessing) كثيرا بوصفه اول متحدٍ للفن والادب الكلاسيين ، ثم لهردر (Herder) الذى دعا الى الاهتمام بما هو طبيعي ، تلقائي في الادب .

وفي "فرتر" جوته (Goethe) الكتاب الذى ظهر في وقت مقارب لوقت "اعترافات" روسو نجد الرومانسية المتطرفة ، باجلى سماتها .

ثم اتضحت معالم الرومانسية في المانية ، فاصبحت تضم طوائف من الادباء والشعراء والمفكرين موحدى الاتجاه . وقد اطلق اسم "مدرسة رومانسية" على جماعة منهم كان مركزهم مدينتي "فيمار" و"يان" ثم مدينة برلين بعدئذ ، وقد استمر نشاطهم من ١٧٧٥ الى ١٨٠٦ واهمهم الاخوان فردريك (Friedrich) و شليجل (Schlegel) . والفيلسوف شيلنج (Schelling) ، ونوفاليس (Novalis) ، ولدفينج تييك (Ludwig Tieck) وشلير ماخر (Schleiermacher) . وقد اهتموا بالفلسفة الجمالية كثيرا . وكان هايني (Heine) واميرمان (Immerman) وفريتاج (Freytag) وفون شيفيل (Von Scheffel) مهتمين بابداء الاشواق الرومانسية لما هو رائع منتسب للقرون الوسطى .

وفي ناحية اخرى كان اهلاند (Uhland) والاخوان جريم (Grimm) وفون ارنيم (Von Arnim) وجوريس (J. Gorres) وبرنتانو (Brentano) يمثلون حركة رومانسية ذات اتجاهات وطنية قوية وقد سموا الرومانسيين المحدثين ، وكان مركز نشاطهم مدينة هايدلبرج .(١)

---

(١) المصدر نفسه . الجزء ٢٣ ص٦٥٦ ـ ٦٥٧

كانت الحركة الرومانسية حركة خطيرة في تاريخ الانسانية . كانت حركة الانسان يبحث عن حريته ومسؤوليته وسط مجتمع يقيده بالف قيد وقيد ، ويحاول ان يجعله جزءا من آلته الضخمة الجبارة المدوية .

لم تكن ثورة ادبية ، في الاسلوب واللغة ، ولا عصر انتاج وتجربة جديدة فحسب ، فهي اعمق من هذا بكثير ، وآثارها في المظهر الانساني تدل على تغيرات رئيسية بينة . لقد ادت الى نموغير عادى في الاحاسيس العاطفية ، والى تيقظ وحيوية في نشاط العقل ، وتوسيع في آفاق الحياة . وجعلت الفرد باحثا مخلصا عن الجدة والتغير في كل ما حوله ، وثائرا عنيفا على الجمود والاستقرار . فانطلق نحو الجبال السامقة والبحيرات البعيدة ، واحب الطبيعة والفلاحين ، واعجب بالقرون الوسطى ، وبفنون اليونان واساطيرهم (١).

ولذلك فليس من الغريب ان تختلط في قيادة الانتعاش الرومانسي اسماء اهل الادب والسياسة والقيادة العسكرية ، مثل نابليون بونابرت وبايرون والدوق ولنجتون وبيت و ولبرفورس وكيتس و وردسورث (٢) .

وليس من العسير ان يرد كثير من مظاهر هذه الحركة الرومانسية الى منابع اجتماعية سياسية اقتصادية كالثورة الفرنسية ومفكريها ، والثورة الصناعية في انكلترا ، والى نهو الدمقراطية ، وقوة النزعات الوطنية ، والقومية (٣) .

---

(١) Mair and Ward: Modern English Literature P. 140

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٥

(٣) جميل سعيد : اتجاهات الادب الانجليزى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ص ١١١ — ١١٥

كان الباعث الاول على الاتجاه الرومانسي ، الصراع بين الواقع والمثال . " اعتقد الرومانسيون انه من الممكن ان يكون العالم كما يجب ان يكون . ولهذا احتقروا العالم كما كان — والفوه مليئا بالباطل والشر والقبح والخداع . ولا انسانية امرىء ضد امرىء أدتهم الى الحنق والحزن ، وفي احيان ،الى انهيار العزيمة "(١).

كان " واقعهم " مرا ، وكان " مثالهم " جميلا ، وبين الاثنين كانت هوة عميقة تفغر فاها ، وتورثهم هما عظيما .. لذلك فضلوا اعتزال الناس ورأوا ان الرجال الاشرار وحدهم هم الذين يحتاجون الى العيش في مجتمع ، لتسنح لهم فرص ممارسة شرورهم .

اما الرجل الطيب ، فما به من حاجة الى معاشرة هؤلاء ، " ففي درب الفضائل الخاصة لا يجد المرء من الناس الا قلة نادرة "(٢)

ولكن اعتزالهم الناس اشعرهم بعبء الوحدة الباهظ ، وعذابه وقالوا مثل ما قاله نيتشه (Nietzsche) ، " لي ثلاثة واربعون عاما خلفي ، ولكني وحيد كما لو كنت طفلا ." ثم راحوا ينشدون الاتحاد مع شيء فوق الانسان والطبيعة سواء أكان اسم هذا الشيء الله او المسيحية او القانون "(٣)

وعن اصطراع الواقع والمثال نجم الحنين الرومانسي الى الطبيعة ،فالرومانسي المثالي ، يجد ان الناس الذين يعايشهم لا يفهمونه ، بل انهم يسخرون " بروءياه " ولا يبدون اكتراثا " بنبوغه " ، فينقم عليهم ويلوذ بالطبيعة مصغيا الى نصيحة لامرتين : " ولكن الطبيعة هناك ، انها تدعوك وتحبك ، وانك لواجد فيها من حسن الفهم وطيب الصحبة ما اخفقت في الحصول عليه في المجتمع ."(٤)

---

(١) E. Bernbaum: Anthology of Romanticism P. 26

(٢) I. Babbit: Rosseau andRomanticism P. 249

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٩

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٧ . راجع ايضا محمد مندور : في الادب والنقد ص١١٢—١١٣

وخير الرومانسيين تمثيلا لهذه العودة الى الطبيعة هو الشاعر الانجليزى ورد سورث ، ورسكن من بعده .

اما هذا المزيج من الشعور بكره البشر وعبادة الطبيعة فهو في اجلاه عند اللورد بايرون[١] (Lord Byron)

وافرط قوم من الرومانسيين في اللجوء الى الطبيعة ، والارتماء في احضانها حتى لم تعد الطبيعة ، كما تراها عيونهم ، تهدئ في نفوسهم ثائر الحنين الجياش والرغبة في الفرار من قيود الواقع القاسي ، وقادهم هذا الافراط الى ان يخلقوا بخيالهم النشيط ، المحموم " طبيعة " جديدة غريبة المشاهد ، شاذة الصور . فهذا يرسي بيش شيلي يتصور سحابه تتبع برقا يفتش عن روح يعشقها وتراقب معه احوال جن البحار ، ثم يتخيل البرق ذائبا في المطر ! وهذا كوليردج يصف بحارا حمله تيار الخضم الى القطب الجنوبي ، وظل هناك ، مع الجليد والبرد وطائفة من البحارة ، حتى اقبل عليهم طائر بحرى قادهم بين الضباب والجليد الى الامن ، وهنا جوزى الطائر شر جزاء ، فقد قتله البحار .. وتتوالى اهوال البحر على البحارة ، وتصرعهم واحدا بعد الاخر ، ولا ينجو صاحبنا البحار الا بنجدة ملائكية "[٢]

والرومانسي اذ يفر من المجتمع الذى لا يفهمه ، ولا يلتفت الى " نبوغه " يفر ايضا من آلية الحياة المدنية ، القائمة ، المعقدة . فهناك وراء المدن وصناعيتها ينبسط العالم الطبيعي جميلا ، نقيا كما غرسته " العناية " منذ القدم ، كريما لا يضن على ابنائه واللاجئين اليه بالهبات الروحية الثمينة[٣] .

هذه الطبيعة التي يفر اليها الرومانسي ، لينجو في احضانها من واقعه الكريه المتمثل في هؤلاء الجاحدين ، وهذه المدن الصناعية الالية المعقدة اتراها وحدها تستطيع تهدئة ثائرته ، واعادة الطمأنينة الضائعة ، الى قلبه ؟ الجواب ، لا .

---

(١) انظر المقطع الثاني من " تشايلد هارولد " ، خاصة .

(٢) جميل سعيد : اتجاهات الادب الانكليزى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ص١١٦ـ١١٧

(٣) Mair and Ward: Modern English Literature P. 141

لـذلك يبحـث الرومانسـي عن ملاذ ثان ، هو الحـب .

ولكن اى حـب ؟ !

ان الرومانسـي اذ يتحـدث عن حبـه حبيبته ، فهو — سواء أكانت الحبيبة من لحم ودم ، او من منح الخيال — انما يتحدث عن شبح الحب ، وعن الحبيبة التي يتمثلها بمخيلـته وعاطـفته الجامحة عروسـا من عرائـس البحر ، وحورية من حورياته . وانه ليصـدق فيـه ما قالـه احد مشـاهير ادباء الرومانسـية : " لو لم يكن ثمة بعض ذكريات من شـبابي ومن مدام دوديتو لكان كل ما شـعرت به من حب ووصـفته ، قـد وقع مـع الحوريات "(١) .

ومما يلفـت النظـر ، ويثير الاهتمام ان يقـع اثنان من اعـلام الادب الفرنسـي في مثل هذا الطراز من الحـب . هما رجـل وامرأة ، الفريد ده موسـيه وجورج صاند .

لقـد نشـد كل منهما قـرب صاحـبه ، واحس كأن هـذا القـرب منية العمـر كلـه ، فلما تحقـق لهما ما نشـداه ادركا انهما لم يبلغا ما طمحا اليـه وحلما بـه . كان كل منهما اسـير اوهامه ، وهذه الاوهام هي التي جعلـت واقعهما يبـدو هزيـلا متعبا ، وقـد بلـغ من عنف الصـدمة في نفـس جورج صانـد انها همـت بالانتحـار ، الا انها عـدلت عنه ، وقـررت ان تسـتعيض عن دين الحب بدين الاخوة البشـرية .

وحين يـدرك الرومانسـي انه خاب في حبـه ، ولم يعثر على حورية احلامـه ، يلجأ الى الذكريات السـعيدة ، والمرء قادر دائما على تذكـر اوقات سـعيده من ماضيه . وهنا في هذه الذكريات القـديمة يحـس انه قـد جنى من الفرح ما لا تُجنيه اياه السعادة نفسها .

ومن الجلي ان القصائـد الغرامية المشهورة : احزان اوليمبيو "La Tristesse d'Olympio" (للامرتين ، والذكـرى (Souvenir) لموسـيه و الكيـس " Le Sac " لهيجو تسـتند على التذكر المتحمس .

---

(١) I. Babbit: Rosseau and Romanticism P. 180

ولكن كل هذا الذى يلجأ اليه الرومانسي ، لا يعدو ان يكون مفعوله مفعول العقاقير المسكنة ، فما ان يهدأ به الحنين زمنا حتى يعود ناشطا مشتدا، وحتى تستبد به الكآبة ، فيشعر انه راغب في الانطلاق ، لا الى البيت بل منه ،الى آفاق بعيدة لا يعلم اين هي ، كأوديسيوس (Odysseus) و"عوليس" (Ulysses) تنيسون (Tennyson) الذى يترك داره " ليبحر خلف مغرب الشمس "(١) .

ويعود الرومانسي، بعد كل هذا التطواف في الطبيعة ، والحب ، وبعد كل هذه الاشواق والاحلام الى ارضه التي انطلق منها، وتعود اليه آلامه ،وهذا الاحساس الغامض الذى سمته الاداب الفرنجية " مرض العصر " ، والذى يتأتى من شعور المرء بعدم قدرته على احلال الوئام بين ما يأمل وما يستطيع .

قد يلجأ المرء العادى "الحكيم " حين يتبين الفرق بين طبيعته وطبيعة عالمه الى تغيير طبيعته هو ، ما دام عاجزا عن ان يغير طبيعة عالمه . ولكن هذا الحل التوفيقي لا يبدو صالحا عند الشاعر الرومانسي المتسامي ،المتكبر ،الطماح (٢) .

وحين لا يبقى للرومانسي غير الالم ،يقرر بجرأة وتضحية ان يمجد الالم وان يحبه . فيقول ما قاله الفريد ده فيني (Alfred de Vigny) "اني احب جلال الالم البشرى ." وما قاله الفريد ده موسيه (Alfred de Musset) : "المرء طفل معلمه الالم " و" لا شيء يسمو بنا الى العظمة كما يسمو الالم "(٣) و"ان الخير الوحيد الذى بقي لي في هذا العالم هو انني تألمت في بعض الاحيان "(٤) .

وتغدو المشاهد الكئيبة ،المثيرة للالم ، مشاهد محببة الى نفسه ، فيروح ، كالجاهلي القديم ،يقف على الاطلال ويتغنى بجمالها وجلالها(٥) ، في دفق شعورى عميق .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٨

(٢) محمد مندور : "في الادب والنقد " ص ١١٢ — ١١٣

(٣) المصدر نفسه ص ١٢

(٤) ج . م . جويو : سائل فلسفة الفن المعاصرة ص ١٢١

(٥) تسمي الكتب الادبية الفرنسية هذه الظاهرة " Le Sentiment de ruines "

ولكنه يظل على ما به ، ابيا جلدا ، لا يتخاذل ولا يشكو . " فالانين والبكاء والضراعة كلها حقيرة "(١) و " الصمت وحده اعظم الاشياء "(٢)

ان فلسفة الرومانسي في الحياة والموت لتبدو جلية في القصيدة الرائعة : موت الذئب " La mort de Loup " للشاعر الفرنسي الكبير الفريد ده فيني .

القصيدة تروي قصة جماعة من الصيادين خرجوا يطاردون الذئاب ، فالتقوا باربعة منها ، ذئب وذئبة وولديهما . واحاطوا بها فلما رأى الذئب انه حوصر ، وسدت عليه الدروب قبض بفكيه الحديديين على اقوى كلاب الصيد ، ولم يسترخ فكاه بالرغم من الرصاص الذى كان ينهمر عليه ، والمدى الحادة التي كانت تغوص في احشائه .. ثم خلى جثة الكلب الميت ونظر الى الصيادين وجاهد ان يلعق ما فاض حول فمه من دماء ، ثم اغمض عينيه الواسعتين وتوسد الثرى ، ومات بصمت وكبرياء .

وخاتمة القصيدة تضم هذه الفلسفة التي اشرت اليها :

يا اسفا ! ما اشد خجلي من جنسي
بالرغم من هذا الاسم العظيم " الانسان "
اما كيف يغادر الانسان الحياة وما فيها من عذاب اليم
فانك انت الذى يعلم ذلك ايها الحيوان العظيم
واذا رأيت ما يأتي الانسان على الارض وما يذر
علمت الصمت وحده اعظم الاشياء ، وكل ما عداه هذر
آه ! حقا لقد فهمت منك ايها الوحش الهائم ،
وآخر نظرة منك قد نفذت الى قلبي !

---

(١) (٢) عبد الرزاق حميده : في الادب المقارن ص ١٣٨

لقـد قال :

اذا استطعت فافعل ما يهديك اليه قلبك
واتركـه يدرس ويفكر الى ذروة الكبرياء الرواقي
الـتي بلغتها انا ، ربيـب الغابات
اما الانين والبكاء والضراعـة فكلها حقيرة
وأدّ واجبك الطويل الثقيـل نشـيطا
في حـدود الطريـق الـذى رسـمته الاقدار
ثم تحمـل ومـت صامتا كما فعلـت .(١)

---

(١) المصـدر نفسـه ص ١٣٧ ـ ١٣٨

الرومانسية والادب العربي الحديث

كان من آثار حملة نابليون بونابرت انها وصلت الشرق العربي ، ولا سيما مصر ولبنان بالثقافة الفرنسية خاصة ، وبالاوربية عامة ، فقد اصطحب نابليون معه الى مصر يوم دخلها فاتحا عام ١٧٩٨ طائفة من علماء بلاده وخبرائها وفنانيها بلغ عددهم مائة وثلاثة واربعين ، منهم اعلام كمونج وبرتوليه وفوريه . وكان لهؤلاء في مصر نشاط جم ، وكان من آثار هذا النشاط ان تنبه المصريون وغير المصريين الى هذا المنبع الجديد من الثقافة وضرورة الارتواء منه .

وقد ابدى اللبنانيون والسوريون اهتماما بما اهتم به المصريون . ولما عاد ابرهيم نجل محمد علي باشا الى مصر عام ١٨٤٠ بعد انتهاء حملته الحربية في سوريا ولبنان سار وراءه كثير من اللبنانيين والسوريين ليساهموا في مصر بخدمة الحركة الثقافية الجديدة .

وظل التيار الغربي يخط مجراه في الثقافة العربية ، بل ان اهتمام الغربيين بنشر ثقافتهم وبسط نفوذهم في هذا البقعة من الشرق ازداد ، وتنوعت مظاهره . وكان من هذه المظاهر البارزة تأسيس الارساليات الدينية دورا للعلم والدراسات الادبية العلمية ، واخرى للطباعة ، في لبنان خاصة . ومن دور العلم التي انشئت وكان لها شأنها يومذاك وما تزال ناشطة حتى اليوم :

الكلية السورية الانجيلية المعروفة الان بالجامعة الاميركية في بيروت ، وقد اسست عام ١٨٦٦ .

وجامعة القديس يوسف التي انشأها اليسوعيون عام ١٨٧٥ .

وكلية الحكمة التي وضع حجرها الاساسي عام ١٨٧٥ ايضا .

وكان مما جعل لبنان يوثق بالغرب صلته كثرة مسيحييه واقبالهم على مسايرة الحضارة القادمة من الغرب . !! ؟

هذه الصلات الثقافية بين فرنسا ولبنان ، نقلت الى لبنان ، فيما نقلته ، تأثيرات ادبية هامة لعل الاتجاه الرومانسي ابرزها .

لقد تأثر اللبنانيون بالثقافة الجديدة ، وبلغ التأثر اشده ، من طريق الاعجاب بالثورة الفرنسية فقد وجدت هذه مبادئ هذه الثورة صدى عميقا في نفوسهم ونفوس الشرقيين الذين تعشقوا هذه المبادئ واتخذوها اساسا لاتجاههم في الادب والسياسة (١) .

تعشقوا هذه المبادئ وتعشقوا ايضا ما انبثق منها في عالم الادب . فقد احدثت هذه الثورة السياسية ثورة في الادب ، هي الثورة الرومانسية التي اندفعت في طريقها ناشطة قوية ، ثم توطدت على بقايا المذهب الكلاسي .

وكان لا بد للبنان ، ولاجزاء اخرى من هذا الشرق العربي الذى اتصل بثقافة فرنسا وثورتها عن طريق حملة نابليون ، ثم عن طريق البعوث والارساليات ، ان تتأثر بأدب فرنسا الجديد الذى هو جزء ثمين من ثقافتها وثورتها .

وفي اواخر القرن التاسع عشر اقبل العرب على ترجمة النتاج الادبي الفرنسي الى العربية وكان اول ما صرفوا اليه همهم من هذا النتاج الروايات والمسرحيات وكان بعضهم ينقلها ويطلق عليها اسماء عربية ، مغفلا ذكر اسماء مؤلفيها .

وصحب هذا الاقبال على الترجمة تلفت شيق الى ادب الفرنجة فصارت طائفة من شعراء العربية تتأثر بما تقرأ ، وتبالغ في التأثر احيانا ...

يقول ابو شبكة : " واذا نحن رجعنا الى القصائد التي بنى عليها شعراء تلك الحقبة شهرتهم الادبية نرى معظمها منحولا عن شعراء الفرنجة . ولا نريد بهذا ان ننكر فضل هؤلاء الادباء فقد كانوا فاتحة حسنة لهذا القرن بخروجهم في حلبة الشعر على غفلة القرن التاسع عشر (٢) .

---

(١) الياس ابو شبكة : روابط الفكر والروح ص ٥٤ ـ ٥٥

(٢) روابط الفكر والروح ص ١٠٠

ويرى كثير من الباحثين ان الشرق العربي كان مستعدا لقبول هذه الحركة الرومانسية الجديدة بحكم وضعه العلي" بالقلق والاضطراب ، وبدانع يأسه بعد فشل الدستور عام ١٩٠٨ ، وبعد معاناة الاف الحرب العالمية الثانية ، ولانسجام الرومانسية مع طبيعة الشرقي ومزاجه(١) .

اما مراحل نمو الحركة الرومانسية في الادب العربي الحديث ومميزاتها فقد تحدث عنها احسن حديث الدكتور اسماعيل احمد ادهم في فصل له عنوانه " نشأة الاتجاه الابداعي في الشعر العربي " من بحثه القيم " خليل مطران شاعر العربية الابداعي " قال : ان اقبال اللبنانيين والسوريين والمصريين على مجاراة الثقافة الغربية قد اوهن سلطان الادب العربي القديم على نفوس ادبائهم ، فاستطاعوا ان يتخلصوا من بعض قيوده ويفتحوا طريقا للتطور والتجدد .

واضاف الى ذلك قوله :

" وكان اثر هذا التطور كبيرا في الشعر العربي الذى اخذ بداءة ذى بدء" يتحرر من المحاكاة الصرفة الى محاكاة فيها شيء من التحرر والشخصية وهذا ما يظهر في شعر معظم شعراء القرن التاسع عشر ، في شعر اليازجي والبستاني في لبنان وسوريا وفي شعر الساعاتي وعبد الله نديم في مصر . وكان من آثار هذا التحرر وبروز الشخصية ان وجد الشعر الاوربي سبيلا للتأثير في شعراء العربية . وهذا التأثير بيد واضحا في شعر عبد الله فكرى من شعراء مصر وشعر سليم عنحورى صاحب آية العصر (٢) من شعراء الشام غير ان التأثر كان في العموم بالمدرسة الرومانسية الفرنسية التي بلغت القمة في شعر لامارتين .

الا ان هذا التأثر لم يبد قويا في الاغراض الشعرية وفي التحرر من روح النظم العربي ولكنه كان السبيل لانقلاب خطير تمثل في محاولة خليل مطران نقل الشعر العربي من ناحية الاغراض العربية لناحية الاغراض الاوربية . وبهذه المحاولة تميز الانفصال بين المذهب الاتباعي القديم في الشعر والمذهب الجديد الابداعي (٣) .

---

(١) انطون غطاس كرم : الرمزية والادب العربي الحديث ص ١٣٨
(٢) ديوان شعر سليم عنحورى المولود سنة ١٨٥٥
(٣) المقتطف : ج ٢ ص ١٦٤ المجلد ٩٤ سنة ١٩٣٩ .

ويقول في موضع آخر :

" على ان الابداعية في الادب العربي لم تقم — كما هو الحال في شعر الابداعيين على اساس الثورة على القوالب والتراكيب العربية وانما قامت قبل كل شيء على اساس من نقل الشعر من الاغراض العربية الاتباعية الى الاغراض الاوربية الابداعية . فبذلك كان اتجاه الحركة الابداعية في الاداب العربية اقرب في روحها الى الحركة "البرناسية" (١) في الاداب الغربية (٢) " .

وقد كان الخليل مطران شأن خطير في مد الادب العربي الحديث بالتيار الرومانسي . كان سليم منجورى قد مهد له السبيل بأن نهج في شعره منهجا متميزا يقوم "على اساس تغليب الفن على الصنعة" (٣) فجاء هو بخياله الشعرى المنقطع النظير الذى انطلق حرا يستوحي الطبيعة والحياة ويسلسل فيه المشاعر والخواطر ، واقام الرومانسية العربية على هذه الاس :

١ — نقل الشعر العربي الى مجال المواضيع الرومانسية الغربية .

٢— التجديد البياني باستخدام الالفاظ والتراكيب ، وفنون البيان من تشبيه واستعارة ومجاز على غير ما آلفه القدماء ، احيانا .

٣ — مراعاة وحدة القصيدة ، وانسجام اجزائها واتصال ابياتها .

ثم انضم الى خليل مطران في اتجاهه الرومانسي هذا شعراء كثر في سوريا ولبنان ، منهم عمر ابو ريشه وبشاره الخورى والياس ابو شبكه ، وفي مصر منهم عبد الرحمن شكرى واحمد زكي ابو شادى وابراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد وعلي محمود طه .

---

(١) البرناسية (Parnassism) مذهب ادبي ظهر في فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد تميز اصحابه بالعناية بتنظيم العاطفة وتصفية الاحساس من الاضطراب عبر الاستعانة بالعقل الواعي ثم بالاسلوب الوقور الهادئ .

(٢) المقتطف ج ٣ ص ٢٩٥ المجلد ٩٤ سنة ١٩٣٩

(٣) الدكتور اسماعيل احمد ادهم : المقتطف ص ٣٠٥ المجلد ٩٤ سنة ١٩٣٩

وفي المهجر جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه وامين الريحاني وشفيق المعلوف وايليا ابو ماضي ورشيد سليم الخوري "الشاعر القروي" . ثم انتقل الطابع الرومانسي الى القصة العربية الحديثة فبدا واضحا في مثل "زينب" للدكتور محمد حسين هيكل و "ابو علي عامل ارتست" لمحمود تيمور و "الصبي الاعرج" لتوفيق يوسف عواد و "عشر قصص" و "الاعدام" لخليل تقي الدين و "سيد قريش" لمعروف الارناووط .

واذا كان سليم فخوري قد مهد لخليل مطران الطريق بان خطا نحو الرومانسية خطوة نشيطة حين نصر الفن على الصنعة في الشعر ، فجاء خليل مطران وراش اجنحة الشعر ودله على آفاق جديدة . فان بشارة الخوري قد مهد لشاعرنا الياس ابو شبكة طريق المدرسة الرومانسية اللبنانية .

لقد تأثر بشاره الخوري بالادب الفرنسي . قرأ منه الكثير وعرب بعض ما قرأ وتأثر به فيما نظم حتى بلغ من تأثره به انه وصف بحفار القبور اشارة الى ما أخذه من الشعر الفرنسي وادعاه لنفسه . وكانت "عصبة العشرة" في رأس حملة النقد التي شنت عليه . (١)

ومهما يكن من امر هذا النقد ، فبشاره الخوري كان شاعرا بارزا ذا مزايا واضحة وروح ابتكارية . صرف نفسه عن اكثر مواضيع شعر القدماء ، واتسع بمواضيع شعره فانطلق به في مبادئ السياسة والاجتماع وارق القول في الغزل وابدعه في الوصف . وكان شعره الوجداني الناعم المعطر "ممهدا لمدرسة الياس ابي شبكة" (٢)

ومدرسة ابي شبكه هذه احدى مدرستين نشأتا في لبنان بعد الحرب العالمية الثانية واتضحت خصائصهما بين عامي ١٩٢٠ — ١٩٣٠ فكانتا مدرسة رومانسية ، ومدرسة رمزية كان الاتجاه اليها — في رأى انطون غطاس كرم "وليد انفعالين : ١ — رد فعل في وجه الرومنتيكية المائعة والادب العربي الصناعي ٢— والحاجة الى التعبير عن حياة جديدة" . (٣)

---

(١) صلاح لبكي : لبنان الشاعر ص ٨٩

(٢) انطون غطاس كرم : الرمزية والادب العربي الحديث ص ١٣٩

(٣) المصدر نفسه : ص ١٤٠

ولا يعني هذا ان الشعراء اللبنانيين بعد الحرب العالمية الثانية كانوا اما رومانسيين او رمزيين • فالحقيقة ان منهم من ظل تقليدي الشعر محافظا على مناهج القدماء خيرها وشرها • ومنهم من كان بين الرومانسية والرمزية كالشاعر يوسف غصوب • (١)

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٠

ابو شبكة في طريق الشعر

بدت بواكير شاعرية ابي شبكة منذ طفولته • وكان الياس فرزان (شقيق جدته ، والدة امه ، اول من تأثر بهم من الشعراء •

كان في العاشرة عندما لقنته امه قصيدة زجلية طويلة ، نظمها خالها فكانت كما يقول ابو شبكة "اول عهدي بالشعر • ولا اعلم اي فضل لها علي ، وكل ما اعلمه انني نظمت واحدة على منوالها ، كانت فاتحة عهدي بنظم القريض " ويقول ايضا " وفي احد الايام وقعت في البيت على كتاب يحتوي قصائد شعراء البلاد ، ومعظمهم من تلاميذ مدرسة الحكمة ، تهنئة للمطران الديس ، رحمه الله ، لدى عودته من روما ظافرا بعد تلك الوشاية السافلة ، وبين هذه القصائد واحدة بليغة للشاعر الياس فرزان • فحفظت هذه القصيدة في ذهني ، وصرت اتغنى بها • وكلما سئلت عن ناظمها اجبت " قصيدة تهنئة للمطران يوسف الديس ، نظم خالي الياس فرزان ، تلميذ مدرسة الحكمة • (١)

وكما تأثر ابو شبكة بخال امه ، تأثر ايضا بخاله خليل فارس غصن ، فقد كان هذا شاعرا هاجر الى بونس ايرس ليشفى من مرض الشعر كما ظن اهله ، ولكنه خيب الظنون ، وعاد من اميركا شاعرا ، كما كان ••

وكان ابو شبكة يقضي العطل الصيفية في بيته ، يتحدث اليه ، ويسمع منه الشعر • وقد سمعصرة يقول له : " الشعر لا يطعم خبزا ! (٢) ولكن ابا شبكة لم ينصرف عن حب الشعر ولم يكن قد فكر بعد ، في ان يطعمه الشعر خبزا •

وكأني بالخال وقد نصح ابن اخته ، فلم ينتصح ، قد احسّ انه قد تخلص من عبء ثقيل على كاهله ، وان عليه ، وقد رأى هذا الصبي مقبلا على الادب ، محبا للشعر ان يفسح له الطريق تنبثق فيه شاعريته ، ويتفتح فيه نبوغه •

---

(١) مجلة الحكمة • العدد ٢ • كانون الاول ١٩٥١ ص ١٩ • المكشوف العدد ١٨٤ سنة ١٩٣٩

(٢) المصدر السابق ص ٢٠

لم يكن خليل فارس غصن مؤمنا بنصيحته لابن اخته ، لان نهجه في الحياة قد كذبها اراد ، واريد له ، ان يكون رجل عمل فخاب .. "هكذا يقولون !" وعاد الى بلده الذى هجره ودياره التي ترك ، عاد ليجد في هذا الصبي صورة من صباه . وهي صورة يحبها ، ويعتز بها ، ولكنه يتذكر اراء اهله ، ونقد الناس . يتذكر انه "خاب" ، فينصح الصبي بترك الشعر لانه "لا يطعم خبزا" . ولكنه اذ يجد نصيحته تتبدد في الريح ، يطرب ويبتهج ويقبل على تلميذه يحدثه عن الشعر والشعراء ، بل انه ليقصر حديثه على هذا الموضوع الحبيب الى قلبه وقلب تلميذه .

وكان الخال مولعا بنظم الدوبيت ، فحفظ الياس منه اكثر من عشرين ، وكان اذا سئل عن ناظمها هتف مزهوا : "لخالي خليل تلميذ مدرسة الحكمة ، ابن اخت الياس فرزان تلميذ مدرسة الحكمة ايضا !" .

وقد انتبه الناس الى القرابتين بين ابي شبكه وخاليه ، قرابة من الخؤولة وقرابة من الشعر تشد بينهما الاواصر فكانوا اذا سمعوا شعر ابي شبكة او قرأوه قالوا "مخول على الخالين !" .

وابو شبكة اذ يتحدث عن خاليه واثرهما في تنبيه شاعريته او توجيهها في اولى مراحلها يعد نفسه تلميذا للمدرسة التي تتلمذ فيها الخالان ، فيقول : "الياس فرزان تلميذ مدرسة الحكمة ، وابن اخته خليل فارس غصن تلميذ مدرسة الحكمة . افتكون بدمي قرابة هذين الخالين ولا يكون فيه شيء من ثقافة هذه المدرسة . فأن لم اكن تلميذ اولئك الادباء ، حملة مشاعل النهضة الثقافية في هذا الشطر من الشرق العربي ، تلاميذ شيخة المعاهد العلمية تحت هذه السماء ، فتلميذ من اكون ؟" .

على انه لم يكن تلميذ خاليه وحدهما ، ولا ابن ثقافة مدرسة الحكمة وحدها . فقد كان له اساتذة كثيرون ، لم يرهم رأى العين ، ولكنه رآهم فيما قرأ من نتاجهم ، وكانت منابع ثقافته اوسع مما ذكر ، فهناك ثقافة العرب وادابهم ، والتوراة وشعرها ، والرومانسية واقطابها ، والثورة الفرنسية ومفاهيمها ،

لهذا حديث سأعود اليه .

---

(١) مجلة الحكمة الجزء ٢ كانون الاول سنة ١٩٥١ ص ٢٠

وفي سن مبكرة بدأ الياس ابو شبكة ينظم الشعر ، ويحاول ان ينشره في الصحف . يقول الاستاذ عبد الله لحود " وكان الياس ابو شبكه في نحو السابعة عشرة من عمره وكنت في نحو العشرين عندما ارسل لي اولى قصائده كي انقدها ، فنقدتها بقسوة . ثم ارسل لي الثانية والثالثة ، فكنت كلما قسوت في النقد بالغ هو في الشكر . وهذه ظاهرة قد يستغربها من يعرفون الياس وما طبع عليه من كبرياء (١) " .

ويؤيد هذا القول رسالة بعث بها الياس الى الاستاذ لحود في تلك الايام ، ومنها نتبين بدء محاولاته في نظم الشعر ، ونعرف عناوين اوائل منظوماته ، ونشعر بزهو الشاعرية فيه ممزوجا بالحاجة الى عون من اديب ، يهذب من منظومه ما شذ ، ويحكم من روابطه ما نفر .

والرسالة مهمة وطريفة . وهأنذا انقلها بنصها :

عن مدرسة عينطوره في ٢٠ ت الثاني ١٩٢٠

حضرة الاديب عبد الله افندى لحود المحترم

اكتب اليك دون معرفة شخصية توجب اهداء تحياتي لشخصك الكريم ، ولكني على ثقة من ان هذه الفاتحة تكون اول عهد للمعرفة الحديثة التي ستعقد بيننا . .

لقد اخبرني الصديق الحكيم روفايل (٢) انه بعث اليك بالقصيدة التي مطلعها " يالحاظا الى الحبيب رسائل " فارجعتها له مدبجة بعبارات رقيقة والفاظ رشيقة سترت ما بها من الخلل والذلات (٣) والبستها ثوبا من البديع والبيان جعلها تستحق ان ترفع رأسها بين اخواتها الجميلات . فالقصيدة هذه حركت قلمي الضعيف لان يكتب اليك شاكرا حصن الطافك وممتنا لشخصك الذى اصبح عزيزا (٤) عندى وعند كل اديب . ثم لقد نظمت حديثا قصيدة "الارادة "

---

(١) دراسات وذكريات ص ٤٣

(٢) روفايل لحود نسيب عبد الله ، واحد رفاق الياس ابو شبكة في المدرسة .

(٣) كذا في الاصل ، يريد الزلات .

(٤) كذا في الاصل (يريد عزيزا)

وتلوتها في المرسح حيث مثلها رواية "الخداع والحب" منذ شهر تقريبا . فحلت محل القبول وقوطعت بالتصفيق والهتاف مرارا ، ولكنها مع رشاقة عباراتها لم تزل ظمآنة لان تلفت اليها نظرة من طرف نظراتك حتى تجعلها اهلا لان ترفع رأسها بين سائر اخواتها .

فلذلك ارجوك ان تتلطف بتصليح ما بها من الخلل وترجعها الي من قريب حتى اتمكن من نشرها في جريدة من الجرائد ، ولك الفضل العميم في ذلك .

صديقك الحديث

الياس يوسف ابي شبكه

تكرم بأن ترسل المكتوب الى الزوق (٢) ميكايل

الياس يوسف ابي شبكة زوق ميكايل ، لبنان ، من طريق جونيه (٣)

واستمر الياس ابو شبكة ينظم الشعر ، وعرف طريقه الى اكثر من صحيفة ينشر فيها نتاج قريحته الناشطة المحمومة .

في سنة ١٩٢٣ نجده يتخذ من جريدة "البيان" (٣) المصورة معرضا لشعره ، بل انه شرع ينشر شعره في سواها ايضا فكان لا يمر اسبوع الا وله قصيدة او اثنتان في الصحف .

وكان مما نظمه يومذاك ونشره في "البيان" قصائده الثلاث الموسومة بالدمعات الثلاث (٤)

وفي سنة ١٩٢٤ نجده يبعث باربع من قصائده الى مجلة "مينرفا" الادبية التي كانت تصدرها الاديبة مارى يني ، فتنشرها المجلة بالتتابع . والقصائد هي :

---

(١) كذا في الاصل (~~صيدة خريدة~~)

(٢) دراسات وذكريات ص ١٧٦ — ١٧٧

(٣) كان يصدرها بطرس البستاني في بيروت .

(٤) بطرس البستاني : دراسات وذكريات ص ١٦ والقصائد المنشورة في "القيثارة" ص ١١٩

"الحسون السجين " (١) و " الشبل الرابض" (٢) و " فوق المقبرة " (٣) و "المجدلية والمسيح " (٤) .

ومن الذين كان لهم فضل تشجيع ابي شبكة في اول نشأته الشعرية ، الشاعر المحامي امين تقي الدين ، وقد تعرف به ابو شبكة سنة ١٩٢٢ حين قصده مستشيرا في قضية قانونية ، ثم توثقت بينهما الصلات فصار ابو شبكة يتردد عليه كثيرا ، ويقرأ على مسامعه ما كان ينظمه من شعر فلا يلقى الا الاهتمام والتشجيع . وقد كان لهذا اللطف في نفس ابي شبكة اثر واضح ، تحدث عنه فقال انه "بوحي هذا التشجيع كبر في عيني نفسه وصار له بعض الثقة في شعره" (٥) .

---

(١) مينرفا ج ١ ص ١٧ نيسان ١٩٢٤ . القصيدة منشورة في "القيثارة " ص ١٠٤ .

(٢) مينرفا ج ٣ ص ١١٦ حزيران ١٩٢٤ . القصيدة منشورة في "القيثارة " ص ٦٣ .

(٣) مينرفا ج ٦ ص ٢٧٧ ايلول ١٩٢٤ . القصيدة منشورة في القيثارة ص ٩٣ .

(٤) مينرفا ج ٩ و ١٠ ص ٤٤ كانون الاول ١٩٢٤ . القصيدة منصورة في القيثارة ص ١٠٠

(٥) العاصفة : العدد ١٠٥ ص ٤ سنة ١٩٣٧

صـــراع

بين الواقـــــع والمثـــــال

.....

تحدث شاتوبريان في مقدمة كتابه " رني " عن حالة نفسية ذات ثلاثة اطوار ، اولها تلهف القوى الروحية الى مندفق او منطلق . وثانيها الشعور بوجود صعاب وعقبات تعترض المسير ، وثالثها اليأس والكآبة .

ومرد الطور الثالث الى الاعتقاد بان هذه القوى الموثقة بالقيود الشائعة الى الانعتاق لن تعود على صاحبها بما يرضيه ويهدئ لهفته حتى ان ظفرت بحريتها ورادت الافاق التي حلمت بها ، لان القلب يعلم وهو يرغب في الشيء ان لا شيء يستحق الرغبة !

واننا لنجد مصداق هذه النظرية في حال ابي شبكة النفسية التي يعبر عنها في قيثارته :

ها هوذا يتحدث ، بحزن ويأس ، عن رغبته في النهوض والسير ، وعن العوائق التي تقف دونه ، وتعترض سبيله :

بلوت الحياة فما من انيس ... يواسي همومي وما من صديق
تقول لي : انهض واما رأتني ... مجدا تقف عثرة في طريقي[1]

وها هوذا يتحدث عن يأسه من بلوغ الراحة ، لانه لن يظفر بها ما دام عنده قلب ، وحب ، وما دام حيا :

انزعوا مني قلبي ... رحمة ، كي استريح
فانا ما زال حبي ... ناميا ابقى جريح[2]

---

(١) القيثارة ص ٦١
(٢) القيثارة ص ٨٨

ويقوده الحزن واليأس الى حب الموت ، وتحبيبه للهائمين في فلاة الحياة ، المتألمين منها ، الذارفين الدموع فيقول :

ايها الهائم في هذى الحياة اين تنوي اين
دائما الفاك[1] تذرى العبرات كاسر الطرفين
امسح الدمع فلا تروى الحياة دمعة العينين !
اهجر الكون فمصباح الوجود ليس فيه زيت
واطلب الانوار في مأوى الخلود في قصور الموت[2]

يقول شاتوبريان في تتمة نظريته ان هذا الحال النفسية القلقة التائقة الى الحرية ، اليائسة من بلوغها مرحلة تسبق عصور التطور ، وتؤذن باقبال عصر الاشواق الكبيرة يوم تنشط القرائح وتتدفق ، وتثور الملكات وتتألق .

والحق انها كانت بالنسبة لابي شبكة بشيرا بعهد اشواقه الكبيرة مع "غلوائه" ، "وافاعي فردوسه" ، وفي "نداء قلبه" ، و"الحانه" وفي حبه الخالد "الى الابد" .

٥

هذه الحالة النفسية التي تحدث عنها شاتوبريان نتاج صراع خطير الشأن ، يلقي الضوء على منبع هام من منابع الرومانسية ويفسر لنا في كثير من الدقة معاني الحان "القيثارة" انه الصراع بين الواقع والمثال . وهو صراع كانت نفس ابي شبكة ميدانا فسيحا له وكان مدعاة كثير من شقائه وعذابه .

لقد سأل ابو شبكة نفسه يوما هذا السؤال : لماذا يشقى الاديب ؟ ورد عليه بما يشير الى هذا الصراع العنيف المجهد . قال : "لانه يحاول ان يخلق حياة غير

---

(١) الصواب "ألفيك" وهو مضارع "الفى" .
(٢) القيثارة - ص ٨٨

الحياة التي يعيشها ،حياة اصطناعية خيالية ، حياة رؤى واحلام وجمال ، وحياة حب ورحمة وغفران • ولكن هذه الحياة لا تخلق بسوى عناصر الحياة العادية فيلتفت فيرى الخبث والرياء والبغض والحقد والنميمة والزلفى والجهل وكل ما في الحياة من السحن البشعة الممقوتة ! ولكن هذه السحن لا تخيفه ولا تقتظه بل يستمر معها في صراع اليم ...»(١)

وابو شبكة ، في قيثارته ،مثل صادق لهذا الصراع ، فهو يعيش في بلد شرير ، قاسي القلب ، متجهم الوجه ، من رذائله الكثيرة الظلم والفجور والخداع والحطة • فهو اذن غاضب ناقم يصرخ بكبرياء وتحد :

ايها الظلم والخنا والغرور ... يا خداعا تعف عنه الشرور
يا كنودا ويا محاباة قومي ... يا صدورا يدب فيها النفور
يا خصاما ،يا منكرات بلادى ... يا رياء ،يا حطة ، يا فجور
اقربي ما استطعت من كبرنفسي ... انا صدرى رحب وقلبي كبير
لي نفس كالبحر ذات اتساع ... فلباب يلقى بها وقشور
تبصق الرجس في عفاف وطهر ... واللآلي تبقى بها فتغور
لا يغرنك انني مستكن ... فالى ثورة سكوتي يشير

.....

يا بلادى كفاك هزءا بنفسي ... ان نفسي حسامك المطرور
لا تقولي قد احرقتها البلايا ... كل نفس لم تحترق لا تنير(٢)

---

(١) مجلة الحكمة : العدد ١٢ سنة ١٩٥٤ • من كلمة عنوانها "حياة الاديب" رثى بها الشيخ احمد تقي الدين ،والقاها في نادى الحكمة في ١٩ ايار سنة ١٩٣٥ •

(٢) القيثارة ص٦٠ (كتب الشاعر البيتين الاخيرين على صورته التي تتصدر "القيثارة")

ولكن ما صنيعه وانى له ادراك امانيه ، وفي البلد حساد تملأ الضغائن قلوبهم ، فيقفون امام سعيه وقوف السد ويوصدون من دونه ابواب المجد :

خففت الى اوج العلى بمقاصدى ... فارجعني صفر اليدين حواسدى
وكم في ربى لبنان من ذى مكيدة ... وما رائد الحساد غير الكائد (١)

انه ليألم ، وينقم ، ثم يزيده الما ونقمة ، ان يرى الناس خانعين مستسلمين لحز القيد ، خاضعين لدولة الظلم ، فيتحدث عنهم مستثيرا وعن مستعبديهم ثائرا ، ناقما ، شاتما .

رأيت هنا رهطا من الناس آثروا ... يد الظلم ان تعلو وتفتك بالعدل
رأيتهم والقيد حول رقابهم ... وايديهم مشدودة الربط بالغل
يقودهم من سافل الخلق زمرة ... تحاول نفث السم فيهم كالصل
تبث من الاغراض فيهم مبادئا ... اشد بجسم الاجتماع من السل
تريدهم عميا عن النور ، والدجى ... يخيم فوق الحق سدلا على سدل (٢)

وهو يعجب من فعلة هؤلاء المستبدين الذين يخونون اماناتهم ، ويؤذون البلد الذى هم ابناؤه وشعاع عيونه ، وموضع آماله ، فيقول :

لي موطن عاثت به اولاده ... فبكت حشاشته على اولاده
يحيا ، امام عيونه جلاده ... ويموت لاثم قبضتي جلاده
نظاره وهم شعاع عيونه ... يتطوعون اليوم لاستعباده (٣)

---

(١) القيثارة ص ٩٧
(٢) القيثارة ص ٣٠٣
(٣) القيثارة ص ٩

ثم يدعو نفسه الى مكافحتهم ، بلا هوادة وبدون كلل ، فيقول بلسان فتاة شكا اليها ما يلقاه في بلاده ، ولعل هذه الفتاة " غلواء "

فقالت كن الحق المحرر في الورى ودع حشرات الارض تزحف في الوحل
فما انت ممن يثبط الهم سعيه وثابر على كشف الظلام بلا مطل[١]

وينطلق بعد هذا ، لمن الواقع المر الذى يشعر بقوة سيادته ، الى افق مثالي ، بتمجيده المفاهيم المثالية ، فيصف "الحرية " وصف العاشق المتيم ، ثم يراها متجسمة في كعاب هي ابنة البستيل والثورة الفرنسية .

الست ابنة البستيل يوم خربته وشيدت برج العدل فوق الخرائب[٢]

ويروح ابو شبكة بعد ان راعه حاضر بلاده ، ينظر الى ماضيها لعله يسكن في آفاقه انفاسه الثائرة ، ويستمد منه الامل بمستقبل افضل واكمل .

والماضي الذى ينظر اليه قديم موغل في اعماق التاريخ ، بينه وبين الحاضر هوة سحيقة من الدهر ، انه لبنان الانبياء والاقدمين :

لبنان كان ببأسه اسدا له الاجيال ظفر
فاذا دهته صواعق الايام رعبا تقشعر
فعليه مرّ الانبيا والاقدمون عليه مروا
فسماؤه الوحي الصحيح وتربة مجد وفخر[٣]

---

(١) القيثارة ص ٣٤
(٢) القيثارة ص ٣٢
(٣) القيثارة ص ٣٠ راجع ايضا ص٧

يلوذ ابو شبكة بمثله العليا ، ولكنه يشعر بالخيبة فما هو بمستطيع ان يرفع العالم الى مستواها وما هو براض لها ان تنحدر الى مستوى العالم ، فهي تظل احلاما في الفضاء ، يضمها قلبه وخياله ولا تقبض عليها يداه .

وينظر حوله الى الطبيعة الفاتنة يرى الربى المخصبة والوادى المهيب والمراعي الخضراء ، ويسمع حفيف الاغصان وخفق الرياح وخرير المياه وغناء الطيور ، ويستنشق عطر الزهور ورائحة الحياة الغضة المتوثبة .

وتعجبه هذه الطبيعة الجميلة الخيرة ، ويطرق سمعه قول لامرتين الشاعر الذى احبه كثيرا : — "الطبيعة هناك ، انها تدعوك وتحبك ، وانك لواجد فيها من حسن الفهم وطيب الصحبة ما اخفقت في الحصول عليه في المجتمع"(١) فيقرر اللجوء اليها فرارا من المجتمع الفاسد الشرير ، الذى يشعره بانه وحيد فيه ، منفصل عنه ، ضيق به كل الضيق ..

ففي الطبيعة يجد العدل :

لو هم يعلمون ماذا يقاسي عاشق يستجير في لبنانه
لو دروا ان في الطبيعة عدلا قطع الظلم كفتي ميزانه
لاستباحوا كفرانه واستحلوا ان يظل الحزين في كفرانه(٢)

بل ان المثل العليا تتجسم في اجزاء هذه الطبيعة . "فالفضيلة " زهرة بيضاء في عوسج الورى ونجمة زهراء في حدق الدجى يسامرها شقيقها بدر العفاف (٣) . و " الحرية " نسائم كانت تهزّ مهده صغيرا ، وزهرة تقطرها الانداء في المغارب ، وبدر منور في السماء يطل على الدنيا .(٤)

---

(١) I. Babbit: Rosseau and Romanticism P. 217
(٢) القيثارة ص ١٦
(٣) القيثارة ص ٧٣
(٤) القيثارة ص ٣٢

والطبيعة عند ابي شبكة ، تمتزج احيانا بالاحاسيس الدينية ، فينسكب في قلبه من هذه ومن تلك هدوء وطمأنينة . في " اغنية المغيب "(١) يهتف بنفسه ، وقد غابت الشمس : ان اسجدى لله ، واستريحي من عناء الفكر الرهيب . ثم يريها الطبيعة بساجية مواسية . انه لا يعرض عليها من الطبيعة صورا براقة خلابة بل يتخير من صورها ما ينسجم مع المساء الوديع الذى لا تبخل حتى احزانه ، بالمن والسلوى على اهل الكآبة من المحبين والشعراء والثقيلي الاحمال ..

على انه ما من ملجأ لابي شبكة كان اوسع مدى وارحب جوا من الحب ، حب الرجل للمرأة .

ولقد وجد ابو شبكة المرأة التي يجد في حبها الراحة من هذا المجتمع " المعادى " فراح يهتف بها ان تنطلق معه بعيدا ، عن دنيا الناس الحافلة بالظلم والمكر ،

تعالي فتاة الحب نجتنب الريا فقد ساد في الدنيا ريا الظلم والمكر
تعالى ففي عينيك طيف سعادتي يرافق سيرى في حياتي الى القبر(٢)

الى اين يدعو ابو شبكة فتاته ؟

انها لرحلة طويلة ، لم يقم بها غير الشعراء من قبل .. سيصعدان " " ابراج الكواكب في الفجر " و " يحلقان في جو الخيال مع النسر " وهناك ستقطر الملائك كلها في جفني الحبية قارورة السحر (٣) ، مكافأة لها على صبرها وتمجيدا لها . فيما اظن .

انه الحب الرومانسي بكل عنفه وشدته ، وبكل اضطرابه وجيشانه ، وبكل تناقضه وحيرته .

---

(١) القيثارة ص ٥٠
(٢) = ص ٩١
(٣) = ص ٩٢

هو حب امرأة يتمثلها الشاعر في وهمه وخياله جنية من جنيات الاساطير وحورية من حوريات البحار ، ثم يظن انه وجدها في امراة من لحم ودم ، ولكن سرعان ما يصطدم الخيال بالحقيقة ، وتصطرع في قلب الشاعر العواصف فاذا هو مقبل مدبر، وراض ساخط ، ومتفائل متشائم ،وفي تردد الشاعر بين هذه الحال وتلك ، وهذا الموقف وذاك يكمن العذاب ، ويطول امده ، حتى يغدو لشدة الفة القلب له رفيقا مستطاب الرفقة .

هكذا كان حب ابي شبكة .

تراه حينا هادئا ينساب عذبا كماء جدول رقراق . " اولغا "[1] فيه موحية شعر ،ونبع هوى ، وخمرة انتشاء :

يا اولغا مرّ الصفا عابرا	كل صفاء في الورى يعبر
وفي فؤادي ادمع كلما	فاضت ففي آهاته تعثر
يا جوذرا ما "مي" في كلما	انظم الا انت يا جوذ ر
انت التي اوحيت شعري فلا	اجحد ما توحي ولا انكر
في عينك النجلاء سر الهوى	وفي لماك العذب ما يسكر[2]

ثم نراه بعد حين حبا من طراز غريب ،في دنيا الناس العاديين . فها هوذا الشاعر يبلغ به عشقه ايما مبلغ فيود ان تكون معشوقته ميتة جاحظة المقلتين ، نائمة في ترب الضريح نومتها الابدية :

---

(١) الفتاة التي احبها الشاعر ، ثم تزوجها بعد تسع سنين من حب عميق عنيف .

(٢) القيثاره ص ٦٨

اودك جاحظة المقلتين وطيف الحمام على كل خد
اودك غائبة في ضريح تنامين في تربه للابد
ولا تعذ ليني على ما وددت ففي ذمة الحب ما قد اود (١)

لماذا يود ذلك ؟

الجواب : لانه يحبها ! ـ وفي ذمة الحب ما قد يود ..

ولانه ، بعد هذا ،عاشق اناني طاغي الانانية ، جريء في الافصاح عنها :

اودك في قبضة الموت صرعى لان حياتك تقضي علي
وموتك يا مي عذب لدىّ فبالرغم يلقيك بين يدى
واذ ذاك اقضي سعيد الاني اكون وصلت الى قلب مي (٢)

ونراه حينا آخر حملا ثقيلا على فؤاد ضعيف لا يكاد يقوى على تحمله ، ويحس الشاعر بدبيب الموت اليه فيتلقاه بهدوء واستسلام :

دعيني اندب كالثاكل فلست سوى عاشق راحل
حملت الهوى في فؤادى الضعيف
فاثقل حمل الهوى كاهلي (٣)

ولا يغفل ابو شبكة ، وقد خبر الحب وعرف اهواله ،عن ان يجود على طلاب الهوى بنصيحته :

يا من ترى الدنيا بثغر فتاة اياك ان تمشي على خطواتي

---

(١) القيثارة ص ٣٩
(٢) القيثارة ص ٤٠
(٣) القيثارة ص ٧٨

اياك اسياف الردى مسلوله وقلوب اصحاب الهوى مقتوله
انظر الى حالي وخد امثوله او ما ضللت على طريق حياتي (١)

كان الحب عند ابي شبكه مزيجا من السعادة والعذاب ، وكان حظه من العذاب اوفى واتم ، ولكنه مع هذا ظل مرتبطا بهذا الحب حريصا على التعلق بكل ازاهيره واشواكه . وظل يغدى الحبيبة القاسية النافرة بروحه :

بروحي من مضني ونفر له مقلة علمتني السهر
اذا ما نظرت الى وجهه رأيت على كل خد قمر
.....
ملاك ، وهل بعد ذلك ريب بان فؤاد الملاك حجر؟ (٢)

بل انه اراد ان يدوم هذا الارتباط وهذا التعلق حتى بعد موته . فها هوذا في "اغنية الموت" يوصي حبيبته بان تنساه بعد مماته ، فان ذكرته ، وهذا ما يريده حقا ـ فلتقصد قبره في ظلال السكون ، وتنقر على قيثار وحيه لتسمع اناته وزفراته :

اسمعيني لحن الردى اسمعيني فحياتي على شفار المنون
....
لك عندى وصية فاحفظيها هي بعد الممات ان تنسيني (٣)
واذا هزك التذكر بالرغم وشاء الوداد ان تذكريني
فخذى في الظلام قيثار وحيي واقصدى القبر في ظلال السكون
وانقرى نقرة عليه يسمّعك انينا كزفرتي ، وانيني (٤)

---

(١) القيثارة ص ٨٠
(٢) القيثارة ص ١٢٢
(٣) الصواب (تنسيني) بفتح السين . لان الفعل الناقص اذا اتصل بواو الجماعة او ياء المخاطبة حرك ما قبل الضمير بحركة مجانسة له ، الا اذا كان مفتوحا فيبقى على ما هو
(٤) القيثاره ص ١٢٣

وهـذه القصـيدة تـذكرني قصـيدة للشـاعر الانجليزى الكبير شـكسـبير عنوانها " ظفر الموت " . فالشـاعران تشـابها في ان كلا منهما اوصى حبيبته بان تنساه اذا مات ، ولكـن شـكسبير كان اشـد تأكيـدا على "الوصـية " ، واوضح لهجـة .

وها هي ذى قصـيدة شـكسبير كما ترجمتها الى العربية ، ادونها هنا فقـد يهم اهـل "الادب المقـارن " امرها وامـر قصـيدة ابي شـبكة :

" ظفـر الموت "

لا تطيلي النواح يوم اموت ، بعد ما تسـمعين الجرس المنكود ينبئ العالـم اني انطلقت من هذا العالم الدنئ لاقـيم مع ادنأ الحشـرات .

واذا ما قرأت هذه السـطور فلا تـذكرى اليـد التي خطـتها لاني ساظل اهواك هـذا الهوى اذا ما اقصـيتني عن افكارك العـذبة . فان تذكرتـني كنـت خصما لي .

واذا تطلعت الى هذا الشـعر يوم اكون فانيا ممتزجا بالطين فلا تردد يه شجية محزونة . ولكن اتركيـه وليفن حبك مع فنائي ، لانـني اخشـى ان يراك العالم تئنـين فيسـخر بك بعد رحيلي .. "

وكما اضطـربت صورة الحـب بين الصحو والغمام والفرح والكآبـة اضطربت كذلك صورة الحبيبة .

فهي حينا حسـناء توحي الشعر ، وتناجي بالعيون ، وتمنـح القبـل ، وتضم بين جنبيها هوى طاهرا (١) .

وعاشـقة جليلة القـدر في العاشـقين ، تبين في الليـل بـدرا وفي النهـار شـمسـا .(٢)

---

(١) القيشـارة ص ٦٨
(٢) القيشـارة ص ٧٧

وهي حينا اخر مستبدة متحجرة القلب ، تظلم محبها اى ظلم وتدوسه وهو الهزيل المدنف بنعالها (١) ،

ولكن لجوء ابي شبكة الى المبادىء المثالية التي يؤمن بها ويأمل تحقيقها في بيئته ثم الى الماضي ، والى الطبيعة ، والى الحب لا يخلصه من قبضة الواقع الذى يتجسم شره ويزداد قبحه كلما اوغل الشاعر مع خياله ، وانساق في آفاق احلامه ومثله . لقد عاد من تطوافه الطويل متعبا مجهد الانفاس تصفر الريح في قلبه الحالم المعذب .

ترى ماذا يصنع ؟ كيف ينجو من هذا البلد الذى يملأ قلبه كآبة ، ونفسه ثورة ، وعينيه دموعا ؟ .

الهجرة ! انها سبيل النجاة ، طرقه في قلبه الكثيرون وما زال غيرهم يطرقونه . انه حل عملي ناجح لهذه المشكلة التي تقلقه ، حل عملي مؤيد برضى الاهل والاصحاب .

هم نصحوه بالهجرة ، وزينوا له ان تكون مصر مهجره :

قالوا وقد بصروا بدمعي ... من خدودى يستدر
ارحل لمصر فقلت في ... نفسي لهم للـه مصر
سابين عن وطني ففي ... وطني ثعالب وهي كثر

وقد اقتنع بالنصيحة ، ولكنه ما زال يحب وطنه ويعز عليه ان يفارقه ، فيقول :

ساهجر الاوطان لا كارها ... لكن لاسباب دعت اهجر
رجالها مأسورة جلها ... كأنها الالة تستأجر

---

(١) القيثارة ص ١٢١ راجع ايضا قصيدته " رسالة الى الاستاذ فليكس فارس " ص ١٣٠
(٢) = ص ٣٠

في ارض زغلول سامسي غدا هل يا ترى يصفولي المعشر
انا اسير في بلادى فهل في مصر افكار الفتى توءسر(١)

هذه الرغبة في الهجرة الى مصر ، هي في ظاهرها رغبة يمكن ردها الى الدوافع العامة التي الجأت اللبنانيين الى الاغتراب في مصر والاميركتين وافريقيا وغير هذه من البلدان والقارات ، وهي دوافع تنبع من السياسة والاقتصاد والاجتماع. كان لبنان قد تحمل في الحرب العالمية الاولى شظف العيش ومرارته وعرف لؤم الجوع ، واضطراب الموازين واستشراء الفساد فنفر الى الهجرة من ابنائه جموع وجموع وفقوا بمواهبهم وعزائمهم الى الظفر بالثراء الواسع والمنزلة السامية ، وكان هذا الظفر حافزا للمقيمين ، على اقتفاء آثارهم والضرب في شعاب الارض .

. ولكن هذه الرغبة عند شاعرنا تشير الى ظاهرة شعرية ، واضحة عند الشعراء الرومانسيين ، من الفرنسيين وغيرهم .

ليست مصر - عند شاعرنا - ارض الميعاد . انه يأئس من بلده وهذا اليأس يدفعه للبحث عن بلد ثان ، عن مصر اوغير مصر .

بل قل انه يائس من عالمه الواقعي يود الفرار الى عالمه المثالي الذى يحيا وضيئا في خياله الناشط .

اقرأ قصيدته " بعيداً عن هذا العالم " تجد مصداق هذا القول .

ها هوذا في يأسه من لبنان يذكر دمشق ويحدث نفسه باللياذ بها ، فلا يسمع من نفسه كلاما(٢) . ثم يذكر الاستانة . ومصر بعدها . ولكن النفس تظل صامتة لا تجيب(٣) .

---

(١) القيثارة ص ٧٠
(٢) القيثارة ص ٧١
(٣) المصدر نفسه

وهنا يقترح ابو شبكة على نفسه ان يسكنا معا القطب !
فترد عليه النفس بعد طول الصمت :

اذ ذاك نادت بصدى النفس قائلة " ايا سكنت تجد حكما لارضائي
بشرط ان تنثني عن عالم كثرت فيه الحزازات من ظلم وبغضاء " (١)

ترى اين يكون هذا العالم الجديد الذى كثرت فيه الحزازات من ظلم وبغضاء ؟ اليس هو يوتوبيا يحلم بها الشاعر ؟ واقول يحلم لانه لا يعمد الى رسمها على اساس واقعي الاجزاء والتفاصيل ، كما فعل من قبله توماس مور (Thomas More) في كتابه " يوتوبيا " (Utopia) وصموئيل بتلر (Samuel Buttler) في كتابه " ارون " (Erehwon) ووليم موريس (William Morris) في كتابه " ابناء الارض التي لا وجود لها " و هـ . ج . ويلز (H.G. Wells) في كتابه " يوتوبيا حديثة "

انها " يوتوبيا " الرومانسيين التي تحدث عنها الناقد ارفنج بابت (Irving Babbit) فقال ان الرومانسيين اعتقدوا انه من الممكن ان يكون العالم كما يجب ان يكون ، لذلك نظروا الى العالم كما هو ، نظرة احتقار ونقمة وحزن فقد كان هذا العالم مليئا بالرذائل والمفاسد (٢)

وتحدث عنها ، باعجاب ، الناقد ارنست برنباوم فقال عن الرومانسيين : انهم ارادوا العالم حرا ، سلميا ، جميلا ، انسانيا . ورأوا ان العالم بقيادة مثالية في ماضي الزمان ، قد احرز تقدما نحو الحضارة وتحسين السلوك البشرى ، وان يكن هذا التقدم بطيئا . وانه من المستطاع جعل هذا التقدم اسرع في المستقبل (٣) .

---

(١) القيثارة ص ٧٢
(٢) Rosseau and Romanticism P. 249
(٣) Anthology of Romanticism P. 28

"القيثارة"

القيثـــارة

في سنة ١٩٢٦ اصدر ابو شبكة "القيثارة" اولى مجموعاته الشعرية ، وكان يومذاك في الثانية والعشرين من عمره . وقد تضمنت هذه المجموعة ، على حداثة عهد صاحبها بالقريض ، شعرا كثيرا ينوف عدد قصائده ومقطوعاته على الثمانين .

وقد صدر الشاعر مجموعته هذه بكلمة رفعها بها الى روح والده ، فقال :

ارفعها قيثارتي هذه الى روح والدي .

يا ابي ،

لقد فتكت بك يد اثيمة في بلاد الغربة بعيدا عن زوجك وصغارك فخلفت اليأس في صدر امي والالم في قلبي .

كنت في العاشرة من عمري يوم توارى وجهك اللطيف الى الابد ، وكنت لا ازال ادفأ بين جناحيك ، وها انا اليوم في الثانية والعشرين ، في عهد الشباب ، في عهد الجهاد والالم !

افتش في بلادي فلا اجد لي نصيرا ، ولا اجد من يدرك مبادئ نفسي وما طبعت عليه الا فئة قليلة هي مثلي في آلامها وبلاياها !

يا ابي ، لقد توالت الايام العديدة وهي اشد سوادا من ظلمة قبرك ، وانا ثابت في مبادئي كالارزة في وجه العاصفة ، اود شكاة فلا اجد من يصغي الي غير روحك المرفرفة فوق رأسي !

ما هذه الجراحات التي ارفعها اليك الان سوى افواه الالم صارخة من عمق اعماق نفسي !

هذه هي "القيثارة" التي وقعت عليها في طريقي الوعرة اناشيد قلبي ! فعلى كل وتر من اوتارها اثار دماء ، وعلى كل قطعة من اخشابها جفاف دموع !

فاذا رأيت دمائي زكية ودموعي طاهرة فابق قيثارتي في عالم الخلود ، والا فحطمها على رأسي وغلل باوتارها نفسي !

اليـاس

من هذا "الاهداء" نستطيع ان نلمس مواطن الجرح العميق الذى سكن قلب الشاعر . الجرح الذى ظل ، حتى بعد سلوان الشاعر اباه ، غرضا لسهام الدهر تنوشه من هنا وهناك ، فما برئ وما استراح !

فقد ابو شبكة اباه الذى كان يغترف من نبع ابوته الحنان وهو ما يزال طفلا فكان الاثر في نفسه عميقا بعيد الغور ، وكان لهذا الاثر ، بعد ، اصداء واصداء ، فقد ساءت حال الاسرة وضاق نطاق رفاهها وعرف الشاعر الذى ولد غنيا معنى الحاجة الى المال ، ولكنه كأى شاعر شاعر ، لم يتهاو ، ولم يحن رأسه . كان رد الفعل في نفسه اباء متحديا وثباتا هو "ثبات الارزة في وجه العاصفة" .

لقد خلف فقد الاب الحنون في نفس ابي شبكة ، بل في شاعريته اثرين عميقين ، كان اولهما وهو الحزن منبعا لثانيهما وهو الاباء . ومن خلال الحزن والاباء انساق ابو شبكة في تيار الرومانسية ثم كان علمها الخفاق في الشعر اللبناني الحديث ، ان لم يكن في كل الشعر العربي المعاصر .

للقيثـــــارة شـــــأن خطيـــــر

كثيرون جدا هم الذين تحدثوا عن ابي شبكة وخصوه بالبحث والدراسة، وكثيرون جدا هم الذين تناولوا شعره بالنقد والتحليل . ولكن الذين نظروا الى "القيثترة" باكورة نتاجه الشعرى او وقفوا عندها يتسمعون انغامها، على ما فيها من اضطراب وحدة، قليلون كل القلة .

وهذه ظاهرة ان اغتفرها النقد الادبي للمتذوقين الذين لهم ان يختاروا من الشعر ما ارادوا تذوقه، والعيش في تجاربه، فما هو بمغتفرها لاهل النقد والدراسات الادبية .

ربما كانت ندرة نسخ "القيثارة" سببا في قلة حظها من اهتمام هؤلاء الناقدين والدارسين ولكنه سبب لا يستطيع ان يقف وحده مفسرا اهمالهم "القيثارة" .

هناك — كما ارى — سبب ثان اقوى وارسى . ذاك هو ان هؤلاء الباحثين ما انصرفوا عن "القيثارة" الا لانها نتاج شاب مقرزم يقرض الشعر وهو دون الثانية والعشرين ، فلا يبالي في اندفاعه الحماسي ، ودفقه العاطفي ان تضطرب عنده الصور الشعرية وتتناقض اجزاؤها او ان يقصر التعبير عن التجربة او ان يختلط الشعر بالنثر او ان يشذ عن قاعدة نحوية واخت لها صرفية .

لقد تركوا "القيثارة" وراءهم معلقة على الجدار وراحوا يفتشون عن موسيقى اخرى احفل بالفن والتناغم .

ولكنهم كانوا مخطئين، فلهذه القيثارة المعلقة على الجدار شأن هام عند من يريد دراسة شعر ابي شبكة واستكناه بذور شاعريته .

ان لها شأنا خطيرا يدعوني الى انزالها من جدارها ونفض الغبار عنها ثم الاصغاء الى الحانها .

يتطور الشاعر المبدع كثيرا في حياته الشعرية ، فيمر بمراحل متعددة تتكامل فيها شاعريته وتتوافر اسبابها ومقوماتها . ففي كل يوم يعيشه ينضاف الى شخصيته شيء او اشياء ، فتزداد خبرته وعلمه وتعمق احاسيسه وتجاربه ويبدو اثر كل ذلك في شعره فاذا هو ـ في الغالب الاعم ـ متناغم بعد اضطراب ، عميق بعد سطحيته ، واذا بالشاعر ـ كما اراد افلاطون ـ يقود عربة الشعر بمهارة فلا يجمح جواد العاطفة ، ولا ينكص جواد العقل .

ان الشاعر المبدع ليتحول في اخرى مراحل تطوره الشعري في طريق الكمال الى انسان عجيب ، يحس بعاطفته وعقله ، ويفكر بعقله وعاطفته . فتجد فيه وهو الانسان الخيالي الحالم ـ او هكذا يظنونه ـ فيلسوفا عميق النظرة ، واسع الاجواء . وليس من قبيل الصدفة ان تستحيل الفلسفة عند كثيرين من الفلاسفة ، بعد امعانهم في التفكير المجرد وانطلاقهم الجريء وراء الحقيقة ، الى شعر . الم تستحل كذلك عند طائفة من فلاسفة الغرب والشرق ، قديما وحديثا ، منهم الصوفية ؟

انها لظاهرة تقول ان الانسان يلاقي اى انسان آخر في اعماق انسانيتهما . وسواء ان يسير هذا في طريق الشعر او يسير ذاك في طريق الفلسفة .

نعم ، ان الشاعر يتطور كثيرا ، ويبتعد حاضره عن ماضيه ، ومستقبله عن حاضره ، وقد يوغل في النأي عن شعر صباه . ولكن البناء السامق من فنه الشعري يبقى متصلا بالقاعدة التي عليها قام ورسا وربما ناطح السحاب .

ومن اجل هذا تظل "القيثارة" ثمينة ، مهمة ، وتظل جديرة بالدراسة .

تحدث ت . س . اليوت عن ثلاث مراحل من العمر يمر بها الشاعر ، هي ، كما لاحظ ، تبين من الشاعر مراحل شاعريته ، ومعالم تطور شخصيته الادبية .

المرحلة الاولى تنتهي في الثانية عشرة او الرابعة عشرة من العمر ، وفيها يمتلك الحدث المقدرة على بعض الاستمتاع بالشعر. والمرحلة الثانية تستمر حتى الثانية والعشرين تقريبا ، وانها لمرحلة تمثل سريع ، وهضم نشيط ، فيها يقبل الفتى على نتاج غيره من الشعراء بشغف واعجاب وينطبع بطابع اكثر من واحد منهم فيتأثر خطاهم ، مبنى ومعنى ويدور في حلقة التقليد . اما المرحلة الثالثة فهي دور النضج ، فيها تنمو عند الشاعر ملكة النقد ، ويتوفر لديه حسن الاختيار ثم تبرز عناصر اصالته فلا يعود ريشة في رياح سواه. (١)

واذا لم يصح هذا الرأى دائما ، ولم يشر بوضوح الى مراحل شاعرية كل الشعراء فهو صحيح فيما يختص بأبي شبكة في عهد "قيثارته".

لقد صدرت "القيثارة" سنة ١٩٢٦، اى عندما كان الشاعر في الثانية والعشرين من عمره. في السن التي حددها اليوت خاتمة المرحلة الثانية من حياة الشاعر وشاعريته وراى فيها مرحلة تمثل نشيط سريع ، وميل الى الاقتداء بالاخرين وتقليدهم .

واننا لواجدون في "قيثارة" ابي شبكة اكثر من دليل او مثل على هذا التمثل الجائش ، والنزعة التقليدية .

نجد شاعرنا معجبا بالمعري يذكره عدة مرات ، في عدة قصائد من شعره ذكر المعظم المحب. (٢)

ثم نجده متاثرا به في هذه الفلسفة التشاؤمية القائمة على ذم الناس ، والنقمة على الحكام الظالمين ورجال الدين الادعياء وعلى اليأس من صلاح المجتمع ، والسأم من الحياة .

---

(١) راجع في "الاديب" ص ٢٠ ج ٣ سنة ١٩٥٥ ، "نظرة في النقد الادبي" ت.س. اليوت" ترجمة : منح خورى .

(٢) القيثارة ص ٥ ، ١١ ، ٤٩ .

ها هـوذا يرى فـي الناس الذين يعيش معهـم ، معجمـا للمنكرات والـرذائـل فيصيـح :

أيها الظلـم والخنـا والغـرور ... يـا خداعـا تعـف عنـه الشـرور
يا كنودا ويـا محـابـاة قومـي ... يـا صدورا يـدب فيهـا النفـور
يا خصامـا ، يـا منكـرات بـلادى ... يـا ريـاء ، يـا حطـة يـا فجـور
اقربي ما استطعت مـن كبـر نفسـي ... أنا صـدرى رحب وقلبـي كبيـر (١)

وها هوذا لا يـرى لـه صديقـا مخلصـا ، ولا اهـلا معينيـن :

لمن يا ترى أشكو بمدمعـي الهمـل ... وما لي في لبنـان من مخلـص خـل
لقد كان لي فضل علـى كل صاحـب ... فأنكر صحبي كل ما كان مـن فضلـي
أأشكو الى القانـون غـدر معاشـرى ... وقد أصبح القانون يوطأ بالرجـل
غداة طلبت النور انكـرنـي المـلا ... ولما ادرعت الصـدق انكرني اهلـي (٢)

فيلتقـي مـع المعـرى اذ يقـول :

قد فقد الصدق ومات الهـدى ... واستحسن الغدر وقـل الوفـاء
واستشعـر العاقـل فـي سقمـه ... ان الردى مما عنـاه الشفـاء (٣)

---

(١) القيثـارة ص ٥
(٢) القيثـارة ص ٣٣
(٣) لـزوم مـا لا يلـزم ١ : ٧٩

وها هوذا أبو شبكة يهاجم حكام البلد الذين يخونون اماناتهم ، فيظلمون ابناءه ويستعبدونهم ، قائلا :

لي موطن عاثت به اولاده ... فبكت حشاشته على اولاده
يحيا ، امام عيونه جلاّده ... ويموت لا ثم قبضتي جلاده
نظاره ، وهم شعاع عيونه ... يتطوعون اليوم لاستعباده (١)

فيعيد ما قاله المعري ، منذ مئات السنين ، في حكام عهده :

مل المقام فكم اعاشر امة ... امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم اجراؤها (٢)

وها هوذا يهاجم بعنف واندفاع رجال الدين الذين تغرهم الدنيا ، فتنسيهم رسالة الدين ، في قصيدة طويلة ، تدور حول ميت فقير لم ينل من صلاة الكاهن الا القليل . (٣)

فيحذو حذو المعري الذى حمل من قبل على الواعظ المنافق فقال :

رويدك قد غررت وانت حر ... بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ... ويشربها على عمد مساء (٤)

وها هوذا يعلن يأسه من المجتمع وسأمه من الحياة ، فيقول :

هذى الحياة كمستشفى تنام به ... مرضى الوجود ولا تشفى من الداء
كانما الداء مخفي بأنفسها ... سر عصى كشفه علم الاطباء (٥)

---

(١) القيثارة ص ٨
(٢) لزوم ما لا يلزم ١ : ٦٢
(٣) القيثارة ص ١٣ ، ١٤
(٤) لزوم ما لا يلزم ١ : ٦٩
(٥) القيثارة ص ٢١

ويستسلم للموت بهدوء :

يا سليمى انا اموت ضحوكا ... ليس هذا الوجود غير مجون (١)
ان من عاش فيه عمرا قصيرا ... كالذى عاش فيه بعض قرون

كما فعل سلفه المعرى من قبل ، وكما قال :

رب متى ارحل عن هذه الدنيا فاني قد اطلت المقام
لم ادر ما نجمي ولكنه ... في النحس مذ كان جرى واستقام
فلا صديق يترجى يدى ... ولا عدو يتخشى انتقام
والعيش سقم للفتى منصب ... والموت يأتي بشفاء السقام (٢)

ويشير ، الى جناية الآباء على الابناء اذ يلدونهم ، فيقول مجاريا المعرى : (٣)

لو كنت تعلم يا ابي ، وانا ... طفل ، مصيرى العادم السعد
لبكيت عند ولادتي ندما ... وخنقتني وانا على مهدى (٤)

ونجده بعد اعجابه بالمعرى وتأثره به ، معجبا بقيس ليلى وأبي نواس يذكرهما هنا وهناك . (٥)

---

(١) القيثارة ص ١٢٣
(٢) لزوم ما لا يلزم ٤ : ٢٤٠
(٣) في بيته المشهور : هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد.
(٤) القيثارة ص ٨١
(٥) القيثارة ص ٩ ، ١١ ، ١٣٢

/

وأثر الشعر العربي القديم واضح عند ابي شبكة في تراكيب والفاظ استعملها في كثير من قصائده مستعيرا اياها من مخازن القدماء ، كوصفه قلبه بأنه "رشأ" ووصفه ساكن قلبه بانه "غزال" وتسميته حبيبته اولغا باسماء حبيبات الشعراء الاقدمين مثل مي وليلى وسلمى ونعتها بنعوتهم كالجؤذر. (١)

اما تأثره بالمعاصرين من شعراء العربية فواضح ايضا ، اذ نجده متأثرا شعراء المهجر، في عدة قصائد منها "تذكارات وآلام ! "ففي هذه القصيدة تصر البحر ، وانسراح النغم، وتنوع القوافي ، وفيها الحنين والبساطة. واليك منها هذا المقطع :

في ذمة الماضي انطوت ساعات احلامي العذاب
ايام لا هم سوى هم المعلم والكتاب
ايام كان ابي الشباب وكنت نورا للشباب
ايام حلمي لم يكن الا شعاعا من شهاب
ان انس لا أنس الهضاب وما على تلك الهضاب
والشمس توشك أن تغيب ويعلن الجرس الغياب
وأبي على صخر يحدّق في عشية صيف آب
فيما (٢) تراه كان يفكر وهو ينظر في الضباب؟

ومنها قصيدته "يا بلادي" (٣) وفيها فضلا عن مزايا وصفات سابقتها صفة جديدة هي تنوع الاوزان.

---

(١) القيثارة ص ١٠ ، ٤٠، ٦٨، ١١٠، ١١٥، ١٢١، ١٢٣
(٢) كذا في الاصل.
(٣) القيثارة ص ١٧

ومنها القصائد : "أغنية المغيب" (١) و "لي عاشق" (٢) و "ذكرى الآلام" (٣) و "انزعوا قلبي فاستريح" (٤) و "الحسون السجين" (٥) و "ابن لنفسك مقرا شريفا" (٦).

أما شعراء الجزالة ممن كانوا فرسان المنابر، وكان لهم في مواضيع الاجتماع والسياسة ميادين شعرية واسعة فقد حاول ابو شبكة أن يجاريهم على منابرهم ، وفي ميادينهم، في قصائد كثيرة منها : "العامل الثائر" (٧) و "القضاء المفتون او مدام فهمي أمام القضاء" (٨) و "الحرية" (٩) وتكريم خليل مطران" (١٠) و "الى شاعر القطرين" (١١) و "رثاء المرحوم سليمان البستاني" (١٢) و "اني فتى حر" (١٣).

ويبدو انجرافه في تقليد اساليب سواه من الشعراء ، على أشده في ثلاث من قصائده (١٤) ، عارض فيها ثلاثا من القصائد الاولى هي دالية الحصري القيرواني المعروفة ، والثانية عينيّة للشاعر شيلي ملاّط ، والثالثة قافيّة أحمد شوقي في دمشق .

---

(١) القيثارة ص ٥٠
(٢) القيثارة ص ٧٧
(٣) القيثارة ص ٧٩
(٤) القيثارة ص ٨٨
(٥) القيثارة ص ١٠٤
(٦) القيثارة ص ١١٥
(٧) القيثارة ص ٨
(٨) القيثارة ص ٢٦
(٩) القيثارة ص ٣١
(١٠) القيثارة ص ٤٧ (ليس للقصيدة عنوان)
(١١) القيثارة ص ٧٤
(١٢) القيثارة ص ٨٢
(١٣) القيثارة ص ٩١
(١٤) عناوينها : "يا ليل العمر متى غده" القيثارة ص ١٢٤ . و "العين بحيرة احلام" القيثارة ص ١٢٨ . و "معارضة قصيدة شوقي" القيثارة ص ١٣٤ .

على أن الشعراء العرب لم يكونوا وحدهم المؤثرين في ابي شبكة فقد شاركهم في هذا التأثير شعراء افرنج وفرنسيون. ذكرهم باعجاب واكبار في مثل قوله :

كيف فرجيل والمعرى وهو ميروس في ذلك المكان الهوائي (١)

وقوله :

صرت في وحدتي اخاطب موسه ... راشفا في الظلام سحر بيانه
كان مثلي فغيب القبر منه ... جسدا باليا قبيل اوانه
شاعر الدمع هل من الدمع بد ... في وجود ألعين من غدرانه ؟
أفعم الكون بالعذاب حياتي ... فلهذا تاقت الى اكفانه (٢)

ونقل شعرهم الى العربية منظوما بتصرف ، من ذلك "الى لورنس" و "الى بدوية جميلة" وهما قصيدتان للامرتين. و "تذكرى" وهي قصيدة لالفريد ده موسه. و "لا تعط الحب" للشاعرة الفرنسية مدام مرسلين ده بورد .

---

(١) القيثارة ص ٤٩
(٢) القيثارة ص ١٦

هـذه "القيثارة" هي في مظهرها البارز : شـعر يأتم باكثر من امـام ويتجـه اكثر من اتجاه ، وصراع عنيـف بين الواقـع والمثال ، وبـذور شـاعرية تستشـرف المستقبل في امـل وايمان .

وهـذا المظهر عندى اهم الحان "القيثارة" . على ان النقـد الادبي قـد يطالبـني باكثر مما ذكرت ، وقـد يسألني مزيـدا من الحديث عن نواح اخرى منهـا فرعيـة جزئية . وتلبيـة لهذا السؤال اضيـف هـذه المواضيع والملاحظات والتعليقات المتفـرقة :

آ ـ ضعـف اللغـة واضطراب الاسـلوب في شـعر القيثارة .

ابو شـبكة في "القيثارة" شـاعر مضطرب الاسـلوب ضائع في اسـاليـب غيره من الشـعراء ، قـد مائهم ومحد ثيهم ، المقيمين منهم في الشرق العربي والنازحـين الى المهجـر .

وهو في تقليـده اسـاليب غيره اقرب الى الفشـل منه الى النجاح . فما كان لـه وهو في هذه السـن المبكرة من عمره التي لم يسـتكمل فيها مواد ثقافتـه ولم يسـتجمع مقومات شـخصيته ، ان يصـل الى اسـلوب محكم مسـتقيم العبـارة والاداة .

اننا نجـد في "القيثارة" ضعفا لغويا ، في النحو ، وفي الصـرف ، وفي التركيب ، وفي البيان ، وفي غير ذلك . ودونك منه هـذه الامثلة :

العنـبر الفيـاح في تربـه ... والمسك في ارجائـه اذفـر (١)

لبنان أنآه ولكـن لـه ... ذكر في قلـبي وهوى اطهر (٢)

حول عيونك عن مشاهده فلم ... تبقي الحوادث منه غير رماده (٣)

---

(١) القيثارة ص ٧٠ . في (الفياح) خطأ صرفي ، والصواب (الفواح) .

(٢) = ص ٧٠ . في (أنآه) خطأ بتعديه الفعل الى مفعوله دون استعمال حرف الجر عن .

(٣) القيثاره ص ٨ . في (تبقي) خطأ نحوى . والصواب جزم الفعل وحذف حرف العلة

ولا نطيء الحق الصريح برجلنا ولا نكسب الاموال بالجور والغدر[١]

هل ان فكرك من يراعك اسرع ام ان نترك من نظيمك ابدع[٥]

ب — جدة التشابية وبراعتها

نجد في "القيثارة" كثيرا من التشابيه المبتكرة الجريئة ، التي ينطلق بها الشاعر عن نطاق التشابيه الكلاسية القديمة . وهو في هذا النهج من التشبيه والتصوير مجار لشعراء المهجر ، ولا سيما جبران خليل جبران الذى كان له من التشابيه الطريفة ، الملونة ، المظللة الشيء الكثير[٣].

ومن طريف تشبيهات ابي شبكه ، او تصويره ، وصفه البدر :

هوذا البدر بابهى رونق صاعد خلف جبال المشرق

غرقت هالته في غيمة كدموع غرقت في حدق

او كأحلام ليالي وقد ذوبت بين بخار ازرق[٤]

فهو هنا يصف هالة البدر فيشبهها وهي غريقة في غيمتها بدموع غرقت في حدق ، ثم يعمد بعد هذا التشبيه المحسوس الى تشبيه آخر معنوى يحمل به

---

(١) القيثارة ص٩٢ . في (نطيء) خطأ املائي . والصواب (نطأ) .

(٢) القيثارة ص١١ . في البيت خطأ نحوى بادخال حرف الاستفهام هل على اداة التوكيد ان . وخطأ بياني باستعمال هل للتصور ، وهي لا تكون الا للتصديق وحده ، فلا يليها الحرف ام والمعادل من بعده .

(٣) انظر كتاب الشعر العربي في المهجر الاميركي . بقلم وديع ديب ص ٤٩ — ٥٠

(٤) القيثارة ص ٦٣

المشبه والمشبه به الى نطاق ذاتيته فلا تعود الطبيعة جزءا منفصلا عن نفسه ، ولا تعود عيناه آلة تصوير تلتقط دقائق المشهد ولا تحسها وتبصر ولا تشعر . البدر في هالته عند ابي شبكه لم يعد دموعا في حدق فحسب ، بل عاد احلام ليالية الذائبة في بخار ازرق ...

وكثيرا ما يشبه ابو شبكة الاشياء والمحسوسات بمشبهات معنوية ، كقوله :

فهذى الطيور كأفراخ قلبي تطير سراعا ولا تمهل (١)

وقوله :

انا خفي كالسر او كالهلاك انقض في ثوان (٢)

ج ـ الشعر الهجرى الطابع خير شعر القيثارة

قلت في حديثي عن الشعراء الذين تأثر بهم ابو شبكة ، والاتجاهات الشعرية التي جرى معها ان ابا شبكة تأثر بشعراء المهجر في قصائد عديدة . واقول الان ان هذه القصائد هي خير شعر القيثارة ، وان فيها من الوحدة الفنية والشعورية ما لا نجده في القصائد الاخرى ، فيها يجرى ابو شبكة مع طبعه متخيرا اللفظ المألوف ، والبحور القصيرة ، والقوافي المختلفة ، وفيها يعبر عن اشواقه واحاسيسه العميقة تعبيرا هامسا ، ليس فيه اللهجة الخطابية المدوية التي تسود كثيرا من قصائده الاخرى .

لن اقتطف من هذه القصائد الهامسة ، المهجرية الطابع بعض اجزائها ، وانما ساختار منها قصيدة كاملة تمثل ـ على ما بها من هنات قليلة ـ خير قصائد القيثارة .

---

(١) القيثارة ص ١١٤
(٢) القيثارة ص ١١

اغنيـــة المغيـــب (١)

اسـجدى لله يا نفسـي ، فقـد وافى المغيـب (٢)
واسـتريحي من عنـاء الفكـر ، فالفكـر رهيـب
واسـترى الآلام حينا بابتسـامات الحبيـب
فغـدا ترجـع آلامـك ، والاتـي قريـب

•

هـوذا الفـلاح قـد عاد من الحقـل الجميـل
في يـديه المنجـل الحاصـد والرفـش الطـويـل
وعلى اكتافـه حمـل من القمـح ثقيـل
فهو "تعـبان" وفي عينـيه آثـار اللهيـب
اسـجدى لله يا نفسـي ، فقـد وافى المغيب

•

اسـتريحي فـترة قـرب ميـاه الجـدول
وانظرى المعـاز "يـرتاح" بسـفح الجبـل
والقطيـع الشـارد الهائـم مثـل الابـل
انظـريه تائـها كالفكـر في الوقـت العصيـب
اسـجدي للـه يا نفسـي ، فقـد وافى المغيب

•

---

(١) لعل هذه القصـيدة خير شـعر القيثارة في رأى ابي شـبكة نفسـه ، فقـد عمـد اليها وحدها ، فحـذف منها ابياتا ثمانية ونقـح ابياتا اخرى ابقاها • ونشرها ثانية ضمن "الالحان" ص ٥٦ ـ ٥٧

(٢) كتبت الابيات متصلة الشـطرين ، لان معظمها مدور • ولان تجزئتها الى شطرين في القيثارة كانت على غير ما ينبغي عروضيا •

اسجدى للـه واسلي فترة ذكرى العذاب
قبلما تزحف في " الوديان " اشباح الضباب
واستعيدى ذكريات لا و يقات العذاب
لم يكن ماضيك كالحاضر دمعا ونحيب
اسجدى للـه يا نفسي فقد وافى المغيب

.

اسمعي الاجراس من قبة دير الراهبات
حمل الوادى صداها للنفوس الزاهدات
فهي أنات صدور وبقايا زفرات
صعدتها بائسات الدير قدام الصليب
اسجدى لله يا نفسي فقد وافى المغيب (١)

...

هذه هي القيثارة . شعر ينقصه الكثير من مقومات الشعر الجيد ولكنها على ما فيها من عيوب تشير الى شاعرية متفتحة ينتظرها مستقبل مجيد في عالم الشعر .

و بمثل هذه النظرة رآها اكثر من تحدثوا عنها او اشاروا اليها: عدها الناقد مارون عبود قرزمة (٢) . وقال يوسف غصوب ان صاحبها " توخى فيها اللين والنكتة ... شأن المبتدئين الذين يرون فيما عندهم من السهولة والمقدرة على النظم موهبة سماوية (٣) ." وذكر رفائيل بطي أنّ الشاعر قد سار في نظمها على خطى سابقيه من شعراء الانبعاث مع تطلع الى الجديد (٤) . واثنى عليها فؤاد سليمان ،فقال : " في ذلك الزمان منذ

---

(١) القيثارة ص ٥٠ ـ ٥١
(٢) دراسات وذكريات ص ٢٨
(٣) = = ص ٣٥
(٤) مجلة الثقافة . العدد ٤٢٦ ص ١٩ سنة ١٩٤٧

ثلاث عشرة سنة عرفت الياس ابو شبكه ، وهز هزت كثيرا من احلام طفولتي على نغمات "قيثارته" وما زال في نفسي الى اليوم منها صدى حلو .... وها انا منذ ثلاث عشرة سنة وقد ضاع من ايماني ما ضاع ، وتخربت في روحي معابد طاهرة ، ما زال في اعماق نفسي صدى لاغنية الشاعر المؤمن ، يصعدها في صلاة بريئة ساذجة مع اصداء اجراس الكنائس في قبب الاديرة :

اسمعي الاجراس من قبة دير الراهبات
حمل الوادي صداها للنفوس الزاهدات
هي انات فؤاد وبقايا زفرات
صعّدتها راهبات الدير قدام الصليب
اسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيب(١)

واحسن في الحديث عنها بطرس البستاني فقال : "على انّ "القيثارة" وان هبطت عن مستوى شعره ، غير رديئة في الجملة . فهي ، على ضعف الفن وطفولية الفكر والخيال ، تتحرك فيها نفس شاعرة فطرة ، تريد ان تخرج من القوة الى الفعل . وهي الى ذلك تشف بامانة عن شخصية الشاعر . فبوسعنا ان نعدها نقطة الاتجاه في شعره الوجداني . هي حب يتألم من الاهل والناس ، ويرتاح الى من يحب ، كما تألم الحب وارتاح في "غلواء" و"نداء القلب" و"الى الابد" . هي ثورة وصخب وتشاؤم ونفور تعد الطريق "لافاعي الفردوس" ولقصائده الوطنية الصارخة . وهي يومذاك صورة جديدة في الشعر لانعتاقها من الاساليب القديمة . فليس فيها مدح لغني او صاحب رتبة ، ولا تهنئة ولا رثاء الا ما كان في عالم اوا ديب . وليس فيها من الرواسم المطروقة التي تعوّد الشعراء ان يتعكزوا عليها وينسجوا منها تعابيرهم . فتعابيره وصوره وافكاره شخصية ، مهما تكن عليه من قوة او ضعف ..(٢)"

---

(١) المكشوف . العدد ١٨٢ ص٨ سنة ١٩٣٩
(٢) دراسات وذكريات ص ١٧ — ١٨

وليس ضعف شعر القيثارة مما ينتقص من شاعرية ابي شبكة ، ولا نقدها مما يغضبه فقد تحدث هو عنها باشد مما تحدث به غيره .

كان ذلك في شهر آب عام ١٩٣٩ . ففي هذا التاريخ ظهر في جريدة البشير نقد عنيف للقيثارة التي صدرت عام ١٩٢٦ . وكان كاتب النقد الاب رفائيل نخله اليسوعي .

وقد رد ابو شبكه النقد ، وكان مما تضمنه رده :

" ... ففي العام ١٩٢٩ — كنت يومئذ في الثانية والعشرين من عمري ، دفعني الغرور من جهة والحاح بعض "المعجبين" بي من جهة اخرى ، الى اصدار مجموعة من شعري نظمت قصائدها بين السادسة عشرة والعشرين ، ففاوضت بذلك مكتبة صادر ، وبعد اطلاعها عليها قبلت اصدارها على نفقتها .. ولا اكتم الاب رفائيل نخله نفسه اني ما جرؤت على ذكر "القيثارة" بشفتي الا يوم قيل لي ان الاب رفائيل نخله اليسوعي ينتقد ك في جريدة "البشير" " فكل ما قاله حضرة الناقد في تلك "القيثارة" قليل . وان اعجب فلقوله ان فيها قصائد هي من "جواهر شعرنا العصري المبتكر" و "فيها خيالات على جانب غير يسير من الابتكار الجدير بالتقريظ" . على ان نقد الاب رفائيل آلمني ، اذ لم يخطر ببالي ان يعمد امرؤ في العام ١٩٣٩ الى نبش ما تنكر علي في زمن الحداثة وطرحه اياه في وجهي مرفقا باقسى ما تبطنه القاموس من كلمات اللوم والتقريع ..."(١)

وبعد فهذه هي القيثارة ، شعر ينقصه الكثير من مقومات الشعر الجيد ، ولكنها على ما فيها من عيوب أشارت بوضوح الى شاعرية متفتحة ، تلقاها مستقبل مجيد في عالم الشعر .

---

(١) المكشوف . العدد ٢١١ ص ٢ سنة ١٩٣٩

" غـــــلـــــــــــــواء "

.....

"غلـواء" القصـة الشـعرية

تبـدأ "غلواء"[١] ببيتين يصـفان هناءة العيـش في القـرى ، كأنما ينقـل بهما الشـاعر القارىء الى جـو قصـته . ثم نرى الفـتى الشـاعر يعـود في الليل فيرى امه سـهرانة ؛ ويسـألها عما اسـهرها فتنبئه بان غلواء مريضـة في "صور". فما ان يسـمع هذا النبأ حـتى يكتئـب ويهتـف :

غلواء ؟ ما حل بها ؟ ... شـقية ! اما تبقـى للرجا بقيـــه ؟
مسكينة ! "
ويل امها[٢]، صبية !

ثم تتجمع في نفسـه مشـاعر عميقـة مضطـربة ، تهزه ، وتهز حياته هزا فيما بعـد .

تأرق عينا الشـاعر، ثم يضيـع في غيبوبة تتمثـل له فيها غلواء ميتة في هيئات كريهـة منفرة .

وتنتهي الليلـة ويعود الشـاعر الى يقظـته ، يتسـاءل :

أمن العـدل ، خالق الارواح ان يغيب الجمال قبل الصباح
أمن العـدل ان يـرى القلـب عطشـان ، وخمر القلوب في الاقداح
أمن العـدل ان تجول عيون في ظلام ، والزيت في المصـباح
إن تكن تحرم الطيور سـماها فلماذا خلقت ريـش الجـناح ؟

---

(١) نفيا للالتباس ، ساضع "غلواء" القصيدة بين علامة تنصيص ، وسابقي غلواء الفتاة دون هذه العلامة .

(٢) جاء في "القاموس" ج ٢ : " ورجل ويلمه بكسر اللام وضمها داه . ويقال للمستجاد ويلمه اى ويل لامه . كقولهم لا ابالك فركبوه وجعلوه كالشيء الواحد ثم لحقته الهاء مبالغة كداهية ."

وينتقل من هذا التساؤل الى مشهد يعيد الهدوء الى نفسه. ذاك هو مشهد الفلاح :

وتناءت عيناه في الشفق الاخضر فانحطتا على فلاح
يحرث الارض هادئا مطمئنا فيشق الاتلام كالجراح
قال طوبى له وطوبى لنفسه ما الذ الصفاء في ماء كأسه
ما اعز الاعشاب حول سواقيه واغناه في قناعة بؤسه
لا يرى غير حقله ان اطل الفجر او اقبل المسا غير أنسه
جاهل يجهل القراءة في الاسفار لكنه حكيم بفأسه
غده مثل يومه ، ليس يغشاه شقاء ، ويومه مثل امسه
ليت لي قلبه الخلي ليت في الروح لي تقاه
ليت في مقلتي لي مقلتيه ... واحسرتاه ![1]

هذا المشهد من صنع الرومانسية التي ينتمي الى مذهبها شعر الشاعر ، اكثر مما هو من صنع واقعه. فبراءة الفلاح هذه "براءة وهمية لا اثر لها في خيال الشعراء ، ولعل روسو اول من تغنى بهذا الوهم ، بل جعل منه نظرية فلسفية ساذجة "[2]

ثم تبدأ "القصة "[3] . يصف فيها الشاعر غلواء وصفا مبتكرا ، بان يرى جمالها ماثلا في جمال الطبيعة . هذه الطبيعة التي يقول "روسو" (Rousseau) انها ميتة حتى تحييها نيران الحب[4] . وبعد ما ينتهي من وصف غلواء يعرفنا بوردة ، وهي قريبة لغلواء كانت تسكن صور . . امرأة مشتعلة الجسد ، جنونية الشهوة . واذا كانت غلواء قد مثلت من الطبيعة مختلف جمالها ، فهي تمثل من هذه الطبيعة مختلف شرورها[5]

---

(١) "غلواء" ص ١٥ — ١٦
(٢) عبد الله لحود : دراسات وذكريات ص ٤٥
(٣) "غلواء" ص ١٧
(٤) I. Babbit: Rousseau and Romanticism P. 233
(٥) "غلواء ص ٢١

وبعد هذا التعريف " يروى لنا ان غلواء رغبت في تزور وردة في بلدها "صور" ويستطرد في وصف صور وفي ذكر مجدها فيذكرنا بما اشرت اليه من قبل في "القيثارة" من لياذه بالماضي التاريخي للبنان ، لبنان الفينيقيين ، ولبنان الانبياء . ويقوده ذكر فينيقيا الى الوقوف على الاطلال . والوقوف على الاطلال هنا لا يستعيره الشاعر من شعراء الجاهلية القدماء ، وانما يأخذه من قادة مدرسته الشعرية الكبيرة ، شعراء الرومانسية الغربيين فمن مسالك شعرهم ان يتغنوا بجمال الاطلال ، ويزهوا بمجدها التليد . وهذا ما يعرف عند الفرنسيين بـ "Les sentiments des ruines" (١)

ويعود الشاعر الى قصته . تنتبه غلواء ذات ليلة لترى في المخدع المجاور لها ما لم تره عين لها من قبل . ترى "فاجرة على ذراع فاجر" . وكانت الفاجرة قريبتها "وردة"! (٢) .

استنتج الدكتور سليم حيدر في محاضرته التي القاها في "الندوة اللبنانية مساء ٢٧ كانون الثاني سنة ١٩٥٥ بمناسبة ذكرى وفاة الشاعر الثامنة ، ان هذا الفاجر لا بد ان يكون الشاعر نفسه . والذى اظنه ان هذا الاستنتاج غير صحيح . فقصة "غلواء" الشعرية ، هي في اصلها قصة حقيقية وليس في القصة الحقيقية ما يؤيد استنتاج الدكتور حيدر . فقد سألت اولغا او لنسمها غلواء عن هذا الاستنتاج بطريق غير مباشر . قلت : أكان الياس في صور يوم كنت بها عند قريبتك وردة ؟ فكان الجواب : لا . واذا نحن عدنا الى القصيدة نفسها وجدنا ما يؤيده ففي الابيات الاولى منها ما يبين لنا بوضوح ان الشاعر كان في بلدته الزوق يوم سمع نبأ مرض غلواء اثر مشاهدتها المنظر الخليع ..

---

(١) محمد مندور : في الادب والنقد ص ١١٢

(٢) "غلواء" ص ٢٨ — ٢٩

يصعق مشهد الاثم غلواء فتهرب كالتائهة، الى صخور ساحل البحر وتمر بالمقابر، وما يزال انفعالها يشتد حتى تمرض وتغدو فريسة الحمى :

واستيقظت في نفسها المحمومه من "وردة الحبيبة" الاثيمه
صارخة اخيلة الجريمة
ودب في اعضائها الخيفه قفقفه و رجفة عنيفه
حمى سرت في جسمها خفيفه(١)

ثم يشتد مرضها وتعظم اوهامها فيخيل اليها انها هي الآثمة !

وقام في احلامها المعذبة رؤيا كأنما هي المرتكبة (٢)

وينتهي "العهد الاول" "بالرؤيا" . وما اكثر الرؤى والاحلام والغيوبات والسكرات في "غلواء"(٣) . بل وفي شعر الرومانسيين كلهم(٤) . يقول لافونتين ، وفي قوله تعبيرعن هذه الظاهرة : " نحن كلنا، حكماؤنا وحمقانا ،ننهمك في احلام اليقظة ، اذ لاشيء اعذب منها . هي وهم متملق يحصل ارواحنا بعيدا، واذا بكل ثراء العالم ، وكل المآثر ،وكل النساء ،ملكنا"(٥)

في هذه "الرؤيا" نرى الشاعر قلقا ،ارقا، فهو يحس بمثل ما احست به غلواء . يحس بانه قد اثم ،وخان الحب ..

---

(١) "غلواء" ص ٣١
(٢) "غلواء" ص ٣٣
(٣) "غلواء" ص ١٢ ـ ١٤ ، ١٩ ، ٣٤ ـ ٣٦ ، ٤٧ ـ ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩١
(٤) راجع مقالة عبد الله لحود في كتاب "الياس ابو شبكة . دراسات وذكريات" ص ٤٥
(٥) I. Babbit: Rousseau and Romanticism P. 68

ويبدأ "العهد الثاني "" بعذاب الضمير" ولكنه عذاب هادىء ، في جو هادىء .

ترى الليل كالهم الثقيل يجر ذيول معطفه الطويل
ويبرز في مشارقه نجوما بلون برتقالي ضئيل
وكانت "زوق ميكائيل" تصغي الى همس النياسم في الحقول
فتبسم عن كواكبها النحيلة وتحلم في جواذبها الجميله
بعد — مرّ في الدنيا — جميل (١)

ويتلوه حديث بين الشاعر وامه ، يشكو لها فيه شقاءه واعراض غلواء عن حبه .

اجل يا ام صرت فتى شقيا يكاد اليأس يطفىء مقلتيا
فاين مضت ليالي الخوالي وقلب كان في الماضي خليا ؟
ارى غلواء تعرض عن هيامي ويكتم قلبها سرا خفيا !"
وتسمعها تقول له: "شفيق" بني ، لقد اضللتك الطريق
فهل نبهت قلبك يا بنيا ؟ (٢)

فتروح الام تسري عنه ما به ، وتنصحه بان يتأنى فهو ما زال صغيرا وما زالت امامه اعوام طوال ، وبأن يترك غلواء فهي اكبر منه سنا . ولكنه لا يأبه لنصحها :

ايا امي اصرفي ذى الكأس عني فما في الحب شأن للتاني
وما للعمر شأن في القلوب (٣)

٥

ثم ماذا ؟

وشفيت غلواء من آلامها لكنها لم تشف من اوهامها

---

(١) "غلواء" ص ٣٩
(٢) "غلواء" ص ٤٣
(٣) "غلواء" ص ٤٥

وفي الكنيسة كانت ترى

..... كضمير الجاني تجمد عند لفظة الغفران (١)

وفي الجهة اليسرى من الهيكل كان شفيق(؟) يفكر في حبه ، وقد هداه تفكيره الى انه حب لا ينبغي له ان يخافه او يبرأ منه :

قال " افق يا حب من هجعتك فسيد الآلام في بيعتك
احب حتى مريم الزانية (٢)

ثم تقدم الى غلواء يطيل مناجاتها ، ويبدي لها وجده ، ويحدثها عن المه :

امام اوجاعي ، امام الالم امام هذا الضعف ، هذا السقم
وهذا العين التي لم تنم
اطرح قلبي للهوى مجمره ! فغمغمت غلواء : " ما اكفره
هذا الهوى ! يمضي ويأتي الندم (٣) "

وفي " العهد الثالث " عن " التجلي " يمجد الشاعر العاشق المه وشقاءه ، كما مجدهما من قبل شعراء الرومانسية وادباؤها امثال روسو وده فينيي وده موسه الذين كانوا يرون ان النفس العظيمة يجب ان تضم من الشقاء اكثر مما تضمه نفس صغيرة (٤) . وفي ذلك يقول الناقد ارفنج بابت : " ما من حركة اثمرت من داء السوداء ما اثمرته الرومانسية العاطفية . "(٥) حتى لقد شكا جوته (Goethe) من افراط الرومانسيين في الاكتئاب والتشاؤم فكتب الى " ايكرمان "(Eckermann) متحدثا عن رومانسي سنة ١٨٣٠ : " كل هؤلاء الشعراء ينظمون كما لو كانوا مرضى ، وكما لو ان العالم كان مستشفى (٦) ... كل واحد منهم يحاول فيما ينظمه ان يكون

---

(١) "غلواء" اسم الشاعر في "غلواء"
(٢) "غلواء " ص ٥٥
(٣) "غلواء " ص ٥٧
(٤) Rousseau and Romanticism P. 237
(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها
(٦) هكذا تماما رأى ابو شبكة العالم في " قيثارته " حين قال :
هذى الحياة كمستشفى تنام به مرضى الوجود ولا تشفى من الداء (ص ٧١)

اكثر انعزاليـــة من الاخـرين • وهـذا حقـا اسـاءة استخدام للشـعر الـذى منـح ليجعـل المرء قانعا بالعالم وبحظـه ... لأسـمّيّنّ شـعر هؤلاء شـعر المستشفى (١)

يقـول شـاعرنا في مطلـع عهـد "التجلي"

اجرح القلب واسـق شعرك منه فـدم القلب خمـرة الاقـلام
مصـدر الصـدق في الشعور هو القلب وفي القلـب مهبط الالهام
واذا انت لم تعذب وتغمـس قلما في قرارة الآلام
فقوافيـك زخرف وبريـــق كقطـام في مدفن مـن رخام
واذا القلـب لم يرقـق بحـب حجرته ضغائن الايـــام (٢)

والحـق انه جرح قلبـه كـثيرا في حياته ، واسـتمد من جروحـه صـدق الشـعور، وفي هـذا يقـول ميخائيـل نعيمـه : " ولسـت اجـد في وصـف شـعره بيتا اصـدق وابلـغ من بيـت له في مطلـع " العهد الثالث " من "غلواء " حيـث يقول :

اجرح القلب واسق شـعرك منه فـدم القلـب خمرة الاقلام (٣)

ثم يترك الشـاعر قلبـه الجريح ، ويغيـب في روءى جميلة هذه المرة • نرى فيها الملائك والعـذارى الطاهرات والورود وشـفائف الحريـر ، ونسـمع فيها الموسـيقى ومزامير داود • ومن حـق الشـاعر ان يفرح الان وتصفـو روءاه فقـد :

سمع العاشق المعذب صوتا رجعت في العلا صداه الخدور :
" طهرتك الالام من كل رجس والهوى في فؤادك الموجـوع
ولياليـك في ظماء وجـوع (٤)

---

(١) المصـدر نفسـه ص ٢٣٩
(٢) " غلواء " ص ٦٥
(٣) دراسات وذكريات ص ٢٦
(٤) "غلواء " ص ٦٩

ثم من حقه ان يشعر بالقوة والعزة ، فهو ينسى حبه ، وشقاءه ، وينسى تطهره ، ويذكر اعداء له قدماء صارعهم في "قيثارته" هم اولئك الظالمون الباحثون عن المفاخر الارضية ، ويسفه افاعيلهم ، ويقلل من شأن فتوحاتهم وانتصاراتهم ولذاتهم • ويقول لهم :

وعرفتم في المجد كل الاماكن وقصارى لذاته الحمراء
وعرفتم حتى الغيوب ولكن ما عرفتم في المجد نورالسماء
منحة الالهات للشعراء !(١)

وتنتهي المعركة ، ويعود الشاعر من جديد الى بكائه ووحدته وشقائه • ثم ينجو من كل ذلك بان يلوذ بذكريات جميلة • والذكريات السعيدة عند الرومانسيين ملجأ حبيب يفيئون اليه كلما ضاق بهم حاضرهم ، بل انها لتغدو احيانا اطيب من السعادة نفسها واعمق آثارا في نفوسهم (٢)

٥

وفي "العهد الرابع" عهد "الغفران" تبتسم الطبيعة بعد عبوس ، ويقبل شهر نوار — عرس الطبيعة — وتحلو الايام ، وفي عيد من اعيادها يطل "شفيق" على الهضاب قيرى غلواء ، ويخف اليها ، ويتحدث معها ، فتبدو له في مرحلة جديدة من حياتها النفسية •• فهي تحاول ان تتناسى زمانا مضى وخيالا عبر(٣) • ويفرح العاشق المتيم ويعيد على مسمعيها حديث حبه •• ويبرح به الوجد ، فيهوي على صدرها باكيا وتهوى على رأسه باكية ، ثم يلتقي الثغران

على مشهد من نقاء الزهور العذارى ومن عفة الساقية (٤)

---

(١) "غلواء" ص ٧١
(٢) I. Babbit: Rousseau and Romanticism P.186
(٣) "غلواء" ص ٨٧
(٤) "غلواء" ص ٩٠

كان من الممكن ان تنتهي "القصة" عند هذا المشهد . ولكن من يستطيع ان يفرض على الشاعر الرومانسي ان يجعل من انباء حبه قصة منتظمة المنهج ، منطقية الحوادث ، يسير فيها القصصي المتفنن مع الشاعر المضطرب ..

عاد الشاعر الى **ترديد** ما سمعنا مثله من قبل ، فذكر الالم ، واصغى الى حبيبته وهي تحدثه عن ذنوب ماضيها ، وراح يمجد تطهر النفس بالالم ،

فقال : ان دمعة تطهرت تكفي لغسل النفس مهما قذرت
فادمع التوبة والغفران اقدس ، يا غلواء من القربان (١)

ثم انتهت القصة :

وشفيت غلواء من اوهامها لكنها لم تشف من آلامها (٢)

---

(١) "غلواء" ص ٩٥
(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها

القصة الحقيقية

لهذا الحب الذى كان محور "غلواء" القصة الشعرية ، او القصيدة الطويلة قصة حقيقية لممت خيوطها من عدة مصادر وها هي ذى ،

كان ابو شبكة دون الثامنة عشرة يوم احب غلواء (اولغا) وكانت غلواء في الثامنة عشرة[١] . ويروى رياض حنين[٢] عن غلواء ذكريات هذا الحب فيقول ان الفتى العاشق كان يرى غلواءه كثيرا ، فبيتها في زوق ميكائيل قريب من بيته ، وكانت لها باخته فرجيني علاقة صداقة فكانتا تتصاحبان وتتزاوران . ونما شعور العاشق المراهق نحو حبيبته ولكنه لم يدرك كنهه حتى سافرت الى صور لتزور قريبة لها تدعى " وردة " . وفي صور اصيبت بالحمى فلما علم هو بخبر مرضها اضطرب واكتأب ، واحس انه يحب هذه الفتاة حبا جما . وعادت غلواء الى " الزوق " لتنقه من مرضها فكان فتاها يعودها ويأتيها بالكتب الروائية الفرنسية لتقرأها ، وقد رسم تحت عباراتها الغرامية التي اعجبته خطوطا لافتة للنظر ، كأنما يريد التعبير بها عن احاسيسه . وما لبثت غلواء ان احست بان الياس يحبها ، ثم ما لبثت ان احست بالحب يغزو قلبها فاحبته كما احبها .

وحمل ابو شبكة نبأ حبه الى امه فلم تشجعه ، فهو ما يزال صغير السن ، واولغا تكبره سنا.[٣] ولكنه ظل يضرب في دروب هواه وظل يلتقي بحبيبته ، ثم صار خطيبها فكان يزورها كثيرا في بيتها . يقول "ابو جعفر" وقد كان معلما في مدرسة الاباء الكبوشيين في "الزوق" سبع سنين (١٩٢٨ — ١٩٣٥) : "وكثيرا

---

(١) "غلواء" ص ١٤، ٤٤

(٢) مجلة المجالس المصورة . العدد ٥٤ ص ٩ سنة ١٩٥٥ (كتب حنين هذه المعلومات في تقرير صحفي كتبه بعد مقابلته اولغا زوج الشاعر، وقد سألتها عن مدى صحة ما رواه عنها حنين فكان جوابها انها اطلعت على ما كتبه ، وهي تؤيد صحته)

(٣) "غلواء" ص ٤٤

ما كان يأتي عند العصر ، لزيارة خطيبته ، فينادي فألبي النداء . ونجلس على السطيحة صيفا ، وشتاء في غرفة صغيرة ، كانت بمثابة مكتب فرش بمقعد عربي قديم وطاولة خشبية مستديرة تبعثرت عليها الكتب والمجلات . "[1] وفي هذه الغرفة الصغيرة كان ينظم الشعر ويقرأ ، وكان يامل ان تصير هذه الغرفة الصغيرة مزارا يؤمه المعجبون بادبه ، وشاعريته بعد وفاته ، الا ان معالم هذه الغرفة تغيرت حين جدد يوسف ساروفيم شقيق اولغا بناء البيت عام ١٩٤٩ ، فصارت غرفة الشاعر المحبوبة جزءا من غرفة اخرى [2].

وطالت مدة الخطبة اعواما . فقد ظل ضيق ذات يد الشاعر يحول دون زواجه ، وكان هذا يعذبه .. وفي رسالة بعث بها الى غلواء قال : "اني اتعذب كثيرا ويخيل الي اني ساقضي نحبي . لدى فكرة ، وهي ان ابيع غدا حصتي في البيت واتزوج فورا .." [3]

ولكن الحب رغم طول مدة الخطوبة لم يفتر .. وفي رسالة اخرى بعث بها اليها من فيطرون قال : " اني لاغار عليك فوق ما تتصورين .." [4]

اما هي فكانت ثابتة على حبه ، وكان حزنها يشتد احيانا فتبكي . وفي مذكرات شاعرنا عن يوم ١٥ شباط سنة ١٩٣١ فقرأ هذه العبارات : "آخر يوم من ايام المرافع . فاجأت خطيبتي اولغا هذا الصباح تبكي ، فعلمت انها تفكر في الزواج وقد مر على خطبتنا تسع سنوات . قريبا يتم الحلم يا اولغا

---

(١) الحكمة . العدد ٤ ص ١٣ سنة ١٩٥٢
(٢) اولغا ساروفيم : من حديث خاص اذنت بنشره
(٣) دراسات وذكريات ص ١٧٩ (ليس لهذه الرسالة ولا للرسائل الاخرى المنشورة هنا ، تاريخ)
(٤) دراسات وذكريات ص ١٨٠

يا حبيبتي اولغا ... فلا تبكي ! يعلم الله ما في قلبي من الحب لك ، وما فيه من الالم ، وتشهد قصائدى ودموعي "(١) .

وفي يوم ١٩ شباط ١٩٣١ بشرها بقرب الزواج ، وكتب في مذكراته: "بشرت اولغا هذا الصباح بان زواجنا اصبح قريبا جدا ، ففرحت واغرورقت عيناها بالدموع وقالت : لا ينبغي ان نبقى هكذا اكثر من ثلاثة اشهر .."(٢)

وفي سنة الحب العاشرة تزوج الخطيبان ، وعاشا زوجين سعيدين لم يكدر صفوهما شيء(٣)

ولم ينجب الزوجان ذرية . قالت اولغا : "كان الياس ، رحمه الله ، يقول لي دائما ، اذا انعم الله علينا ببنية سنسميها غلواء . ولكن تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن ، فقد جاءنا صبي حرمنا الله اياه . قبل ان يبصر النور "(٤)

وتذكر اولغا اثرها في شاعرية زوجها ، فتقول انه كان يقول لها : " لولاك لما نطقت بالشعر " (٥) وتقول ايضا : " انا مورد شعره الحقيقي . انا اعطيته وحي الشعر (٦)

هذه هي القصة الحقيقية ، لحب الياس وغلواء . فان تساءلت عن هذه الهوة بين غلواء القصيدة التي تعيش في ذنوبها وحمأة ضميرها ، واوجاعها ، وفي بؤرة الديوان والافاعي ، وبين غلواء الواقع التي كانت مثال النقاء والوفاء ، فاقرأ هذه المقالة الهامة التي كتبها الشاعر وعنوانها **أنا وغلواء**"(٧)

---

(١) دراسات وذكريات ص ٢٠١
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٢
(٣) اولغا ساروفيم : حديث خاص اذنت بنشره
(٤) رياض حنين : المجالس المصورة . العدد ٥٤ ص ٩ سنة ١٩٥٥
(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها
(٦) من حديث خاص اذنت بنشره
(٧) ولدت بعد موت الشاعر غلواء ثالثة ، هي ابنة يوسف ساروفيم شقيق اولغا . وعمرها الان سنة وعشرة شهور .

أنـــا وغلـــــواء (١)

"أنا وغلواء او غلواء وأنا ، لا شأن لاحد في ذلك ، وكل ما يهم الناس — ان يكن هناك من يهتم بي وبغلواء — ان يعلموا من أنا ومن غلواء .

هناك غلواء ان ، غلواء "القصيدة" وغلواء الفتاة الطاهرة البريئة الحلوة العذبة ، غلواء الوحي والشاعرية . قد يكون لغلواء الاخيرة علاقة بغلواء الاولى ، ولكنها علاقة نقية لا تمت بسبب الى المشاهد الدامية الملطخة في القصيدة ، الى مشاهد الندم والتكفير بعد السقوط ...

أردت أن أنظم قصيدة او رواية شعرية ذات اناشيد اضمنها بعض المشاهد الحية من البيئة التي اعيش فيها كظلم الانسان للانسان ، وتمرد القوى على الضعيف وهذيان السياسات المريضة ، واستسلام الشباب الى شهواته ، وآتي بها على لمحة عن فتاة هذا الزمن التي يدفعها زخرف الحياة الى مستنقع الحب القذر فتتمرغ فيه فترة من الايام ثم تستفيق على صوت الضمير الى حقيقة الحب ، ولكن ... بعد فوات الاوان .

أردت ان أنظم هذه القصيدة لتكون صورة صادقة من صور هذا العصر فاستعنت على الموضوع ببعض مشاهد ابصرتها على الواح بيئتي وببعض ما خبرته بنفسي في السنوات القليلة التي مرت من عمري ، ولكي اجعل الموضوع او احاول ان اجعله حيا بقدر ما أستطيع مزجت المشاهد الدامية التي استعرضتها مخيلتي بعواطف خاصة شعرت بها بنفسي وعشتها وأعيشها كل يوم .

" ان في الادب كاتبين ، كاتبا ينسيك نفسه في ما يكتب وكاتبا تراه وتحسه في كل سطر من سطوره اما انا فالكاتب الثاني لا الاول ، لاني لا استطيع ان اخرج من ثيابي وهذا ما يعتقده الكتبة الاولون ضعفا في الآدب . "

---

(١) المعرض الاسبوعي . العدد ٩٣٤ سنة ١٩٣١

لا اريد ان ادافع عن نفسي بل اريد ان ابقى سائرا في طريقي لاني اعلم حق العلم انه ان كنت اساوى شيئا في هذا الفن الذى وقفت له حياتي فمن هذه الناحية الوحيدة وان ضئلت .

ان في الطبيعة البشرية عالما رحبا قد يكون ارحب من العالم نفسه فاذا استطاع الانسان ان يلج الى هيكله الداخلي استطاع ان يرى جميع المشاهد التي تتلون في العالم الخارجي لان الانسان عضو متكمل بذاته فلا يطرأ طارئ على المجموع الا وينطبع في الفرد اى في العضو المستقل . اذن فالانسان صورة مصغرة من هذا العالم الكبير ، والفرق بين ان يتكلم المرء عن نفسه وان يتكلم عن غيره كالفرق بين ان يقول كنت او هو وأنا .

" لم أشأ ان ارسم شيئا لم أشعر به ولم أره لئلا اخبط فيه وازيف الحقيقة فلذلك بنيت الموضوع على شطر من حياتي الغرامية ، أقول ذلك بكل جرأة ، رافع الرأس وحملت غلواء الطاهرة البريئة ، مثال الفتيات تحت هذه السماء ، تبعة الفتاة البريئة التي تنخدع بزخرف العالم فتسقط ثم يشملها الندم فتكفر بالبكاء والموت . "

أعترف انني كفرت بغلواء ، وقمرتها حقها ولكني لم اشأ أن اقف في وجه الموضوع الذى رسمته في مخيلتي وكان يقتضيني ان امزج حبي النقي بالحب القذر اى ما احسست بما اختبرت لاجعل من هاتين النظرتين عنصرا ابني عليه فكرة انسانية محضة .

يقال ان اسكندر ديماس الابن كان يهوى فتاة طاهرة فلما اقدم على كتابة روايته " ذات الكاميليا " جعل عشيقته عاهرة وابقى لها تلك العاطفة الصادقة التي خبرها فيها ، وما نهج هذا المنهج الا ليعجن موضوعه بخميرة الحقيقة ويكون صادقا في ادبه .

لقد ظن بعض الخاصة من اصدقائي وبعض من يعرف دخائلي على أثر نشري جملة مقاطع من غلواء في الصحف ، اني ادخل الناس الي خدر فتاتي واعريها على عيونهم ، ولكن هذا البعض لم يرحب نظرته كما اريد وكما كنت ارجو واتوقع ، ولو فعل ذلك لا تضح له ان الفتاة التي اعريها ليست "غلواء" التي يعرف ، بل هي فتاة العصر المخدوعة ، الفتاة المدفوعة بظواهر الحب المزيف الى هوة الشقاء الذميم .

غلواء ، ما احلى اسم غلواء ... لم يعط في الدنيا لعذراء
باهت به حواء حواء

ولما اختلت غلواء بالام نفسها ... تراءت لها سوداء اشباح امسها
مشوهة، جوفاء كالجيفة التي ... نشاهدها مطروحة فوق رمسها
تدب بها خوف مريب كانه ... طيوف تنزت من عناصر يأسها
ودب بها تذكار حب مدنس ... رأت في زواياه مشاهد رجسها
لقد كان ماضيها معيبا ملطخا ... عقوقا تناءت فيه عفة قدسها
يفوح اريج العمر في شهواته ... فقد اخلدت فيه للذات حسها

قلت ان هناك "غلواءين" غلواء التي عاشرتها وغلواء التي اختبرتها ، فالابيات الاولى تحدث عن غلواء الاولى ، والابيات الاخيرة تحدث عن غلواء الثانية . أما القصيدة فقد بنيت على هذين الاقنومين الممثلين في عنصر واحد .

هكذا شاء الموضوع .

الياس أبو شبكة
من عصبة العشرة

من هذه المقالة نتبين سر هذا التناقض بين غلواءين ، احداهما شعرية وثانيتهما حقيقية ،

لقد نظم الشاعر قصيدته فخلط بين غلواء الشعر وغلواء الحياة ، وضمت قصيدته اساسا من الواقع وتفاصيل من صنع الخيال . وقرأ الناس والادباء "غلواء" فأبهم عليهم الامر وظنوا الاساس والتفاصيل امرا واحدا . وهنا احس الشاعر ان هؤلاء يجنون على غلوائه حين ينسبون اليها ما لم يصدر عنها . فراح يبعد عنها الشبهات ، وكتب مقالته هذه ، ثم صدر "غلواء" حين نشرها عام ١٩٤٥ بهذه العبارة :

> كتبت غلواء بين ١٩٢٦ و ١٩٣٢ وليس فيها من حياة المؤلف في مطلع شبابه الا شطر ضئيل ، فهي في مجموعها من صنيع الخيال لا من صنيع الواقع .
>
> وعبثا يحاول القارىء ولو طال الزمن ومهما يطل ، ان يجد في "غلواء" مستندا لظن او موضوعا لاجتهاد . فهي حياة جماعة لا حياة فرد ، هي الحياة وليست حياة ، هي قصيدة لا تاريخ .(١)

بيد ان هذه العبارة على ما فيها من التوكيد والجزم لم تقنع كثيرا من الباحثين والنقاد . منهم بطرس البستاني الذى قال :

" وما يدرينا ان يكون هذا التنبيه سببا لجعل "غلواء" علامة استفهام تجاه "اغاني الفردوس" و "نداء القلب" و "الى الابد" فتثير فضول الباحثين في ادب هذا الشاعر الموهوب " (٢)

---

(١) "غلواء" ص ٧

(٢) دراسات وذكريات ص ٢٢

ومنهم ميخائيل نعيمه الذى جزم بان لهذه القصيدة علاقة وثيقة بالحقيقة ، فقال : " وهي ذات صلة وثيقة بحياته القلبية على الرغم مما جاء في مقدمتها بان " ليس فيها من حياة المؤلف في مطلع شبابه الا شطر ضئيل "(١)

ولقد حاول جورج غريب ان يبحث عما دعا الشاعر الى نفي علاقة القصيدة بالواقع فقال : " .. افلا تظن يا قارئي ، ان شاعرنا ينتحل ، في هذه المقدمة ، عذرا لغرض في النفس ؟

الا تراه و "غلواء " سبقت " الى الابد " تاريخيا يحاول هدم تاريخ مضى ، ليدخل الى دنيا صاحبة "الى الابد " مطهرا من "آثامه " كما ارادته فلا يبقى من غلوائه سوى ناحيتها القصصية على حد قوله ؟

قد يساورك الشك في ما اقول ، ولكنك لوعلمت ان "ابو" شبكة — وكم كان يكره ان يتلاعب كاتب باسمه — خضوعا لمبدأ الحب — دستوره في حياته القصيدة — اباد احراقا بالنار نصف "غلواء " تقريباً ، ذلك النصف الذى يمت الى غير الهة "الى الابد " بصلة ويحمل في صميمه التاريخ لا القصة ، اجل لوعلمت ذلك ، ايها القارئ لهدأ الشك في خيالك ، وعلمت الى اى حد اخلص الشاعر في حبه الاخير "(٢) .

وتعليل جورج غريب حسن ، الا انه ليس وحده القول القاطع في هذه القضية ، فعندى قول آخر اضمه اليه .

نحن نعلم ان الشاعر قد احب "ليلى "حبا عميقا ، ولكننا نعلم ايضا انه لم يتنكر لغلواء وانه ظل وفيا لها طوال حياته ، ومات بين يديها الحانيتين .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٥ . راجع ايضا مجلة الكاتب المصرى ص ٥٤٢ — ٥٤٣ عدد ابريل ١٩٤٦

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٣ — ١٠٤

لقد نظم قصيدته ، فخلط بين غلواء الشعر وغلواء الحياة ، فكان في القصيدة اساس من الواقع وتفاصيل من الخيال ، وقرأ الناس القصيدة فابهم عليهم الامر وحسبوا خيال الشاعر حقيقة . واحس الشاعر بأن هؤلاء الناس يجنون على غلوائه حين ينسبون اليها ما لم يصدر عنها ، فراح يوضح الامر بمقالته "غلواءان" . ثم بهذه المقدمة التي صدر بها "غلواء" . الا انه في حماسته ، اندفع في نفي صلة ما صنعه الخيال بما كان في الواقع ، وبالغ في النفي حتى جعل من الواقع شبحا لا يكاد يرى .

في عام ١٩٢٦ ، وهو العام الذى صدرت "القيثارة" شرع ابو شبكة ينظم شعر "غلواء" . كان في "القيثارة" يمر بمرحلة الشاعرية الاولى ، فكان حائرا في مفرق طرق . وها هوذا الان قد اختار له منها طريقا . انه شعر الحب ينظمه في حبيبته غلواء ، ويروى فيه قصة قلبه ، ويمزجه بعناصر من ثقافته الادبية الفرنسية ، وبصور ومشاهد من خياله الناشط ..

بين المواد التي يمكن عدها في مجال دراستي هذه ، وثيقة ادبية "ثمينة مادة نشرها ابو شبكة في الجمهور بعنوان "في طريق السر" واشارت اليها المجلة على انها "رواية العدد" .

هذه "الرواية" مؤلفة من مقدمة نثرية تشرح موضوع القصيدة التي تليها . وفيها نجد الصورة الاولى "لغلواء" هذه الصورة التي لحقها كثير من التغيير خلال الاعوام العديدة التي عاشتها مفرقة في الصحف والمجلات وغيرها ، قبل ان تنشر مجموعة عام ١٩٤٥ . ومنها نتبين ان "غلواء" في صورتها الاولى كانت تحمل شعورين متقابلين هما الحب والنقمة ، حب الشاعر لفتاته ونقمته على المجتمع الشرير . ولكن هذا الطابع تغير فيما بعد ، فعاد جو القصيدة للحب وحده .

ولاهمية هذه "الرواية" ادونها كلها هنا .

رواية العـــدد

في طريـــق الســـر (١)

" عنوان لقصـــيدة طويلة تبلـــغ الفا وثماني مئة بيت افنيت تسعين ليلة فـــي نظمها وقـــد ضمنتها حياة شـــاعر لبناني في ريـــق شـــبابه قضى عليها سوء الطالـــــع ان يشـــقى ويموت في الســـجن بعيـــدا عن فتاة احبها ، قضـــى عليها حظها ايضا ان تموت مريضـــة في دير موحـــش من اديرة الجبـــل .

تقسم القصيدة الى مقـــدمة وثلاثة اجزاء . الجزء الاول يتضمن العناوين الاتية : رؤيا ـ السفر ـ المريضة ـ الشفاء ـ عاشق معذب ـ عـــذاب الضمير ـ في الكنيســـة . والجزء الثاني يتضمن : امام الشمعة ـ انشودة الالام ـ العاشقان ـ في طريق السر ـ الى الدير ـ التضحية ـ نداء الى الامة . والجزء الثالث يتضمن : في السجن ـ خاتمة اليمـــة " .

موضوع القصيـــدة ـ رحلت سعاد من بلـــدتها الزوق الى مدينة صور ـ قاعدة فينيقيا في الماضي ـ لتصرف بعض الشهر عند قريبة لها تدعى وردة ، فمرضت وكادت تشـــفي لو لم يقيض الله لها ملاكا خرج من دمعة ذرفتها الفتاة في ليلة من ليالي الحمى . عندما انتشـــر خبر مرضها في قريتها الزوق نفـــذ ســـهم من الالم في قلـــب فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره . كان هذا السهم اول ضـــربة من ضربات الحب المبهم الـــذى تملك في قلـــب الفتى بـــدون ان يشـــعر به .

عنـــدما شـــفيت الفتاة وعادت الى قريتها خفت النساء والرجال لتهنئـــتها ، وكان بينهم الفتى الذى لم يكـــد يقع نظره على شحوبها حتى شـــعر بهزة في قلبـــه وادرك ان ذلك الاضطراب الاليم الذى تملكـــه عند سماعه خبر مرضها لم يكن الا الخطوة الاولى مـــن خطوات الحب ـ اى حـــب اغرب من ذلك الـــذى ينشأ عن خبر مرض مميـــت في قلـــــب

---

(١) المعرض . العـــدد ٦٦٧ سنة ١٩٢٨

برىء لم ينفتح بعد لآلام الحياة - لم تلبث الفتاة ان ادركت الامر بعدما قاسى الفتى اشد الالام في كتم سره الا انها لم تجد بدّاً من مصارحته بان حبه لها قد يؤدى الى اهوال فظيعة لانها تكتم في صدرها سرا اليما تود ان يبقى مدفونا حتى ساعتها الاخيرة . لم يقتنع الفتى بهذا القول واخذ يسعى في معرفة السر فكابد آلاما لا الم بعدها ، حتى اصبح شاعرا لا يأنس الا بالدموع ولا يرتاح الا الى الاوجاع ! الا ان السر بقي دفينا في صدر الفتاة التي حاولت كثيرا ان تردعه عن حبها فلم تفلح . وذات يوم - بعد مضي خمس سنوات على عذاب العاشقين - في حين كان الشاعر جالسا يفكر في مخدعه في بيروت - محل اشغاله - دخل عليه ساعي البريد وسلمه رسالة ففضها فاذا هي من سعاد تقول له فيها انها دخلت الدير حيث تصرف ايامها في خدمة الله القاتمة دافنة سرها الاليم بين الاروقة وسط السكون المهيب .

عند هذا شعر الفتى بان اليأس اصاب من قلبه مقتلا فوطد النفس على الانتحار الا انه عاد فقال في نفسه " عار علي ان انتحر في سبيل حبي لفتاة ، وبلادى رازحة تحت اثقال الظلم والضرائب ، فلأذهب ضحية وطني فهو احق بروحي من سواه ! اجل ساموت ولكن في طريق الشرف لا في طريق الجنون !"

في الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي كان الحاكم قد اولم وليمة في قصره دعا اليها كبراء الدولة من ارباب الطمع والظلم ، وفي حين كانت الوليمة في اسعد اوقاتها كان جمع من الفلاحين وابناء الشعب يتسمعون الى هتاف السكارى صاعدا من قاعة الطعام حيث تسيل اموال الشعب . المظلوم مع الخمور الاثيمة ! كانوا يتسمعون - وفي الصدور غصة اليمة - الى دوى الرقص صاعدا من اقدام الراقصين والراقصات في ذلك القصر المريب ! في تلك الاونة علا صوت كقصف الرعد فالتفت الشعب فابصروا الشاعر بينهم يخاطبهم بلسان الوطن المتألم ويحثهم على الثورة لنوال حقهم المهضوم ، وما كاد الشاعر ينتهي من خطابه حتى هاج الشعب

.../...

هياجا شديدا واتجه الى القصر يقوضه على رؤوس البغاة . ولكن لم يمر بعض دقائق حتى اقبلت ثلة عظيمة من الجنود الوطنيين وكادت المعركة تنشب بين الفريقين لولم ينبر الشاعر ويقف حائلا بينهما و يخاطب الجنود بقوله :

... يا رجال قفوا فما غايتنا القتال
هذى ضحايا الظلم في البلاد ضجت من الجور والاستبداد
لا تهرقوا الدم العزيز الغالي فهو بقايا من دم الابطال
دماؤكم يا اخوتي دماؤه آباؤكم بالامس هم آباؤه
لا تثكلوا الارامل الحزانى لا تغسلوا بدمكم لبنانا
فعنده من حزنه ما يغني عن هذا الكأس وهذا الحزن
انا الذى هيج هذا الشعب فلم يمل عني هوى وقلبا
فان طلبتم من اثار الفتنا ترونني امامكم كما انا !

ثم التفت الشاعر الى الشعب وقال :

... يا رمز اخي الفقير
زرعت فيكم بذرة العصيان فلتنبت القوة في لبنان
ليحي بالجهاد شجعانكم وليحي لبناني ولبنانكم

عندما شعر الفتي بان البلاد ستنغمس بدم الجريمة لم يجد بدا من حقن الدماء ولكنه زرع بذرة العصيان في صدور الشعب وسلم نفسه للعدالة الكاذبة .

....

حكم على الشاعر بالسجن لاختراقه حرمة الدولة فبقي عاما كاملا يقاسي اشد الالام .

في حجرة ضيقة كاليأس مظلمة باردة كالرمس

.../...

يستنشق المسجون في قضبانها رائحة الدموع من جدرانها
كأنما جدرانها جناة ترشح في جبينها اللعنات

الى ان مات مريضا بداء الصدر بعيدا عن اهله ، منكرا من اصدقائه حتى الذين كان يحسن اليهم ويدافع عنهم . وفي الدقيقة نفسها التي فاضت فيها روح ذلك الشاعر البائس المظلوم كانت روح تلك المبتدئة الشقية تفيض بين اروقة الدير في ذلك الجبل بعد ان قاست الام الداء ستة اشهر ونيف وفي روحها صورة الشاعر وامام عينيها خشبة الصليب .

سعاد — هذا الاسم مستعار صبية تحسدها الاطيار
لها اخ ، ووالد ، وام وخالة في حلب ، وعم
ودّا اليها ان تزور حلبا لا بسة الزهر برودا قشبا
وكان في صور لها قريبة اعطيت اسم وردة الحبيبة
فآثرت سعاد ان تزورا ام الجدود الاقدمين صورا

....

ذات صباح تم الاستعداد فسافرت فتاتنا سعاد
حتى اذا اوشكت السيارة ان تبلغ المدينة الجباره
اطلت الخرائب القديمه آثار تلك الدولة العظيمه
كأنها جبابرة الاجيال باقية لعبرة الرجال
فينيقيا ومجدها المشيد وملكها المعظم المؤيد
اميرة الفنون والتجارة وحجة العلوم والحضارة
سلطانة البحار والاسفار ملكة البرفير والنضار
لؤلؤة العروش والتيجان ومطمح اليونان والرومان
امست بقايا وطن مدمر من بعد عز شامخ منور
قائمة كالطلل المهجور على مياه شاطئ في صور

.../...

في ليلة تشع بالنجوم شاءت سعاد منظر الرسوم
فخرجت الى ضفاف البحر وشخصت الى بقايا الدهر
كأنها الهة مجنونه تابعة مواكب السكينه
وكانت المياه والصخور قائمة ما بينها القبور
فجلست تشاهد الامواجا سابحة على الحصى افواجا
تقبل القبور والرمالا وتنثني الى الوراء حالا
كأنها حشاشة حزينة ذابت على حبيبة دفينة
او ذكريات عاشق توارى يهمس في اذن الردى اسرارا
والقمر المنير والنجوم على المياه في الدجى تعوم
كادمع من مقلة الظلام منثورة في كبد الايام
واسترسلت سعاد للاحلام كشاعر في عالم الاوهام
ولبثت في منتهى رؤاها تطفو على الامواج مقلتاها
اذا نسيمات الدجى العليله
مرت على جبهتها الجميله
وحركت شعورها الجعدية ورطبت وجنتها الورديه
فالتفتت عن عنق الغزال الى ظلام الليل ذى الجلال
وشعرت برهبة السكينة فرعشت كرعشة المجنونه
ونهضت مسرعة الاقدام كشعلة في كبد الظلام
او كنسيرتائه عن وكره يجنح في طريقه من ذعره
حتى اذا ما بلغت مأواها توجعت من ألم عراها
ودب في احشائها اللطيفة قعقعة ورجفة عنيفه

الياس ابي شبكه

هذه الصورة الاولى لغلواء تغيرت عام ١٩٣٠ حين نشر الشاعر اثنين وثلاثين بيتا من الشعر عنوانها "المرأة في طبيعتين"[١]، وجعل الابيات قسمين سمى الاول "المراة السماوية" وسمى الثاني "المرأة الجهنمية". اما المرأة السماوية فهي غلواء، واما الجهنمية فوردة. وبمقارنة هذه الابيات بما آلت اليه في "غلواء" نجد انها باتت ثلاثة وعشرين بيتا فقد حذف الشاعر منها تسعة ابيات، ونقح البيت الاول. كان:

غلواء ـ هذا الاسم مستعار ـ صبية تغبطها الاقمار

فصار:

غلواء ـ ما احلى اسمها المعطارا ـ صبية تغبطها العذارى

.

ومثل هذا الحذف والتنقيح قد لحق اجزاء اخرى كثيرة من "غلواء". منها هذا الجزء الذى جعله الشاعر في "التجلي" وجعل رقمه "٢"[٢]

والجزء الذى يبدأ بهذا البيت:

اى خيال حل في غلواء اى رؤى محرقة سوداء

وينتهي بهذا البيت:

وقام في احلامها المعذبة رؤيا كأنما هي المرتكبة:[٣]

---

(١) المعرض. العدد ٩٠٤ ص ١٠ سنة ١٩٣٠

(٢) "غلواء" ص ٧٢ والمعرض. العدد ٩٤٣ ص ٧ سنة ١٩٣١

(٣) "غلواء" ص ٢٩ ـ ٣٣ والمعرض. العدد ٩١٨ سنة ١٩٣٠

والجزء الذى يحمل الرقم (٤) في "العهد الثاني" (عذاب الضمير)[١]

والجزء الدى يحمل الرقم (٥) من العهد نفسه[٢] . ومطلع العهد الثالث (التجلي) [٣]

٥

وهذا الذى ذكرته عن تنقيح الشاعر لكثير من شعر "غلواء" تحدث عنه ، فقال في حديث له مع فؤاد حبيش: "لو تعلم ما قاسيت في خلق هذه القصيدة ! فقد هدمت نشيديها الاول والثاني مرتين ، واعدت نظمها من جديد ، وانا مرتاح الان الى ان وحدة المبنى قد اقترنت بوحدة المعنى والجو"[٤] .

ولا شك ان ما تقدم ينقض دعوى من قال : "والواقع كان ابو شبكة قليل العناية بشعره قلما نقحه وصقله عفويا طريا يشوبه احيانا تقلقل واهمال في الصيغة ."[٥]

---

(١) "غلواء" ص ٥١ ـ ٥٤ والبرق ، العدد ٣٣٨٨ ص١١ سنة ١٩٣١
(٢) "غلواء" ص ٥٥ ـ ٦٢ والبرق ، العدد ٣٣٧٢ ص٥ـ٦ سنة ١٩٣٠
(٣) "غلواء" ص ٦٥ ـ ٧١ والمعرض ، العدد ٩٢٦ ص ١٦ سنة ١٩٣٠
(٤) دراسات وذكريات ص ٩٥٢
(٥) مختارات من الياس ابو شبكة ص ١٤ (لم يذكر الكاتب اسمه)

احـرا ق نصـف "غلواء "

روى فؤاد حبيـش ان "غلواء " كانت تقـع في اكثر من الف وثلاثمائة بيت ، فلما نشـرها الشـاعرعام ١٩٤٥ لم تزد ابياتها على نصـف هـذا العدد . وانه التقـى بالشاعر وتحدثا عن "غلواء " فسـمعه يقول : " انها لم تبـق على حالها الاولى فلـم انشـر من ابياتها سـوى نصـفها ." فقـد احرق النصـف الثاني نزولا عنـد مشـيئة حبيبته الاخيرة "ليلى " واكراما لحبها . ويضيـف حبيـش ان بطـرس البسـتاني حضر آخـر هـذا الحديث فانكـر مثله ما سـمع ودهـش لـه (١) .

ويؤيـد جورج غريـب هـذا الخـبر ، ويذكرانه لام الشـاعر لاحراقـه نصـف "غلواء " فرد عليـه بنبرته العصبية المعتادة : " لا تلمـني ،فقـد اتلفـت من "غلواء " اروع شـعلها ،اتلفـته احراقا بالناركي لا يسـتميلني شـيء الى نشـره في يوم من الايام . ثم قال ،وبنبرة اشـد يقينا بالنفـس من الاولى : حرام علي ، بعد اليوم ، الغزل في سواها ..."(٢)

الخـبر اذن وثيـق . يـذكره اثنان ، ويسـتشـهد احدهما بثالـث ولكـن هـذا الخـبرعلى وثاقته لا يجـد له مسـتندا متينا في معرض البحـث والدراسـة .

كان ابو شـبكة من الشـعراء الذين ينشرون شـعرهم مفرقا في الصحـف والمجلات فاذا تكامـل لهم منه ما يؤلـف مجموعـة شـعرية جمعوه واضـافوا اليه ما لم ينشـروه من قصـائـد ثم نشـروه مرة واحـدة في كتاب واحـد . فعـل ابو شـبكة هـذا في شـعر "غلواء " كما فعله في شـعر المجموعات والدواوين الشـعرية الاخرى . بل انـه كان ينشر بعض قصـائده، اكثر من مرة في اكثر من صحيفة ،ومن ذلك قصيدته "القصـيدة المفقودة " فقـد نشـرها ثلاث مرات .(٣)

---

(١) دراسات وذكريات ص ١٥٢ ـ ١٥٦

(٢) المصـدر نفسـه ص ١٠٤

(٣) العاصفة . العدد ٦٤ ص١٩ سنة ١٩٣٣ والمعرض العدد ١٠٩ ص٣ سنة ١٩٣٦ والمكشوف العدد ٣٣٥ ص١ سنة ١٩٤٢

واذا نحن عدنا الى ما رواه حبيش وغريب نجد ان ما احرقه ابو شبكة يناهز ستمائة وخمسين بيتا من الشعر وهنا نتساءل : لماذا لا نجد هذه الابيات الكثيرة في الصحف والمجلات ، اولماذا لا نجد القليل منها ؟

ان ما عثرت عليه من شعر "غلواء" ، في الصحف والمجلات قد تضمنته كلمة "غلواء" بعد تنقيحه وحذف بعضه . فاين ذهبت الابيات الستمائة والخمسون ؟ لماذا لم ينشرها الشاعر كما نشر غيرها ، ولم يكن يوم نظمها قد تعرف بليلى [1] ، فيمنعه حبها من ان يجاهر بحبه العنيف القديم ؟

ان الذى استنتجه ان الشاعر ان كان قد احرق من "غلواء" شيئا فقد احرق ابياتا كانت من الشعر في مستوى غير عال ، ومعظمها مما نظمه في زمن مبكر من حياته ، وبسرعة . فقد بدأ نظم "غلواء" عام ١٩٢٦ واتمها عام ١٩٣٢ ونشرها عام ١٩٤٥ . وفي هذه المدة الطويلة الفاصلة بين نظمها ونشرها نمت شاعريته ، وصار ناقدا ادبيا حريا بان ينظر الى شعره بعين الناقد البصير فينقح بعضه ويحذف البعض الاخر .

وليس صحيحا — في رأيي — ان يكون ابو شبكة قد احرق ما احرق من شعر "غلواء" ليكون ضحية على مذبح حب جديد ، اذ لو صح ذلك لوجب ان تشمل عملية الاحراق الكثير من شعر "غلواء" المنشور ، ففيه من العاطفة المتقدة ، والغرام العنيف ما لا ينجيه من عقوبة الاحراق ..

---

(١) انتهى الشاعر من نظم "غلواء" عام ١٩٣٢ وبدأت علاقته بليلى عام ١٩٤٠

هذه القصيدة الطويلة بما فيها من رومانسية متمثلة في الكآبة والقلق والتمرد ، وفي اصطراع الواقع والمثال ، وفي ازدواجية الحبيبة ثم بما تحفل به من براعة الوصف ونشاط الخيال وجدة التشبيهات ، ما موقعها من فنون الادب وما منزلتها من الشعر ؟ اهي قصة شعرية كما رأى بعض الكتاب (١) ؟ ام هي شعر فيه "عرق القصيدة القصصية " كما رأى رئيف خوري (٢) ؟ ام هي غير ذاك وهذا ؟ .

اقول اننا نستطيع ان نعدها قصة شعرية ،او شعرا قصصيا اذا طبقنا عليها مفهوم الشعر القصصي عند العرب ، وهو مفهوم واسع النطاق غير متشدد . اما اذا نظرنا اليها بمفهوم الشعر القصصي عند الغربيين ،فستكون لها هوية اخرى .

يقول هـ . ب . تشارلتن (H. B. Charlton) في تمييزه بين الشعر القصصي والشعر الغنائي " نستطيع القول بصفة عامة ان الشعر ضربان ، فالقصيدة اما ان تحكي عن حوادث واشخاص واقطار وبلاد ، واما ان تعرب عن الحالة النفسية الداخلية التي تسود الشاعر وهو ينشئها . او بعبارة اخرى . اما ان تحكي القصيدة عن العالم الخارجي ، واما ان تعبر عن العالم الداخلي عند الشاعر نفسه ، فاما النوع الاول فنسميه شعرا قصصيا واما الاخر فهو الشعر الغنائي او الوجداني وطبيعي ان يتداخل النوعان ، فالقصيدة القصصية التي تأخذ نفسها قبل كل شيء ، بالرواية عما وقع من افعال وحوادث ، قد تفسح المجال آنا بعد آن لهذا الشخص او ذاك ، من اشخاصها ان يفصح عن مشاعره على نحو ما تفعل القصيدة الغنائية ، وقد تجد

---

(١) محمد سعيد العريان : الكاتب المصري ص٥٤٢ - ٥٤٣ عدد ابريل ١٩٤٦
وصبيح النهوند : المشرق ج ١ ص ٧٢ سنة ١٩٤٦

(٢) المكشوف ٤٢٤ سنة ١٩٤٦

قصيدة قصصية مثقلة بعاطفة راويها وعواطف سامعيها والاشخاص الواردة فيها ، حتى لتكاد تخرجها العاطفة السارية من نوع الشعر القصصي الى النوع الوجداني الغنائي "(١)

من هذا الذى يقوله تشارلتن نتبين ان "غلواء" ليست شعرا قصصيا وان تحدث فيها الشاعر عن "حوادث واشخاص واقطار وبلاد" لامر واضح هو ان ما تحدث عن الشاعر ليس عالما خارجيا ، وان بدا كذلك ، فقد كان هذا العالم وثيق الصلة بقلب الشاعر ، منه انبعث وفيه عاش وصار بالنسبة اليه عالما داخليا يعبر عنه بعاطفة جياشة ، وتتردد فيه انفاسه في كل مقطع من الشعر .

هي اذن ، وان تضمنت قصة ، ليست شعرا قصصيا بالمفهوم الغربي الحديث . وهذا يدنيها الى ان تكون من الشعر الغنائي الوجداني الذى كان ابو شبكة في معظم شعره بلبله الصداح ، او حمامته الناحة .

---

(١) فنون الادب ص ٦٢ (ترجمة زكي نجيب محمود)

اما منزلة "غلواء" الشعرية ففي هذا الاطار الشامل الذى احاط به الشاعر معناها ومبناها .

هي قصة حب بسيطة ولكن صاحبها بعاطفته الرومانسية الحادة قد مسها بمثل تيار كهربائي فماجت بالحركة حتى اعماقها ، ثم جعل منها قصة قلب ، فقصة حياة بل قصة انسانية عامة تعبر عن النفس الحائرة ، الطامحة الى السعادة وسط موجة من الشقاء .

وهي عدة مئات الابيات جعل منها الشاعر عهودا اربعة هي "المرض" و "عذاب الضمير" و "التجلي" و "الغفران" . وجعل من العهود الاربعة بناية شعرية " هي آخر ما ارتفع من البنايات في الشعر اللبناني ، بعد "الداء والشفاء" و "نيرون" و "شاعر في طيارة" و "عبقر" و "بنت يفتاح" و "قدموس"(١)

ولقد كان من الممكن ان تكون هذه البناية اكثر تماسكا ، وان يكون تصميمها اوفر تناسقا وانسجاما لو لم يحذف الشاعر منها ما حذف ، ولو لم يبنها خلال اعوام عديدة ، تطور فيها فنه وتغيرت احجاره .

---

(١) فؤاد افرام البستاني : دراسات وذكريات ص ٣٨

افاعي الفـــــردوس

. . . .

قال ميخائيل نعيمه ، في كلمته " شاعر يغمس قلمه في قلبه " ، متحدثا عن شاعرية ابي شبكة :

" لكنني لا ارى شاعرنا بلغ قمة شاعريته الا في " افاعي الفردوس" . فهذه المجموعة هي بحق تحفة نادرة في شعرنا العربي . وما اعرف شاعرا من شعراء عهدنا الجديد يستطيع ان يأتي بمثلها ، او ان يدانيها في وصف الشهوات الجسدية الجامحة ."(١)

وقال محمد النقاش ، في نقد " افاعي الفردوس" : " ابرز ما في افاعي الفردوس جدته . فهو فتح جديد في عالم الشعر العربي على الاطلاق ، اذ لم يسبق لشاعر قبل ابو شبكة ان نفذ الى اعماق النفس البشرية وعراها من شهواتها ، ورسم هذه الشهوات في صراحة وجرأة بعيدتين دون تبذل ولا انحطاط ولا تكلف او زيف ..."(٢)

وقال فؤاد سليمان : " اقرأ " افاعي الفردوس" لتؤمن مثلي ، بعد ان تقرأه ، ان الياس ابو شبكة يخيم بجناحيه على هؤلاء الشعراء الاقزام الذين تحسبهم جبابرة .."(٣)

وقال حسن كامل الصيرفي : " ان ديوان " افاعي الفردوس" لجدير بالحياة لانه صوت للحياة لا رياء فيها ولا تزويق ، ولا خداع ولا تهويل ."(٤)

وقال بطرس البستاني : " وجدير بالذكر ان " افاعي الفردوس" لون جديد في الادب العربي ينفرد به ابو شبكة ، ويبقى له لا تمتد اليه يد الفناء .."(٥)

---

(١) دراسات وذكريات ص ٢٥
(٢) المكشوف . العدد ١٧٣ ص ٦ سنة ١٩٣٨
(٣) المكشوف . العدد ١٨٢ ص ٨ — ٩ سنة ١٩٣٩
(٤) المكشوف . العدد ١٧٩ ص ٥ سنة ١٩٣٩
(٥) دراسات وذكريات ص ٢٠

وقال مارون عبود : " ان صاحب " افاعي الفردوس اصدق شعراء اليوم على الاطلاق ."(١)

قيل هذا في " افاعي الفردوس" ، وقيل كثير غيره . بل قل ان ظفر ديوان شعر عربي موحد بمثل ما ظفرت به هذه المجموعة الشعرية الفذة من اهتمام الادباء والنقاد العرب منذ ظهرت حتى اليوم .

فما الذي ميّزها ، فأثارت ما اثارت من نقد ، واستحقت ما استحقت من ثناء ؟

لنعد الى عام ١٩٢٨ ، في هذا العام كان الشاعر في الخامسة والعشرين من عمره وقد اجتاز من مراحل الشاعرية مرحلة المقرزمين ، وترك لها ديوانه الاول " القيثارة ".

في هذه السنة كان قلب الشاعر، كما يبدو من شعره ، يجتاز ازمة عنيفة (٢) . نجد صورتها في قصيدة له عنوانها " قبل الزلزال "(٣) نشرها في مجلة " المعرض" وهي القصيدة التي تضمها " افاعي الفردوس" بعنوان آخر هو " الصلاة الحمراء " ، وليس بينها هنا وبينها هناك الا فارق بسيط يتمثل في بيت حذف وكان ثالث ابيات القصيدة ، وهو :

عصيت ما انزلته حكمتك على عيسى وطه بانجيل وقرآن

وفي احلال " وانذرتني " محل " فانذرتني(٤) " في البيت الرابع و " فحال "(٥) محل " فشاب " في البيت الثالث والعشرين . و " لفارس "(٦) محل " الى الفرس " في البيت :

ابقت لفارس ذكرى كسرى انوشروان

---

(١) مجددون ومجترون ص ١١٤
(٢) بطرس البستاني : دراسات وذكريات ص ١٩
(٣) المعرض . العدد ٨١٩ ص ٣ سنة ١٩٢٩
(٤) افاعي الفردوس ص ٥٠
(٥) افاعي الفردوس ص ٥١
(٦) افاعي الفردوس ص ٥٣

في هذه القصيدة نجد الانطلاقة الاولى الى هذا الدرب الذى نهجه ابو شبكة في "اغاني الفردوس" ،في القصائد الاثنتي عشرة التي تضمنها هذه المجموعة ، والتي نظمت سبع منها عام ١٩٢٩ ، وواحدة عام ١٩٣١ واثنتان عام ١٩٣٣ و واحدة عام ١٩٣٤ وواحدة عام ١٩٣٨ .

في هذه القصيدة نرى انسانا خاطئا ،يثقل قلبه شعور اليم بالاثم ،ورغبة حارة في التطهر والتوبة . فهو يرفع " صلاته الحمراء " لله صارخا :

رباه عفوك ، اني كافر جان جوعت نفسي واطعمت الهوى الفاني
تبعت في الناس اهواء محرمة وقلت للناس قولا عنه تنهاني
ولم افق من جنون القلب في سبيلي
الا وقد محت الاهواء ايماني
رباه عفوك، اني كافر جان !(١)

وتستمر صلاته وتطول ، فيعترف لله بآثام ماضيه ،ويقر بحقارة شأن الانسان :

وغاب عني اني عشبة نبتت على جوانب ابريق من الخزف
على جوانب ابريق اذا نظرت عين الى عتقه انحطت على تلف
فخارة ذات نتن قديمة كالزمان
مرت عليها قرون فغال لون الدهان
ومهد النتن فيها مسارب الديدان
فخارة دفستها خواطر الانسان(٢)

---

(١) اغاني الفردوس ص ٥٠
(٢) اغاني الفردوس ص ٥١

ويستمر الحديث في هذه الفخارة القديمة المنتنة ، فلا يكاد ينتهي حتى يبدأ حديث ثان في عبر الدهر واخبار من عز فذل .. تتواثب اسماء من بطون كتب التاريخ .. قايين ، ونيرون ، والاسكندر ، وديوجين وجنكيز وكسرى ، وخورنق النعمان ، والرومان ..

ويعود بعد حين الى الابتهال ، وقد شاب هدوءه انفعال ما يلبث ان يتبدد وتنتهي الصلاة بهذا الاسترحام :

رباه عفوك ، اني كافر جان

....

بين النقاد والادباء الكثيرين الذين نقدوا "افاعي الفردوس" وتحدثوا عنها الدكتور شوقي ضيف في كتابه "دراسات في الشعر العربي المعاصر" فقد عقد لهذه المجموعة الشعرية فصلا كاملا عنوانه (اللذة الصاخبة في "افاعي الفردوس" لابي شبكة) جاء في ختامه قوله "واظن انه قد اتضحت لنا حقيقة ابي شبكه وانه لم يكن من شعراء اللذات الصاخبة والنزوات الجسدية، فما جاء على لسانه من ذلك انما هو قول شاعر، يقول ما لا يفعل، وينظم ما لا يعتقد، ويغني بما لا يحس في نفسه منه اثرا"(١).

واقول ان ظن الدكتور ضيف خاطيء، وان حقيقة ابي شبكة لم تتضح له، وان ابا شبكه لم يكن هذا الشاعر الذى يصفه .. "يقول ما لا يفعل، وينظم مالا يعتقد، ويغني بما لا يحس منه اثرا". والذى اوقعه في هذا الخطأ حسبانه انه يستطيع ان يعرف حقيقة شاعر "افاعي الفردوس" من استنتاج يبنيه على قراءة لديوان هذا الشاعر لا تظاهرها معرفة باخباره او اطلاع على مقالاته او اتصال بعارفيه، فجانب الصواب فيما ظن واستنتج وقال في اسهاب وتفصيل ما اجمله من قبل ميخائيل نعيمه حين قال: ".. ما كان من الصعب على صاحب "افاعي الفردوس" ان يصف الفجور وهو ابعد ما يكون عن الفجور"(٢).

اما الحقيقة الواقعة فهي ان المراة التي يتحدث عنها ابو شبكة في "افاعي الفردوس" ولا سيما قصيدته البائية، امرأة من لحم ودم لا من صنيع الخيال. والاثم الذى يريد ضيف ونعيمه ان يبرئاه منه يعترف به ابو شبكه نفسه اعترافا مفصلا، فيتحدث عن هذه المرأة التي اتصل بها في ايام صباه، حين كان قلبه عامرا بحب "غلواء"، ويتحدث عن العلاقة الجنسية التي قامت بينهما، وعن القصيدة البائية التي كانت اولى ثمار هذه العلاقة حديثا لا تنقصه الصراحة والجرأة. انه يقول:

---

(١) ص ٦٥

(٢) دراسات وذكريات ص ٨٤

" اذا خلعت عليها الاوصاف المألوفة لتعريفها اتيت على صورة باهتة عن قوة شعوري بما عشقت فيها من مزايا الانوثة ، واذا خرجت في تعريفي اياها عن مألوف التعبير بما يوائم ظهور مزاياها على الجمال الشائع اخشى ان ارسم لهذه المزايا حدودا فاسيء الى المدى الغير المحدود لقوة شعوري بما عشقت فيها .

ومن غرائب هذه القوة في شعوري انها كانت ترفع خيالي عن اخصب تربة في مغرس الانوثة من هذه المرأة ، وربما كان لهذه العفة اسباب لا رأى فيها للعاطفة البشرية بل للضمير ، فقد كانت ذات بعل وولد وكنت من الشباب في مرحلة شعرية عذراء ، هي المرحلة التي تتصارع فيها العاطفة البريئة والشعور العنيف في مفترق الطريق بين المدرسة والمدينة .

كان الزوج نائيا والولد طفلا .

وكنت اختلس من غلواء ساعات اصرفها في مخدع هذه المرأة ، ولم يكن يخطر في نفسي ان الحب بيننا سينحدر يوما عن جذعنا الاعلى ، حتى جرى ذلك في ليلة ماطرة هلك نصفها في الخمر وكانت نبيذا .

ففي تلك الليلة ضربت الشهوة على كأسينا جسرا احمر فرأيت بعيني ما لم أر بعيني خيالي ، رأيت جسدا عاريا يتهالك علي فتأخذه عيناى الغائمتان كأنهما في غيبوبة او في حلم .

وبدرت مني التفاتة شاردة على الحائط فوقعت عيناى على صورة الزوج ... فهربت . هربت من مخدع من احب ، وكانت الليلة ماطرة والطريق سوداء .

على ان جذورا من قصيدة كانت تقتلع من كياني : " ما لي ارى القلب في عينيك يلتهب ؟ .. طيف من الشهوة الحمراء تغزله خمر الليالي ؟ ... ووجهك الشاحب الجذاب ... وحق طفلك ... فكيف اختلس الحق الذى اختلسوا ؟ .. قولي له جئت في عصر الخمور فلا تشرب سوى الخمر واشحب مثلما شحبوا ... صبوا الخمور فهذا العصر عصر طلا اما السكارى فهم ابناؤه النجب .

.../...

وفي اليوم التالي كتبت هذه القصيدة :

لا تقنطي ان رأيت الكأس فارغة يوما ، ففي كل عام ينضج العنب

....

قد اشرب الخمر لكن لا ادنسها واقرب الاثم لكن ليس ارتكب

لم ارتكب الاثم في تلك الليلة ، على اني ارتكبته في الليالي التالية ، وهذه الليالي كانت جنونا ... وضعت له حدا في ليلة مخمورة كلها يقظة ونار . ففي هذه الليلة تركت خمارة القرية وفي نفسي براكين ، وكانت الطريق سوداء ، على ان جذورا من قصيدة كانت تقتلع من كياني : " سترجعين ولكن مثل آمالي جوفاء ... سترجعين مدماة مشوهة ... سترجعين كطيف مر في حلمي ليلا فذكرني في الحلم اهوالي... سترجعين ولا اقصيك عن جسدى ... اميرة الشهوة الحمراء ان دمي من نسلك الهادم المهدوم ... خلقت تحترفين الموت ... اشقى بلذتي الحمراء في جسدى واختفي... خذى بثأرك مني انني ولد ... اما ضميرى فلن يقوى عليه هوى ... وتنجز الشهوة الحمراء دورتها فيحي رحم من بين ارحام ."

وفي اليوم التالي كتبت هذه القصيدة :

اجل ستذكرك الاعقاب والحقب ما دام في الارض من صلب الزنى عقب
لا مثلما ذكر الافرنج "لورهم" ولا كما ذكرت عفراءها العرب
بل مثلما ذكرت روما قبائحها في مقلتي "مسلينا" وهي تضطرب
هذا هو الليل فاسقي السم هاتفه لعل في الناس قوما بعدما شربوا
وسرحي يدك الصفراء فوق هوى يسيل في محجريه الجهد والتعب
ولتكن هذه الاشارة رمزا لاصفرار على الملذات مرا
لو فيها بالاصفرار الى ان يختم الموت نزعها المستمرا

ومنذ ذلك الحين وقعت في الصحف على الف "شهوة حمراء" في الف قصيدة بيضاء ."(١)

وهذا الذى يرويه ابو شبكه يشير الى بعضه صلاح لبكي في كلمة له ،قديمة العهد ،ويضيف الى ما رواه شاعرنا ،وصفا لبيت "بطلة "الافاعي" :

" ليلة من ليالي ١٩٢٩ ،وفتي على طريق من طرقات "الذوق" يتجه نحو بيت قائم في اطراف القرية يطل من الربوة على خليج نهر ادونيس ... هذا الفتى يحمل لمعبودته قصائده متوخيا ان تتصل روحه بروحها ،وما هي فقد آثرته على اشعاره فانهارت القدسيات في نفسه وتبددت روعتها .."(٢)

بل ان هذا كله منسجم مع ما عرفه عن خلق ابي شبكة اصدقاء له صميمون ، منهم فؤاد حبيش الذى يقول :

" فانت ترى ان الياس ابو شبكة لم يكن قديسا بالمعنى الرهباني الاصيل ،عاذر العفة ، ولا كبح مطالب الجسد ،ولا آثر التحرق عملا بوصية بولس الرسول . كان انسانا من لحم ودم واعصاب ،وعاطفيا متدفق العاطفة مشتعلها ،وحساسا رهيف الحس دقيقه . احب وشقي وتألم كما يحب كل انسان ويشقى ويتألم ،تارة على شكل خاص به دون سواه ،وتارة اخرى على اشكال تلاقي فيها وسائر المخلوقات البشرية . فكان حتما عليه ان يتعرض للزلل او يتشوق الى الكمال كما يتشوق كل آدمي الى هذا ويتعرض لذاك ."(٣)

في "افاعي الفردوس" اذن تجربة حقيقية . هي هذا الحب الجنسي الجديد الذى اوثقه حينا بهذه المرأة التي نأى زوجها وظلت مع طفلها الصغير في منزلها القائم على ربوة من ربى "الزوق"

---

(٢) الجمهور . العدد ٧٩ ص٧ سنة ١٩٣٨
(٢) = . العدد ١٠٨ ص١١ سنة ١٩٣٩
(٣) دراسات وذكريات ص١٦٤ — ١٦٥ (راجع ايضا ما كتب في هذا الصدد الدكتور علي سعد (مجلة الاديب ج ٣ ص ٦ سنة ١٩٥٣)

هـذه التجربة الصادقة التي يتحدث عنها ابو شبكة ويدون تفاصيلها ويبرز آثارها ، اذ تتحول من قيمة شعورية الى قيمة تعبيرية تمر في طريقها بتجارب اخرى عميقة الانطباع في نفس الشاعر ، وهي تجارب قديمة تجسدت في افكاره بمفاهيم عن الحب والمجتمع والحياة . هذه التجارب وهذه المفاهيم نتاج لذلك الصراع الذى نشب بين " واقع " الشاعر و " مثاله " وكان من قبل المحور الذى دار حوله شعر " القيثارة " والمفتاح الذى فتح السبيل الى كشف معالم نفسيته فيها .

قلت عند حديثي عن " القيثارة " ان للقيثارة شأنها في دراسة شعر ابي شبكة ، فهي تتضمن الخطى الاولى للمناهج التي سلكها الشاعر فيما ابدعه بعدها من شعر . واقول الان ان محور " القيثارة " ومفتاحها ما يزال = الى حد بعيد ـ محور " افاعي الفردوس " ومفتاح دراستها ، فالذى يبدو لي ان السنين القلائل التي تفصل " القيثارة " عن " افاعي الفردوس " زمنيا لم تغير كثيرا من " الواقع " الذى كان شاعرنا ناقما عليه ، ولا من " المثال " الذى كان طامحا اليه ..

وبين هذه النقمة وهذا الطموح تفح " الافاعي " وتنفث سمها في خصميها اللدودين : النساء الخائنات والناس الاشرار .

كان ابو شبكة في " القيثارة " عاشقا ظامئا الى فرحة الحب ، ولكنه لم يبل بها قلبه ، لانه كان في اندفاعه الرومانسي يتمثل حبيبته مخلوقا خياليا اسطوريا له من المزايا والمحاسن ما ندر ان امتلكته كله امرأة واحدة ، ثم يتعذب حين يرى ان ما تمثله في الخيال اعز من ان يكون حقيقة تدرج على الارض .

وها هوذا في " افاعي الفردوس " يضيف الى شقاء قلبه الظامىء شقاء جديدا ، ينبع هذه المرة عن غير الخيال .

ان "غلواء" التي كانت تعاني — في "القيثارة" — منافسة غريمتها الخيالية ، صارت تعاني الان منافسة غريمة حقيقية (١) ، ولكنها باتت املك لحبيبها فقد انضم الى جانبها ووقفا معا يردان هذه الغريمة .

في هذه المرحلة من حب ابي شبكة يتمثل لنا روسو رائد الرومانسية — كما حدثتنا "اعترافاته" — موزع القلب في صباه بين حبين ، احدهما حب فارس من فرسان القرون الوسطى لحبيبته ، وثانيها علاقة واقعية بالمعنى الذى يفهمه اميل زولا (٢). وفي هذه المرحلة ينتصر ابو شبكة لحبه الاول فيصدق فيه قول الشاعر القديم :

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الارض يألفه الفتى وحنينه ابدا لاول منزل

انه يخاطب الحبيبة الجديدة ، فلا ينسى غلواءه :

يا ابنة الاثم هذه شفتايا فارشفي منهما رحيق الخطايا
واعصري ما استطعت قلبي ، فقلبي لم يزل فيه من غرامي بقايا
وتوقي احدى زواياه ، لا تقسي فلي حرمة باحدى الزوايا
ان في قلبي البغي خيالا من عفاف ما فاجرته البغايا
ان تكن حفنتي المدماة ملكي فخيال العفاف ملك سوايا (٣)

ثم ينقض على هذه الحبيبة اشد انقضاض ويوسعها سبا وحربا :

اميرة الشهوة الحمراء ان دمي من نسلك الهادم المهدوم فاحترمي
خلقت تحترفين الموت فاقتربي مني فاني احترفت الموت من قدم

---

(١) راجع قصيدة "حديث في الكوخ" ففيها تتحدث غلواء مع شاعرها الى الحب الغريم "الافاعي" ص ٤٨ .

(٢) I. Babbit: Rouseau and Romanticism P.176

(٣) افاعي الفردوس ص ٣٨

حملت منجله في العهر منتقما من النساء فهاتيه لتنتقمي !
هاتي من العهر اشكالا ملونة نمهر بها بعضنا بعضا وننهدم
لقد تعبت من الاحلام في جسد من العفاف بالوان من الالم
. . . .
سترجعين ! ولكن مثل آمالي جوفاء مشلولة في جسمك البالي !
سترجعين مدماة مشوهة ادنى الى الموت مني رغم اثقالي (١)

وتتمثل له في خيانتها زوجها خيانة النساء عامة ،فيقول :

ذكرت ليلة امس فاختلجت لها والليل سكران مما سحت السحب
ذكرتها غير ان الشك خالجني ان النساء اذا راوغن لا عجب
فهن من حية الفردوس امزجة يثور فيهن من اعقابها عصب (٢)

ان هذه النقمة على النساء ،المتأتية من خيبة الشاعر في العثور على المرأة المثالية ، لتحكي نقمة الشاعر الفرنسي الفريد ده فيني . لقد فتش هذا الشاعر طويلا عن مرأة احلامه ولكنه خاب في مسعاه ،فانتفض غضبا وكبرياء ، وفي قصيدته الشهيرة "غضب شمشون" (La Colère De Samson) لبس قناع شمشون وانقض على "دليلة" مقرعا شاتما . قائلا :

Et, plus ou moins la femme est toujours Dalila (٣)

ثم رأى ان يتراجع ببرجه العاجي — حيث يستطيع ،على الاقل ،ان يتحد بالطبيعة وبالمرأة المثالية (٤) .

---

(١) اغاني الفردوس ص ٤٢
(٢) اغاني الفردوس ص ٣٢
(٣) (بالاجمال : المرأة "دليلة")
(٤) I. Babbit: Rousseau and Romanticism P.257

قلت ان قصيدة "الصلاة الحمراء" كانت انطلاقة الشاعر الاولى نحو هذا الطراز الفريد من الشعر الذى نقرأه في "الافاعي"، وكانت هذه القصيدة كما سماها يوم نشرها في المعرض "قبل الزلزال" حقا. ففي عام ١٩٢٩ اندفعت حمم الزلزال حارة ملتهبة "في هيكل الشهوات"(١) و"الافعى"(٢) و"عهدان"(٣) و"الشهوة الحمراء"(٤) و"حديث في الكوخ"(٥) و"الخيال النقي"(٦) و"شهوة الموت"(٧).

ولكن الذى تطور من صفة هذه الحمم انها لم تعد من نصيب النساء الخائنات فحسب، بل شاركهن في التعرض لها الناس الاشرار".

واذا بالشاعر في قصيدته "شهوة الموت":

ناقم على السماء — حاقد على البشر
ساخط على القضاء — ثائر على القدر(٨)

واذا به بعد عامين من هذه النقمة ينظم قصيدته "سدوم". فنسمع قصة لوط والخمرة التي شربها، وابنته التي اضجعت معه. وقصة خراب "سدوم". وانه ليبدأ قصيدته محرضا ابنة لوط على سقاية ابيها الخمر والاضطجاع معه قائلا:

مغناك ملتهب وكأسك مترعه — فاسقي أباك الخمر واضطجعي معه
لم تبق في شفتيك لذات الدما — ما تذكرين به حليب المرضعه

---

(١) افاعي الفردوس ص ٣٢
(٢) افاعي الفردوس ص ٣١
(٣) افاعي الفردوس ص ٣٩
(٤) = = ص ٤١
(٥) = = ص ٤٧
(٦) = = ص ٣٨
(٧) = = ص ٤٥
(٨) المصدر نفسه

قومي ادخلي يا بنت لوط على الخنى وازني فان اباك مهد مضجعه
ان ترجعي دمك الشهي لنبعه كم جدول في الارض راجع منبعه
لا تعبأى بعقارب ربك انه جرثومة من نارك المتدفعه

ان قصيدة "سدوم" هذه "ترمز الى الحضارة الشاذة في هذا العصر"(٢)،

اسدوم هذا العصر لن تتحجبي فبوجه امك ما برحت مقنعه
كانت منكرة كوجهك عندما هبت عليها من جهنم زوبعه
قذفتك صحراء الزنى بحضارة ثكلى مشوهة الوجوه مفجعه
بؤر مسترة الفساد بخدعة نكراء بالخز الشهي مرقعه(٣)

والذى يهدف اليه ان يدعو على هذه الحضارة بالدمار كما دمرت سدوم في التاريخ اوفي التوراة(٤)

وفي عام ١٩٣٣ لبس ابو شبكة قناع شمشون كما فعل ده فيني لا ليهاجم المرأة الخائنة وحدها، بل ليهاجم ايضا " هيكل الظلم والرياء " وليهدمه كما هدم شمشون التوراة الهيكل(٥). وقصة شمشون كما يلخصها مارون عبود، وهو من قرأ التوراة "من الجلد الى الجلد"(٦)، هي ان "شمشون" احب امرأة من بنات الفلسطينيين، ثم تركته فغضب على قومها واحرق بيادرهم وزروعهم. وتهدد الفلسطينيون قومه فسلموهم اياه ولكنه قطع وثاقه، وقتل بفك حمار الف رجل منهم .. ثم احب دليلة .

---

(١) افاعي الفردوس ص ٣٥
(٢) الياس ابو شبكة : مجلة الجمهور . العدد ٣١ ص٢ سنة ١٩٣٧
(٣) افاعي الفردوس ص ٣٧
(٤) الياس ابو شبكة : مجلة الجمهور . العدد ٣١ ص٢ سنة ١٩٣٧
(٥) المصدر نفسه .
(٦) مارون عبود : مجددون ومجترون ص ١٠٣

وكان حبه دليلة بدء نهايته . فقد اغراها الفلسطينيون بالمال لتعرف سر قوة شمشون ففعلت ، وعرفت ان قوته في شعر رأسه وانامته على ركبتيها ودعت من حلق سبع خصال من شعره ففارقته قوته فاخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه . واخيرا جاءوا به في عيد لهم ليضحكوا منه ، وكان شعره قد نما فقبض على عمودى الهيكل واسقطه عليه وعليهم قائلا كلمته المأثورة : علي وعلى اعدائي يا رب ...(١)

لقد استطاع ابو شبكة ان يصب كل نقمته على النساء الخادعات والمجتمع الشرير في هذه القصيدة . هاجم النساء الخادعات في مهاجمته دليلة حين قال في مستهل قصيدته :

ملقيه بحسنك المأجور وادفعيه للانتقام الكبير
ان في الحسن يا دليلة افعى كم سمعنا فحيحها في سرير
اسكرت خدعة الجمال هرقلا قبل شمشون بالهوى الشرير
والبصير البصير يخدع بالحسن وينقاد كالضرير الضرير
. . . . . .
ملقيه ففي اشعة عينيك صباح الهوى دليل القبور
وعلى ثغرك الجميل ثمار حجبت شهوة الردى في العصير
ملقيه ملقيه فبين نهديك غامت هوة الموت في الفراش الوثير
هوة اطلعت جهنم منها شهوات تفجرت في الصدور
ملقيه ففي ملاغمك الحمر مساحيق معدن مصهور
يشرب السم من شفافتها الحرى الى ملمس الردى في الثغور(٢)

وهاجم المجتمع الشرير في مهاجمته الجمع الغفير من الفلسطينيين الذى حضر ليشهد مصرع شمشون :

---

(١) مارون عبود : مجددون ومجترون ص ١٠١ — ١٠٢
(٢) افاعي الفردوس ص ٢١ — ٢٢

حفلت قاعة العقاب بجمع من سراة المسودين غفير
هم رموز الشقاق والفتن الحمراء ، والغدر والزنى والغرور
اقبلوا يشهدون مصرع شمشون على لذة الطلا والزمور
بؤرة تعبق القذارة منها سترت بالشفوف والبرفير
ايدين الخاطي جناة صعاليك ويقضي الفجور ذنب الفجور (١)

وانتصر على النساء الخادعات ، والمجتمع الشرير بانتصار شمشون على دليلة واعدائه الفلسطينيين .

هيكل الاثم لم ابح لك ذلي شبح الرق لم اسلمك نيرى
فاسقطي يا دعائم الكذب الجاني وكوني اسطورة للدهور
محق الله فيّ شر ظلامي فلتضيء في الحياة حكمة نورى
ان تكن جزت الخيانة شعري في ضلالي ، فقوتي في شعورى ! (٢)

/ ان شمشون ، بطل هذه القصيدة ، هو الشاعر الجبار الذى تتغلب عليه حيل العالم الشرير فتقص جناحيه وتفقأ عينيه ، الا ان عينيه في قلبه وجناحيه في روحه . وليست قوة شمشون هذا في شعره بل في شعوره ، وبهذا الشعور القوى يقوض دعائم الزور والضغينة والبهتان ويهدم هيكل الرياء المقنع بالارجوان . (٣)

في عام ١٩٣٣ نجد الشاعر الذى ارتكب الخطيئة ، ثم ثار عليها ، ما يزال يحس ان ثورته هذه ، على عنفها ، لم تنق نفسه من كل ادران الخطيئة . فها هوذا يحس ان ابليس يقف عند رأسه ، فيأخذ بالدفاع عن نفسه :

---

(١) افاعي الفردوس ص ٢٣
(٢) افاعي الفردوس ص ٢٥
(٣) العاصفة . العدد ٧٥ ص ١٨ سنة ١٩٣٤

حـول خيالـك عـني ولا تخـيم عليـا
فليس اهلـك مـني ولا اللظى من يديا
لم اغش في الناس مأثم ولم انادم رجالك
ابليس ! ليست جهنم داري ، فحول خيالك
قيثارتي لم الطخـها باقـذار على طـوا فني بها في بؤرة العار[١]

ثم يغـرى ابليس بغـيره ممن يراهم بالتعقـيم بالنار .. بامرأة فاجرة خبيثـة ، وبشاعر خبيـث العرائس" يسـتوحي "الجمال من المواخير وتسير في ركبـه حاشية من الاقزام ، وبعاشـق خـدع عـذراء طاهرة ثم تركها لليأس والعار، وبحاكم ظالم جزار ..

خذ هم اليك فلا عادت سلالتهم وعقـم النار يا ابليـس! بالنار[٢]

وبعـد عام صـفى الشاعر حسابه ،واستعد لمبارحة هذا الفردوس الملىء بالافاعي" نجـد هـذه التصـفية في قصـيدته "القاذورة "[٣]

يشـير ابو شـبكة في مذكراته الى مراحل نظمه هذه القصـيدة فنتبين منها انـه نظمها كلها او معظمها في شهر نيسان سنة ١٩٣٤. فهو يذكر انه نظم في ٥ نيسان اربعة ابيات منها ،وفي ٨ نيسان ثلاثة ،وفي ١٢ نيسان ثلاثة اخرى، وفي ١٤ نيسان ستة ،وفي ١٨ نيسان ثمانية ، وفي ٢٢ نيسان انهى نظمها وقـد بلغت واحدا وخمسين بيتا.[٤]

ويقـول في مـذكرات ٣ ايار ١٩٣٤ :

"القيت قصيدتي "القاذورة " في حفلة جمعية "العروة الوثقى " في الكلـية الاميركية . وكان المتكلمون ثلاثة : الشيخ ابراهيم المنذر ويوسـف وهبي الممثل المصرى ، وانا .

اما الجمهور فكان غفـيرا ومن الطبقـة المثقـفة "[٥] .

(١) افاعي الفردوس (قصيدة الدينونة) ص٥٦
(٢) = = ص ٥٨
(٣) = = ص ٢٦
(٤) دراسات وذكريات ص ٢٠٦ — ٢٠٩
(٥) المصدر نفسه ص ٢١٠

في هذه القصيدة ينعي الشاعر الدنيا التي حلم بها، ويسهب في وصف الدنيا الفاجعة القذرة التي لقيها في يقظته، فلقي فيها السجن مؤبدا والخنا معربدا والدياذان مائرة والنساء آثمات .. انه ليودع عذارى الحب في خيم الهوى لان جمالهن محظور عليه وعدنهم موصدونه، وانه لفي صراع بين احلامه وواقع حياته، فهو

يحس فرادیس الحياة بروحه ... وليس يرى الا جحيما يهدد (١)

ثم لا ينسى اهل الظلم والنفاق الذين

اذا ما لحاهم مؤمن فهو فاجر ... وان ند عن اغلالهم فهو ملحد(٢)

ولكنه يفيء بعد هذا المطاف الى ظل وريف من عبقره، ومغنى مشيد في متن السماك حيث تشعل في عينيه نار نقية، ويدهن صدغه بالزيت المطهر، ويضمد هواه بالبلسم الشافي (٣)

ويختم قصيدته بثورة على اثمه، فيصرخ بهذا الشاعر الاثم الذى كانه:

رأيتك تمشي في المساخر شاعرا ... وتاجك محطوم عليك مكمد
وروحك ممسوخ ونورك ذاهل ... وشعرك بالغل الدنيء مصفد
وشاهدت اشباح السماء كئيبة ... عليك باسواط الاراجيف تطرد
فغيم ازغت النفس عن نهج قدسها ... فصارت مغارا سافلا وهي معبد ! (٤)

ان مذكرات ابي شبكة تتيح لنا ان نتبين معالم من حالته النفسية الشعورية ايام نظم قصيدته "القاذورة". في اول ايام شهر نيسان ١٩٣٤ نجده يبدى اهتماما بالواجبات الدينية فيحضر ذبيحة القداس بعد ان هجر الكنيسة ثلاث سنوات، ونجده يتساءل "لا اعلم

---

(١) افاعي الفردوس ص ٢٧
(٢) افاعي الفردوس ص ٢٨
(٣) المصدر نفسه
(٤) المصدر نفسه

اى دافع يردعني عن القيام بالواجبات المفروضة على المسيحيين ففي نفسي عوامل متناقضة منها يحاول ابعادى عن المراسم الدينية ، ومنها يحاول تقريبي منها ..»(١)

ونجده في اليوم التالي ليبدى فتورا في لقاء صديقة قديمة فيقول : ذهبت اليوم الى بيت العسلي فالتقيتها هناك على اني لم اظهر لها من الاهتمام بقدر ما كنت اظهر لها في الماضي ..»(٢)

ونراه في نهاية الاسبوع الاول من الشهر يحارب شوقه الى صاحبة له فيقول : « انا مشتاق اليها ... على اني سأصر طويلا بعد على هجرها»(٣)

وفي مذكرات ١٢ نيسان يدون قولا للشاعر الالماني شيلر هو :

« ان من ابرز اعراض الجبن الادبي ان يرفض الانسان تحمل مسؤولية غلطة . ومن اقوى اعراض غروره ان يجاهر بتحمل تبعات ليس هو مسؤولا عنها ولا علاقة له بها . والانسان الذى يمتاز بالشجاعة الادبية لا يحجم عن الاعتراف بقصوره ولا يأبى الرجوع الى الحق »(٤) .

نستطيع مما تقدم ان نستنتج ان ابا شبكة في هذه الفترة التي نظم فيها « القاذورة » كان ينتقل من مرحلة نفسيه الى اخرى ، او لنقل كان يصفي حسابه . صفاه مع المراسم الدينية حين عاد الى القيام بها بعد هجران ثلاث سنين ، ومع الحبيبة حين اصر على هجرها .. ثم دون قول شيلر المنسجم مع حالته النفسية آنذاك .

واذن فليس من قبيل الافتعال ان تكون قصيدة « القاذورة » ممثلة لهذه المرحلة من التصفية العامة التي كان يمر بها الشاعر .

---

(١) دراسات وذكريات ص ٢٠٤ — ٢٠٥
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٧
(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٨

افاعي الفردوس في ميزان النقد

كانت "افاعي الفردوس" نتاجا شعريا مبتكرا ، لذلك فلا عجب ان التفتت اليها الانظار وراحت تتحدث عنها الالسنة والاقلام مادحة مرة وقادحة اخرى ، فالمبتكرون في الشعر قلة ، واهل الجرأة منهم اقل .. واحر بالنتاج المبتكر الذى يشق طريقه في غير وجل ان يثير خلفه الغبار ، ثم يتكشف الغبار عن طريق جديدة هي خير ما يخلفه وراءه اديب او فنان .

واكثر ما دار حوله النقد الادبي من "افاعي الفردوس" ناحيتان ، الاولى حظ "الافاعي" من الابتكار او التقليد . والثانية هي "لا اخلاقية" هذه "الافاعي" .

اختلف الباحثون في الناحية الاولى وكانت لهم آراء متفاوتة بين هذا الاتجاه وذاك . اما اعنف من حمل لواء الهجوم ونسب الى ابي شبكة التقليد ، بل السرقة فكرم ملحم كرم صاحب مجلة "العاصفة" اللبنانية التي كان ابو شبكة ابرز محرريها ، واحد اعضاء "عصبة العشرة" في فترة من عهدها الذهبي .

كتب كرم ملحم كرم نقده في ثلاثة من اعداد مجلة "الامالي" ، بهذه العناوين : "شعر لا يشرف الادب العربي . شعراء القرن التاسع عشر في فرنسا يحتلون "افاعي الفردوس"(١) و "الغازى ابو شبكة يبلغ الفرد ده فينيي"(٢) و "ابو شبكة في هذيانه اشبه بالطير المذبوح . القحة لا تدفع "الغازى" الى السرقة فحسب بل الى الكذب ايضا"

---

(١) العدد ٢٨ ص ٨٧٠ سنة ١٩٣٨
(٢) العدد ٣٠ ص ٩٣٥ سنة ١٩٣٨
(٣) العدد ٣١ ص ٩٨٦ سنة ١٩٣٨

قال كرم : " وبلغ من قحته (يقصد ابا شبكة) انه غزا حتى عنوان ديوانه . فاختار " بودلير " عنوانا لاشعاره " ازهار الشر " فجاراه ابو شبكة في التناقض ووصم ديوانه بعنوان " افاعي الفردوس " وانشد " بودلير " قصيدة " القاذورة " فقلده فيها ابو شبكة وسرق معانيها من قصيدة " الحلم " لفيكتور هيغو . ونظم " بودلير " قصيدة " الافاعي " فنهج ابو شبكة فيها نهجه . واستهل " بودلير " ديوانه بقصيدة " بركة " فسرقها الاستاذ ابو شبكة وختم بها ديوانه تحت عنوان " الطرح "... ولم يشبع بودلير نهمه فجاوزه الى " الفرد ده فيني " يصطاده بشبكته فسرق منه قصيدته " غضب شمشون " واثبتها في ديوانه كما هي لا يحذف منها حتى العنوان . على انه داور فيها وراوغ ليخفي آثار الجريمة . وكان نصيب قصيدة " باريس " منه للشاعر نفسه " الفرد ده فيني " نصيب قصيدة " شمشون " الا انه حذف عنوانها للتضليل وجعله " سدوم " بل هو في قصيدته " سدوم " سرق خمس مرات : سرق قصيدة " لوط وابنتاه " وقصيدة " باريس " وقصيدة " منزل الراعي " وقصيدة " تبكيت الضمير بعد الموت " وقصيدة " جبل الزيتون "... ان مطلع الفقرة الثانية من قصيدة " شمشون " لابي شبكة مقتنص برمته من قصيدة " آلهة الغاب " (La Drayde) لذلك المنكود الطالع في حياته وفي مماته الفرد ده فيني "(١)

ثم راح كرم يورد نماذج من شعر " افاعي الفردوس " يقارنها بنماذج من شعر من زعم ان ابا شبكة سرقهم ، ليثبت زعمه ..

ويبدو لي ان ما ذهب اليه كرم من تشابه كثير من صور ابي شبكة ومعانيه والفاظه مع صور ومعان والفاظ من الشعر الفرنسي فيه كثير من الحق . الا ان هذا التشابه لا ينبغي ان يبالغ في تجسيمه فيسمى سرقة . نعم ان الشبه ليشتد حين يقول الفرد ده فيني : " انه ليحلم حيث يكون بحرارة النهد ، وبملاغم النار التي تلتهمها شفتاه ، واينما اتجه يفكر في لذة الفراش ، وعندما تبكي عيناه يجب تمليقه بقبلة "(٢) فيقول ابو شبكة :

---

(١) الامالي . العدد ٣٠ ص ٩٣٥ سنة ١٩٣٨

(٢) الامالي . العدد ٢٨ ص ٨٧٢ سنة ١٩٣٨ ترجمة كرم ملحم كرم .

وعلى ثغرك الجميل ثمار حجبت شهوة الردى في العصير
ملقيه فبين نهديك غامت هوة الموت في الفراش الوثير
ملقيه ففي ملاغمك الحمر مساحيق معدن مصهور (١)

ولكن الشبه في اماكن اخرى ، من صنع كرم ومن نتاج غضبته . من ذلك زعمه ان قول ابي شبكة :

انت حسناء مثل حية عدن كورود الشارون ذات العطور
وكعفر الوعل الوديع وان كنت تناجين عقربا في الضمير
لست زوجي بل انت انثى عقاب شرس في فؤادي المسعور (٢)

هو كقول ده فينيي : " اراها ابدا كالحية المذهبة الغارقة في الاوحال وهي تحسب نفسها مجهولة ، ارى ابدا هذه الرفيقة المتقلبة الفؤاد .." (٣)

والواقع ان كرم ملحم كرم في نقده هذا كان مندفعا اندفاع الموتور . كان كرم صديقا لابي شبكة ، وقد حدث بينهما ما اغضبه عليه فراح يهاجمه في شعره ، ولن تجد اقسى من صديق غاضب ، عصبي المزاج .. " اذا مونع في شيء اوعورض فيه اشتعل في وجه معارضه كالقش اليابس فقذفه باسباب من الشتائم لا تعلم من اين هبت .." (٤) . ولقد كان حظ ابي شبكة من سباب كرم وفيرا ، من نماذجه : " وثب لص الادب البارع على بودلير " (٥) و " الا يكون شعر هذا الناسخ الماسخ لطخة في جبين الادب؟ (٦) " و "علينا الا نرقب من ذلك الدعي غير السماجة واللؤم " (٦) و " لكنه جبان وكاذب معا تعميه الحقيقة فلا يقوى على الجهر بها " (٧) .

---

(١) افاعي الفردوس ص ٢٢
(٢) = = ص ٢٢ — ٢٣
(٣) ترجمة كرم ملحم كرم : الامالي . العدد ٢٨ ص ٨٧٢ سنة ١٩٣٨
(٤) الياس ابو شبكة : المعرض . العدد ٩٩ ص ١٤ سنة ١٩٣٠ (من "رسمه" كرم ملحم كرم)
(٥) الامالي . العدد ٢٨ ص ٨٧٢ سنة ١٩٣٨
(٦) = . العدد ٢٨ ص ٨٧٣ سنة ١٩٣٨
(٧) = . العدد ٣١ ص ٩٨٧ سنة ١٩٣٨

ولقد اراد ابو شبكة هذا النقد قائلا : " كرم ملحم كرم يتهمني بالسرقة ويرفق كل تهمة ببذيئة من شتائمه ، اما شتائمه فلن تستطيع سبيلا الى قلمي فتستغله الى ما ليس لنفسي عهد به . واما تهمه فقد سكت عليها حتى اجهز بها على حرفته ، ولو ان امرأ اراد ان يسيء الى هذا الانسان لما استطاع ان يسيء اليه قدر ما اساء هو الى نفسه " ثم استطرد ينفي وجود الشبه بين قصائد ومعاني شعره ، وبين قصائد ده فينيي ومعانيه ، ويشير الى انه كان ثمة شبه ، فليس هذا الشبه اليسير مما يسوغ عده سرقة .. ثم نسب الى كرم انه مدفوع في نقده برغوة الحقد وشهوة التضليل "(١)

على ان الرجل السريع الغضب سريع الرضى ايضا ، وقد غضب كرم ورضي . وبين الكلمات التي ودع بها اهل الادب في لبنان صديقهم الراحل الياس ابو شبكة كلمة ينافس فيها بلاغة القول شرف المعنى ، وتفيض حزنا نبيلا ووفاء كريما . تلك هي كلمة كرم ملحم كرم " يا رفيق الشباب !"(٢) وفي هذه الكلمة نقرأ :

".. ولكن هل مات الياس ابو شبكة مالىء رحال العرب اغاريد ؟ هل قضى شاعر اللهيب ، نافخ القصيدة العربية بالالوان الحمراء ، بالاعصاب المتشنجة الثائرة ، وكاسي قوافي الضاد بجذوة متوقدة ، وظلال قائمة حانقة لم يوفق لها شاعر في لغة امرىء القيس والاخطل وابي نواس(٣) ... طاب مثواك بطيب اعرافك . فالوهج الكامن في " افاعيك " لم يتحسس به ادب العرب قبل ان تخلعه عليه ."(٤)

---

(١) المكشوف : العدد ١٩٣ ص١٠ سنة ١٩٣٩ (راجع ايضا المقتطف ص١٠٢ — ١٠٣ المجلد ٩٥ سنة ١٩٣٩

(٢) دراسات وذكريات ص ٥١

(٣) المصدر نفسه ص ٥٢ — ٥٣

(٤) المصدر نفسه ص ٥٥

واذا كان كرم ملحم كرم قد جسم اثر الرومانسيين الفرنسيين وده فينيي في مقدمتهم — في شعر "الافعاعي" حتى عده سرقة . فان هناك من يرى ان اثر بودلير في هذا الشعر اعمق من سواه .

يقول رفائيل بطي : " وما كادت تزحف افاعي فردوسه حتى صاح الادباء هذا (بودلير لبنان) (١)

ويقول يوسف غصوب : " اما المكان الذى شغله في الشعر اللبناني والذى كان شاغرا فهو ذلك اللون القاتم ان لم نقل الاسود الذى استقل به ابو شبكة في "افاعي الفردوس" فهو وجهة من الشعر قل من اتجهها من شعرائنا . وقد ذهب فيها مذهبا فنيا بعيدا محتذيا باماميها "بودلير" واجاد ما شاء ."(٢)

ويقول فؤاد افرام البستاني : " على ان عناصر الحرقة البودليرية التي نفثت السم في " افاعي الفردوس" ....."(٣)

امام هذه الآراء التي تنسب "افاعي الفردوس" الى الرومانسيين الفرنسيين ممثلين بالفريد ده فينيي خاصة ، او الى بودلير شاعر الرمزية الكبير ، يبرز رأى ارى ان صاحبه قد وفق فيه الى الحقيقة وانصف به كلا من النقد الادبي وابا شبكة . ذاك هو عبد الله لحود : " اقول انني لم اجد في شعر ابي شبكة اثرا عميقا لبودلير على ما في بعض قصائد الشاعرين من تشابه سطحي . ومن الغريب ان بعض الادباء توهموا ، عند ظهور "افاعي الفردوس" ان هذه القصائد العنيفة تستوحي " ازهار الشر" او تقلدها . فاين رأوا هذا الاثر البودليرى الكبير ؟ افي طريقة الصياغة والنظم ، وكل من الشاعرين ينهج نهجا يخالف منهج الاخر ؟

---

(١) الثقافة . العدد ٤٢٦ ص ٢٠ سنة ١٩٤٧
(٢) دراسات وذكريات ص ٣٥ — ٣٦
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩

لعل هؤلاء الناقدين خدعوا بالعنف الذى رأوه في "افاعي الفردوس" ورأوا مثله في قصائد بودلير . ولكن هل تناسى هؤلاء ان أبا شبكة كان متأثرا بالتوراة ، وان كان رسول ادب التوراة في العالم العربي ؟ هل تناسوا ان التوراة — في كثير من اسفارها — اعنف كتاب ادبي عرفه البشر ، وانها تفوق بالعنف حتى شكسبير نفسه ؟ "(١)

ثم يضيف لحود : " ان التوراة كانت احدى المراحل الحاسمة في تأثرات ابي شبكة الادبية . واظن انه اهتدى الى هذا المنبع الفياض عن طريق الشعراء الرومنطيقيين الذين كانوا يرون فيه اعذب موارد الالهام واعظمها فيضا . ولعل الفرد ده فينيي — صاحب القصيدة الرائعة " غضب شمشون " — كان ممن حببوا الى ابي شبكة ادب التوراة ."(٢)

ومن الذين ذهبوا مذهب عبد الله لحود ، صلاح لبكي القائل : "... الا اننا لا نرى ما رأوه من نسب بين ابي شبكة وبودلير برغم تشابه اجواء الافاعي وازاهر الشر ، بل نحن اميل الى رأى صديق الشاعر ورفيقه ومشذب شعره في اول عهده بالقريض ، الاستاذ عبد الله لحود "(٣)

*

وعلى ذكر العنف الذى يشير اليه عبد الله لحود ، ويبدو في مثل هذه الالفاظ والعبارات : " زوابع النار " ، و " جهنم " ، و " هوة الموت " و " شهوة الردى " ، و " ليل القبور " ، و " تتشظى " ، و " تغلي " و " تفجرت " و " يرغي " وفي مثل هذه الابيات :

---

(١) دراسات وذكريات ص ٤٦ — ٤٧
(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ — ٤٨
(٣) لبنان الشاعر . ص ١٦٨

في صدرك المحموم كبريت اذا لعبت به الشهوات فجر اضلعه (١)

*

فثار ثائر اهل النار كلهم وجيشت زمر في اثرها زمر
تدفقت من سراديب الجحيم الى ايوان ابليس حيث الجن قد سكروا
وكان في موكب الاشباح ذو بطر يفح في شفتيه حية ذكر (٢)
.....

اقول ان هذا العنف يضيف الى ما في افاعي الفردوس" من رومانسية مظهرا جديدا من مظاهرها لم يبد عند ابي شبكة قبل "الافاعي" بمثل هذه الشدة .

ان الرومانسي ليحس بان في اعماقه قوة عظيمة ، لا تخاف شيئا ولا يردها شيء . وان هذه القوة لتبلغ من العظمة مبلغها عند "برليوز" (Berlioz) حين يقول : " عذاب جهنم ! اني لاستطيع ان اسحق حديدة حارة محمرة بين اسناني "(٣) .

يقول الناقد بابت : " ان البركان الانساني يجب ان ينفجر احيانا في حمم من الالفاظ المصهورة "(٤) . فيصدق قوله كل الصدق في هذا البركان العنيف الذى انفجر حمما من الالفاظ المشتعلة في "افاعي الفردوس"

قلت ان اكثر ما دار حوله النقد الادبي لافاعي الفردوس كان ناحيتين هما :
١ ـ صلة هذه المجموعة الشعرية بشعر الرومانسيين الفرنسيين كالفريد ده فينيي ، و "بازهار الشر" لبودلير الشاعر الفرنسي الرمزى . ٢ ـ " لا اخلاقية هذه المجموعة . وقد بسطت آراء النقاد في الناحية الاولى . وحان ان اتحدث عن الثانية .

---

(١) افاعي الفردوس ص ٣٥
(٢) افاعي الفردوس ص ٥٨
(٣) Rousseau and Romanticism P.172
(٤) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

كان ابو شبكة شاعرا صادقا لا يرائي ، ولا يتستر وراء اقنعة قديمة . لذلك قال ما اراد ان يقول ، وصدق حيث دعاه الصدق . وتحدث عن الحب بغير الحديث المعاد . لم يقل انه يهوى المرأة مخلوقا سماويا فحسب ولم يقل انه لا يطمع منها بغير " لحظ البصر " و " التسليم المختصر " ، ولم تكن له قناعة جميل بثينة فيقول :

واني لارضى من بثينة بالذى ... لو ابصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا استطيع و بالمنى ... وبالامل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي ... اواخره لا نلتقي و اوائله

لم يدع العفاف والصون تجاهر بحبه "غير العفيف " وتحدث عن المرأة بغير ما " ينبغي " من التوقير . فثارت عليه ثائرة قوم من " النقاد " وقال قائل منهم ان هذا الشعر " هدير شهوة صاخبة ملحاح يتفجر هنا وهناك في معظم المجموعة ، اما عربدة حمراء ، واما خزيا قذرا "(١) وان الشاعر " استوحى المواخير "(٢) ،

وقال ثان : " لقد لخص لنا (ابو شبكة) في " افاعي الفردوس " — وهذا العنوان وحده دليل على اختلال عقله(٣) — غايته القصوى في الحياة ، سداها ولحمتها الكفر المطلق والسفالة الحيوانية "(٤) . طبيبا ابونا - قول

ومما يلفت النظر ان اكثر هؤلاء الناقدين الغاضبين بعد ان يؤدوا " للاخلاق " و " التقاليد " فريضة الطاعة وواجب الاحترام يعودون الى الشاعر فيعترفون له بالشاعرية ويثنون عليه في سخاء . فابو شبكة عند الناقد الاول — مثلا — شاعر مجدد اسرى الى ينابيع الحياة في الغرب .. وان " افاعيه " من ثمار التشرق بشموس الغرب . ومن جنى ما هيأه الغرب للبنانيين (٥) "

---

(١) جان عزيز : المشرق ج ٤ ص ٥٠٩ سنة ١٩٣٨
(٢) المصدر نفسه ص ٥١١
(٣) هذا العنوان لم يختره ابو شبكة وانما اختاره له اديبان راجحا العقل من اصدقائه هما بطرس البستاني وفؤاد حبيش . (راجع بحث فؤاد حبيش " انا وابو شبكة " في كتاب " الياس ابو شبكة . دراسات وذكريات " ص ١٦٩
(٤) الاب رفائيل نخله اليسوعي : المكشوف . العدد ٢١١ ص ٢ سنة ١٩٣٩
(٥) جان عزيز : المشرق ج ٤ ص ٥٠٩ سنة ١٩٣٨

ولكن ابا شبكة لم يعدم بين اهل الادب نصيرا وقف الى جانبه ثابتا جريئا • ذاك هو امين الريحاني ،فقد كتب اليه يثني على مجموعته الشعرية اطيب ثناء ،ويقول له :

" لقد نبذت ايها الشاعر العزيز ،بعض التقاليد والاجتماعية والدينية ؟ ماذا تفعل بعظة القسيس وريائه ، وبصقاعة المربي وكثافته ،وبثرثرة المتنطع المتجند للدفاع عن الفضيلة والدين ؟ رميت " بالمدرسيات " الشعرية الى الطلاب ، فالى من ترمي " مدرسيات " المتنطعين والمتخذلقين وكل من هاله ـ خبثا ـ صورة امرأة عارية ..؟(١) "

ان تقييد الشعر بقيود الاخلاق ،قديم العهد في الغرب وقد اتفقت عليه الفلسفة الافلاطونية • وتعاليم المسيحية المثالية فكان ان خضع له الشعراء الكلاسيون زمنا طويلا ،ثم جاء الرومانسيون فخفت شدة القيود • وفي القرن التاسع عشر كان التمرد على هذه القيود شديدا ،ووجدت نظرية " الفن للفن " انصارا كثيرين •

بيد ان تاريخ الادب العربي ينبئنا ان حرية الشعر ظلت دائما اوسع من قيود الاخلاق ، وان الشعراء كانوا يقولون ما يريدون ، كما يريدون • وفي معلقة امرئ القيس ومغامرات عمر بن ابي ربيعه الغرامية ومجون بشار وفجور ابي نواس وخلاعة ابن سكرة وابن حجاج الخبر اليقين •

ومن مفاخر نقدنا الادبي القديم ان نقادا بارعين كانت لهم في هذا الموضوع آراء محكمة صائبة • منهم قدامة بن جعفر القائل : "ليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه •"(٢)

---

(١) الكشوف • العدد ١٦٨ ص ٣ سنة ١٩٣٨

(٢) الشعر والشعراء ص١٤ (عن النقد الجمالي ص ١٣٥ ونقد الشعر في الادب العربي ص ١٧٥) •

والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني القائل : "... فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب ان يمحى اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره اذا عدت الطبقات ، ولكان اولاهم بذلك اهل الجاهلية ومن تشهد الامة عليهم بالكفر ... ولكن الامران متباينان والدين بمعزل عن الشعر"(١) والثعالبي القائل : " على ان الديانة ليست عيارا على الشعراء ، ولا سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر ."(٢)

هذه الاراء المحكمة الصائبة التي ادلى بها نقادنا القدماء تجرى مجرى آراء المقدمين من نقاد الغرب المعاصرين ، فاكثرهم يناصرون حرية الشعر كل المناصرة فلا يهمهم الا ان يكون الشعر شعرا ، ولا يحكمون الا على النص الادبي ذاته ، ثم هم لا يرون حرجا في ان يتحدث شاعر عن الحب الجنسي ..

من هؤلاء النقاد "هـ . ب . تشارلتن" الذى يقول : "ان ما يهمنا من الشعر ان يكون شعرا ، ولا نزن بجناح بعوضة موضوع الشعر الذى يعالجه ، وانما يهمنا الشعر لذاته ."(٣) . ومنهم قادة مدرسة "النقد الجديد" او "النقد التحليلي" كايفور ريتشاردز (I.A. Richards) و"ت . س . اليوت" (T.S. Eliot) الذين يجتمعون على شيء واحد هو "التماس الادب لذاته ودراسة النص الادبي لذاته (٤) . ومنهم "ج . م جويو" (G.M. Goyau) الذى يتحدث عن الحب وعن علاقته الوثيقة بالجنس والشهوة فيقول : "اليس الحب ، حتى في صورة الشهوة ، هو العنصر الذى لعب اكبر دور في الشعر ، تارة محجبا وتارة سافرا . واني لاعتقد

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٥٨ (عن النقد الجمالي ص ١٣٥ ونقد الشعر في الادب العربي ص ١٧٥)

(٢) يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ج ١ ص ١٢٢ (عن نقد الشعر في الادب العربي ص ١٧٥)

(٣) فنون الادب : ص ٤٥ (ترجمة زكي نجيب محمود)

(٤) لويس عوض : دراسات في الادب الامريكي ص ٢١٩

انه كذلك عنصر اساسي في لذتنا بالاشكال الجميلة والالوان الجميلة في النحت والتصوير ، وبالاصوات الهادئة او الاصوات العنيفة في الموسيقى . ان عاطفة الحب لهي نموذج العاطفة الجمالية ، والحب ممزوج دائما بشهوة غامضة ناعمة . وجمال المرأة ارفع الجمال ، مهما يقل كانت . والصفات التي تعجبنا في المرأة اكثر من غيرها هي بعينها الصفات التي تتصل بالشهوة اكثر من غيرها ، وتمت الى غريزة الجنس باسباب وثيقة ".(١)

وبعد ، فالذى يتبين مما ذكرت ان ابا شبكة قد هوجم في غير حق ، حين نسب اليه والى " افاعيه " انحدار المستوى الاخلاقي .. فهو لم يهدف بعرضه الرذيلة الى تشجيع الاخذ بها ، وانما عرضها لتتبين للناس مناهج الفضيلة واضحة فيسلكونها . وحتى ان كان قد قصد الى تحبيذ الرذيلة ، فليس من حق " النقد الادبي " ان يحاسبه الحساب العسير على هذا القصد ، وانما يحق ذلك في مجالات علم الاخلاق ، والاجتماع ، وفي الحكم على اعمال الناس لا على اشعار الشعراء .

---

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة . ص ٣٢ (ترجمة سامي الدروبي)

هـذه هي " افاعي الفردوس" .. فردوس يحلم به الشاعر ، ويود لو رأته عيناه في يقظته اخضر مزهرا فوق الارض . وافاع بشرية تنساب هنا وتفح هناك ، وتلذع من الناس كل طيب شاعرى الفؤاد .. هي تفاؤل يغرق في موجة كدرة من التشاؤم والنقمة ، واذا الشاعر كشمشون يهدم هيكل الظلم والرياء عليه وعلى اعدائه ..

و " افاعي الفردوس " بعد هذا ، شعر مبتكر الطابع ، مهما يقل فيه الادباء والنقاد ، وغير الادباء والنقاد ، فهو فتح جديد في شعرنا المعاصر وطريق مهدتها خطى شاعر واكب عنف شعوره وقلق نفسه جرأة في القول وصمود للتحدى . وعلى هذه الطريق سار فيما بعد شعراء كانوا اذا احسوا العاصفة الهادرة في اعماقهم تود ان تستحيل شعرا عمدوا اليها فقلموا اظفارها ، والبسوها قناعا يستعيرونه من بني عذرة ثم خرجوا بها على الناس كماء النبع صفاء وكأزهار آذار وداعة و .. كسبوا رضى حماة الاخلاق .

لم يكن ابو شبكة في " افاعيه " نسخة رخيصة عن سواه ، وانما كان شاعرا جريئا سار عبر طريق جديدة من طرق الشعر العربي الحديث . وتاريخ الادب ، بل تاريخ الحضارة ، هو تاريخ اهل البراعة والجرأة ، رواد الطرق الجديدة ..

....

" الالحـــــان ومقتطفـــــات مـــن غلـــــــوا " "

. . . . . .

الالحـــان
ومقتطـــفات من غلـــواء

تضم هذه المجموعة الشـعرية اربـع عشـرة قصـيدة ، تتلوها مقتطـفات مـن غلواء • وسـاقصر حديثي على هذه القصـائد الاربـع عشرة ، اما هذه المقتطـفات من غلواء فقـد نشـرت فيما بعد مع تتمتها من غلواء • وهناك موضـع دراستها والحـديـث عنها •

صـدرت هـذه " الالحان " عام ١٩٤١ ، في الزمن الـذ ى كان فيـه قلب ابي شـبكه ناعما بحـب " ليلى " يخفق مطمئنا فرحا •

كان ابو شـبكة يومذاك " اسـعد الناس حبا " :

انا يا ليل اسعد الناس حبا ملء عيني نور وقلـبي ولائم
سوف تمحي رؤى وتنهـار احـلام وتبلى منى وحبي دائـم (١)

وكان حبه الجـديد هذا يغسل بؤسـه ، ويمحو خطايا ماضـيه :

كان في قلبي من الحب بقايا توقظ الماضي والماضي خطايا
حين اشرفت على قلبي امحت غسلت روحك يوسي وشـقايا
ونما حب جـديد في دمـي ما نما ، يا اخت روحي ، في سوايا

كان سعيدا فمجد حبه وحبيبته وغناها ارق غناء • وكان للطبيعة من فيض هـذه السعادة ، هذا الحظ الطيب من الالحان الصافية الرقيقـة •

وابو شـبكة ليس غريبا عن الطبيعة فقـد احبها اجمل الحب طوال حياته الماضية وقضى في احضانها زمنا مديدا من عمره •

---

(١) الى الابـد ص ٣٩

كانت في مرحلة حبه العنيف الذى توزعه اليأس والامل ، ملاذه الحبيب • فيها يخلو الى نفسه ويسترد طمأنينته الضائعة ويسلو الامه •

ولكنها اليوم شاهدة على سعادته ، وشريكة له في فرحته • انه ليجيئها نقي القلب ، قد غسل عنه خطايا الماضي وحمل فيه هذا الحب الجديد المتأنق وراح يغني ، فالحانه اليوم غير الحانه امس •

ولكن " الالحان " هذه ليست غناء فرديا معبرا ذاتية ضيقة الحدود ، فهي في مدلولها العام اوسع من ذلك افقا واغزر معنى • انها ليست الحانا يتغنى بها الناس واغاريد يوشون بها افراحهم فحسب ، وانما هي قبل ذلك وبعد ذلك دعوة توجيهية ، فهي تحث الناس على حب الارض وتمجيدها ، وعلى التعلق بها تأكيدا لفكرة المواطنة الصالحة وتكريما لماضي البلاد المجيد •

كانت هذه الفكرة مما يدعو اليه ابو شبكة عام اصدر " الالحان " ولقد عبر عن رأيه اوضح تعبير في مقالة له عنوانها " الاديب والارض " تغنى فيها بجمال الطبيعة ، وحمل على المدينة التي اضاعت الاخلاق ، وغلبت المادة على الروح وجعلت اللبناني الذى كان " حرا بقوة ذراعه وسلامة تفكيره " " عبدا بتلك الالة الصماء التي اراد ان يفتتح بها مملكة السعادة •" ثم دعا الى ادب " انساني في اسمى شعور موحى به رأسا من الارض والشعب "(١)

انظر الى " الراعي " يترنم بمديح الطبيعة ، ويتحدث عن حبه هذه الارض التي ستكون للابناء غدا :

---

(١) المكشوف • العدد ٣١٤ ص ١ سنة ١٩٤١

حقولنا سهولنا كلها طرب كلها غنى
الشمس فيها ذهب والسواقي منى
. . . . . .

جبالنا نحبها هذى العيون قلبها هذى الجنان خصبها
حليها التفاح والعنب
الحانها الرياح في القصب
وكلها لنا وللبنين بعدنا(١)

في هذه القصيدة يتمثل تعلق المواطن ببلاده التي هي اجداده واولاده ، وماضيه وحاضره ومستقبله . ها هم " الحصادون" يتغنون :

صغيرة بين الدول كبيرة مثل الامل كانت لنا ولم تزل
بلادنا : اجدادنا اولادنا !
زلالها ترياق ترابها اخلاق وشمسها ذهب
حليها التفاح والعنب
الحانها الرياح في القصب
وكلها لنا وللبنين بعدنا

هيا احصدوا وانشدوا الحب قلب ويد
والعمر زرع وجنى(٢)

. . . .

---

(١) الالحان ص ٨
(٢) الالحان ص ٩

هـذه النزعة الوطنية التي تتمثل في حب ابي شـبكة للطبيعة تتجلى واضحة ايضا في قصيدته " يا بلادى " هـذه البلاد التي تجملها الطبيعة وتعطرها في الاصباح ، وينظر اليها الله نظرته الى القلب البرىء ، هـذه الارض التي يعبق فيها الالهام ويتمشى في ابناء امسها المجيد ،الملوك الشعراء والرعاة الانبياء والاباة الحلفاء .

ان بلاد ابي شبكة لطبيعة جميلة خيرة ، وماضي مجيد غني .

وقصيدته " يا بلادى " نفيسة لن تغني الاشارة اليها عن ذكرها كلها :

يا بلادى

يا بلادى لك قلبي لك آمالي وحبي

وجهادى

يا بلادى

انت هذا العطر يأتي من فم الوادى مع الصبح الطرى

انت كل الحسن انت نظرة الله الى القلب البرى

وعيون الكوثر

وسرير الاعصر

وجلال الخلد بادى

يا بلادى

ينشر المجد عليك راية من مفرقيك

وينادى: يا بلادى

عبق الالهام فيك مالىء ارضك اعراض السماء

يتمشى في بنيك فهم امس ملوك شعراء

ورعاة انبياء

.../...

واباة حلفـاء
وهم الـيوم معـــادى
يا بـلا دى

قالت الدنيا ، جبيشـني لم يكن لولم تكـــوني
انت كالفجر فتيه
انت كالشمـس غنيـــه لم يهن في راحتيك الذهب
يأخذ الشـعر رويّـيـه منك ،والحكمة فيك الادب
طهرى اليوم دمي
وغـدا كونـي فمي
يسترح فيك رمادى
يا بـلادى(١)
...

كانت "الالحان" اذن صـدى للحب السعيد يغمر قلـب الشاعر ، ويوسـعه ليضم اليه الطبيعة فيشدو لها في مرح ونشاط ..

وكانت دعوة توجيهية تهيـب بالناس ان يعودوا الى افياء الطبيعة ليجدوا فيـها الجمال والنقاء والحرية .

وكانت بعد ذلك مظهرا رومانسـيا . وهل كان ابو شـبكة الا شاعر الرومانسـية الكبير في الادب العربي الحديث .

مربي في حديثي عن الرومانسية ان الطبيعة تشغل من اتجاهات الرومانســية مكانا بارزا ، ولقد كانت كذلك في شـعر شاعرنا . رأينا الطبيعة في "القيثارة" وفي "افاعي الفردوس" وفي "غلواء" ولكنها لم تكن هناك في مثل هذا الصفاء وفي مثل هذا المكان البارز ولم نسمع اغانيها الصافية الحافلة بالفرح كما نسمعها الان في "الالحان".

---

(١) الالحان . ص ٦٠ـ ٦١

اقرأ القصائد : "الحصادون[١]" و"الحان الشتاء[٢]" و "الحان الربيع[٣]" و "الحان آلصيف[٤]" و "الحان القرية [٥]" و "الحان الطيور[٦]" و "المعصرة "[٧] و "الفلاح "[٨] و "عرس في القرية "[٩] و "عيد في القرية "[١٠] تسمع هذه الاغاني تنساب كالجداول الصافية "[١١] وعليها من الفرح ائتلاق ووضاءة .

الا ان القصائد "نهر الصليب[١٢]" و "المساء في الجبال[١٣]" و "صلاة المغيب[١٤]" تشوبها كآبة عميقة المنبع تنسل الى الشاعر من ماضيه الذى ما تزال بقاياه حية في حاضره . او لعل القصيدتين الاوليين قديمتان لا تنتميان الى عهد الفرح من حياة الشاعر .

اسمعه في قصيدة "نهر الصليب" وهو يذكر شقاءه، وسط هذه الطبيعة الجميلة التي تحيطه بحنانها ومودتها :

هوذا الغاب والمجارى الجميلة — والصخور الاطواد ، والادواح
هوذا الكوخ في ظلال الخميله — يتلاقى فيه الشذا والرياح
هوذا المرج والمواشي كما كا — نت وهذا غدوها والرواح

.

هوذا الدلب، والغصون الخفاف — حابكات خيامها للضيوف
هوذا الظل ،ظلها المضياف — كرداء ملقى بشكل لطيف
بين طياته وعن جانبيه — يهرب الماء بارتعاش خفيف

.

---

(١) ـ (١٠) الالحان ص ٨ ـ ٩ ، ١٢ ـ ١٣ ، ١٦ ـ ١٧ ، ٢٠ ـ ٢١ ، ٢٤ ـ ٢٥ ، ٢٨ ـ ٢٩ ، ٣٢ ـ ٣٣ ، ٣٦ ـ ٣٧ ، ٤٨ ـ ٤٩ ، ٥٢ ـ ٥٣

(١١) فؤاد افرام البستاني : دراسات وذكريات ص ٤٠

(١٢) الالحان ص ٤٠ ـ ٤١

(١٣) = ص ٤٤ ـ ٤٥

(١٤) = ص ٥٦ ـ ٥٧

هوذا النحل خارجا عن قفيره يرتدى الشمس حلة من بريق
سكب الغاب في اغاني طيوره نغمة من طنينه الموسيقي
هي هذى مشاهد الامس، لكن اين زهوى، واين قلبي الحقيقي

•

زرت نهر الصليب امس لاسمع كيف ينساب ماؤه الكوثريّ
فرآني صفصافه فتقنع بضباب كأن وجهي نعي
قلت للقلب: يا شقي فرجع شاطيء النهر هاتفا: ياشقي! (١)

أما كآبة القصيدة " صلاة المغيب "(٢) فتفسيرها سهل . ان هذه القصيدة وان ظهرت في " الالحان " مع هذه القصائد التي نظمت ـ او نظم معظمها ـ في زمن متاخر، ونشر بعضها في " المكشوف " عام ١٩٤٠(٣) قبل صدورها مجموعة في " الالحان " . اقول ان هذه القصيدة قديمة، مما تضمنته " القيثارة " التي صدرت عام ١٩٢٦ . فقد احبها الشاعر وتخيرها وحدها ثم نقحها وحذف منها ثمانية ابيات ونشرها ضمن شعر " الالحان " ولذلك فلا غرابة في ان تكون كئيبة الجو، غائمة فهي تحمل طابع شعر القيثارة .

والعودة الى الطبيعة في المذهب الرومانسي تقترن بمهاجمة حياة المدن وآلية العيش، وبالتلفت الشيق الى الماضي . هذا ما فعله الرومانسيون من قبل وهذا ما يفعله ابو شبكة في الحانه

في قصيدته " الحان القرية " ينساب النغم هادئا حزينا لان الشاعر يؤلمه ان تغزو مظاهر المدنية الشريرة القرية الجميلة فينأى عنها وجمها الحقيقي .

---

(١) الالحان ص ٤٠ ـ ٤١
(٢) الالحان ص ٥٦ ـ ٥٧
(٣) نشرت " الحصادون " في العدد ٢٧٤ و " الحان الشتاء " في العدد ٢٧٧ و " يا بلادى " في العدد ٢٥٥

فهو يريد رجوع " الوجاق " و " الموقدة " و " الصاج " و " الجرن " و " المهباج " ويريد رجوع النبيذ المعتق ، والابريق والنرجس في الانية ، ويريد رجوع الفلاح والرفش والمعول الى الوادى ، ويريد رجوع ما هو اثمن من كل ذلك : البأس الى القلوب ، والجمال الى العيون ، والعزة للنفس والراحة للبال (١)

وانه ليحن الى الماضي الطيب ، ماضي الاحلام والمنى والصفو وراحة الوجدان:

ارجع لنا ما كان يا دهر في لبنان
كانت لنا احلامنا والمنى
وكان صفو الزمان

كان الضمير الهني من كنزنا المزمن
وراحة الوجدان وكان ... كان الامان
والعيش حلو الجنى
يا دهر ارجع لنا
ما كان في لبنان (٢)

وفي احضان الطبيعة يلقى المرء العيش الاخضر وينأى عن البشر وشرورهم فهو يضيء منها الى ظلال من الحياة الوديعة يفرح فيها بعد اكتئاب ويهدأ بعد اضطراب :

زارع الحقل في البكور عيشك الدهر اخضر
انت في هيكل الزهور فيلسوف مفكر

يا بعيداً عن البشر انت لا تعرف الشرور
تعرف الماء والحجر والاعاصير والزهور (٣)

---

(١) و (٢) الالحان ص ٢٤
(٣) الالحان ص ٣٦ ـ ٣٧

والحق ان العودة الى الطبيعة لم تكن عند ابي شبكة ظاهرة شعرية فحسب ، ولكنها كانت حقيقة واقعة . فان ابا شبكة قد احب الطبيعة اللبنانية ممثلة بهذه الارض التي درج عليها صبيا وتغنى فيها بشعره ، ثم توسد ترابها . قال رئيف خوري :

" وشد ما كان الياس ابو شبكة معلق القلب بهذه البقعة المعينة من الارض اللبنانية وما تتكئ عليه وراءها من جبال زرع فيها السلف القرى كحبات العنقود المدلى . ومعدودة هي الليالي التي كان يرضى ان ينامها في بيروت . كان حريصا ان يعود ولو في منتصف الليل الى منزل القرميد المشرف على البحر في " الزوق " . وقد قال لي اكثر من مرة : ان الامواج تتنهد هناك تنهدات لا تسمعها في بيروت ، والنجوم تلمع لمعانا ابهى واشباح القرى القائمة خلفك في الجبال ادعى الى الانس والى الاغراق في تأمل الاسرار . ولا تنسى " قنديل الكاز " فالنظم والكتابة على ضوئه اعذب واكثر الهاما ، في اثناء المخاض الذى يعانيه الاديب ، من النظم والكتابة على اسطع مصباح كهربائي . وفعلا اصر شاعرنا حتى النهاية على ان لا يدخل الكهرباء بيته .

وان انس فلا انس اياما من طيبات العمر قضيتها في ضيافته على عادته في قرية حراجل . وادي لا ازال اتمثله كل صباح ومساء مرتديا القمباز الحرير ى فوق " شروال المقصور " خارجا الى " السطيحه " يشخص بحنو وتمجد ونهم الى جلال الجبال الدانية تتوجها اشعة الشمس البازغة او يلم عنها الغروب وشاح النور الوردى فاذا خطوت نحوه قال لي : كأني بهذه الجبال ولدت وكبرت معي !"(١)

ان هاتين البقعتين " الزوق " و " حراجل " وما حولهما كانتا موحيتي معظم هذه " الالحان "

قال ابو شبكة : " في الطرف الشرقي من بلدتي الزوق يمتد واد مهيب يبتدئ بخليج جونيه الذى غنيته في " الالحان " وفي " الى الابد " وفي كثير مما نظمت وينتهي .. لا اعلم في الواقع اين ينتهي .."(٢)

---

(١) رئيف خوري : دراسات وذكريات ص ٦٢ - ٦٣

(٢) المكشوف . العدد ٤٢٠ ص ٨ سنة ١٩٤٥

وحدثني يوسف ساروفيم ونحن نسير ذات مساء على الطريق الممتد من الزوق الى الشارع العام الذى يوازى البحر ان ابا شبكة نظم معظم " الالحان " في حراجل التي كان يحب الاصطياف فيها .

الالحان اذن هي هذا الشعر السائغ اللين الذى جلا الطبيعة بان التقط دقائق مشاهدها ثم منحها هبة من الشعر فكانت صورا جميلة ومعاني كريمة .

يقول ف . ح [١] في حديث له اذيع من راديو الشرق في بيروت ، ونشر في " المكشوف " في العدد ٢٨٨ سنة ١٩٤١ :

" .. قد يخيل الى قارئ هذه الالحان انه يسمع ويرى وينشق انغاما وصورا وعطورا الفها منذ صغره في حسه وسمعه وبصره ولكن القالب والايقاع الجميل الذى يرافق هذه الانغام والصور والعطور ، يغمران القارئ بجو شعرى يسكب الراحة في النفس والحنان في القلب "

وانه ليلتفت في هذا القول التفاتة حسنة الى هذا الاثر الذى تحدثه قراءة هذه الالحان التي يمرح فيها النغم حينا ، ويرن الجرس حينا آخر فيغدو همسا وديعا كئيبا . ففي الحق ان شعورا هادئا بالارتياح والحيوية يخالج المرء وهو يقرأها فاذا هو في مثل السكرة التي وصفها ج . م جويو : " انها سكرة الحرية ، سكرة مادية رفيعة في آن واحد ، سكرة الركض في الهواء الطلق والعودة الى الحياة البكر ، حياة الحقول والرمال "[٢] .

وتعمق التفاتة ف . ح حين يرى هذا الاثر في نفس القارئ صادرا عن فنية النظم ، عن " القالب والايقاع الجميل " .

---

(١) اظنه فؤاد حبيش .
(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة (ترجمة سامي الدروبي) ص ٣٢

والتفاتة هذه هي من جمالية الفن في الصميم ، فالاثر الفني عند اكثر اهل النقد الجمالي " لا يقاس بمقدرته على اثارة العواطف وتهييجها بل الامر بالعكس لان وظيفته تعديل الاهواء وتلطيف العاطفة .."(١) " ومن الخطأ ان نقيس الجمال بمقدرته على اثارة العواطف ."(٢)

ابو شبكة في "الالحان" شاعر فني يبسط يد الفن على شعره فلا يسمح لثورة الامس ان تتدفق فيه ، بل يسير به مسيرا هادئا . وانك لتجد الفن مبسوط الجناح على هذا الائتلاف بين المعاني والصور ، تتداعى وتتصل ببعضها في محبة ووئام :

انظر الى هذه الصورة " نم يا حبيبي نوم الهنا " كيف تستدعي صورة ثانية ملائمة " نامت عيون الزهر " فثالثة " ونام الا المنى والقمر

حتى الندى نام والنسم نم يا حبيبي نم
النهر في الوادى والغصن والشحرور والبلبل الشادى
وكل حي نام الا العطور
والهيام في فؤادى

وتجد الفن في هذا التكرار المستحب في " الحان القرية "فهو يكرر فيها هذا القول اربع مرات في مقاطع القصيدة الاربع :

يا دهر ارجع لنا
ما كان في لبنان

وهذا التكرار ـ فضلا عن تعميقه الاثر في نفس القارئ وعن امتاعه المسامع منه ـ يقوى في القصيدة الوحدة بان يشد اجزاءها بعضا الى بعض ، واذا هي كل يرتاح اليه الشعور ويطمئن العقل (٣) .

---

(١) روزغريب : النقد الجمالي واثره في النقد العربي ص ٨٧ .
(٢) المصدر نفسه ص٨٨ (القول للناقد الفرنسي دى غرامون ليبار)
(٣) راجع كتاب النقد الجمالي واثره في النقد العربي لروزغريب ص ٢٢ ـ ٢٣

وتجد الفن في هذه القوالب النظمية التي اودعت فيها "الالحان" ..

ان معظم هذه القصائد جارية في نظمها على نسق الموشحات الاندلسية ، تختلف فيها البحور والتفاعيل ، وتتنوع القوافي ، ويسكن الروى . وقد يحرك في مواضع قليلة . وامثلة ذلك في "الحان الشتاء[١]" و "الحان الربيع[٢]" و "الحان الصيف[٣]" و "الحان القرية[٤]" و "الحان الطيور[٥]" و "المعصرة[٦]" و "عرس في القرية[٧]" و "عيد في القرية[٨]" و "يا بلادى[٩]" .

ونجد طائفة اخرى من القصائد لم يعمد فيها الشاعر الى كل ما عمد اليه في القصائد السابقة من مخالفة في البحور والتفاعيل ، وتنويع في القافية وتسكين للروى ، ففي قصيدة "الفلاح[١٠]" التزم بحرا واحدا ولكنه تصرف بالقوافي فجعل لكل بيتين قافية ، والتزام قافية واحدة في صدرى كل بيتين ايضا . وفي قصيدة "نهر الصليب[١١]" التزم القافية الموحدة في كل ثلاثة ابيات كما التزمها في صدرى البيتين الاولين من الابيات الثلاثة . وفي قصيدة "صلاة المغيب"[١٢] التزم ثلاث قوافٍ ، هي اللام والباء والتاء مقيدات . ونوع البحور والقوافي اكثر من كل هذا التنويع ، في قصائد اخرى مثل "عرس في القرية[١٣]" و "عيد في القرية[١٤]" و "يا بلادى[١٥]" .

والذى يهمنا من كل ذلك ان نعرف حظ هذه القوالب من الابتكار ، ومدى ملاءمتها لمواضيع القصائد وقدرتها على التعبير عما احسه الشاعر واراد ابانته .

---

(١) ـ (١٠) راجع فهرس قصائد "الالحان"

(١١) ـ الالحان ص ٤٠ ـ ٤١

(١٢) ـ الالحان ص ٥٦ ـ ٥٧

(١٣) ـ الالحان ص ٤٨ ـ ٤٩

(١٤) ـ الالحان ص ٥٤ ـ ٥٥

(١٥) ـ الالحان ص ٦٠ ـ ٦١

هـذه **القوالب** ليست مبتكرة ، فاصولها عند الوشاحين الاندلسيين امثال ابن بقيّ وعبادة القزاز والاعمى التطيلي ثم عند الشعراء المهجريين امثال جبران خليل جبران والياس فرحات وفوزى المعلوف وميخائيل نعيمه .

ولكن ابا شبكة ان كان قد اتبع منهج الاسلاف الاندلسيين ، والمعاصرين المهجريين في تطوير قالب القصيدة العربية ، فهو قد ابتكر لبعض قصائده مثل " الحان الصيف [١] " و " الحان الربيع [٢] " قوالبها الخاصة بها فهو اذن قد قلد منهجا عاما ، لا قصائد معينة .

اما ما بين هذه القوالب الشعرية وبين مواضيع " الالحان " من التئام وانسجام فوفير ، يدلنا على ان الشاعر انما كان يتصرف في النظم تصرف المطبوع ، لا المتطبع وانه قد تشرب جمال الطبيعة ووعى دقائق مناظرها وموحياتها فعبر عن كل ذلك بنغم صادق غير متكلف . فانت تحس الفرح والقوة في " الحصادون [٣] " وتحس مزيجا من الحركة والهدوء في " الحان الشتاء [٤] " حركة مرحة محبوبة في الطبيعة وهدوء في نفوس الناس اللائذين ببيوتهم المطمئنين الى يسر حياتهم بفضل ما بذلوه من جهد قبل حلول الشتاء وما اعدوه له من عدة .. وفي " الحان القرية [٥] " يجرى نغم وان مرتعش بالحنين ، فيه وداعة المعيشة القروية وهدوءها وصفاؤها . وفي " الحان الطيور [٦] " تتجمع الطيور ويتعاقب على السدو و **تصويت** الشحرور والحسون والبلبل والحجل واذا بالطبيعة جميلة ضاحكة مشرقة متغنية ، خلف موسيقى شعرية راقصة ، سريعة النغم ، كثيرة الاصداء .

---

(١) الالحان ص ٢٠ ـ ٢١
(٢) الالحان ص ١٦ ـ ١٧
(٣) الالحان ص ٨ ـ ٩
(٤) الالحان ص ١٢ ـ ١٣
(٥) الالحان ص ٢٤ ـ ٢٥
(٦) الالحان ص ٢٨ ـ ٢٩

وهذه القصيدة الجميلة والقصيدتان "عرس في القرية "[١] و "عيد في القرية "[٢] صالحات كل الصلاح لان يكن شدوا على السنة اطفال صغار يجتمعون في باحة مدارسهم فينطق كل واحد منهم بما نطق به طائر من الطيور[٣] ، او يزفون العروس[٤] ، او يحيطون ببائع الحلوى وبائع اللعب ويغنون ويسمعون صوت العيد[٥].

وللالحان بعد هذا الذى اشرت اليه من سماتها العامة حديث آخر قصير، اضيفه الان .

كانت "الالحان" في اكثرها وصفا للطبيعة ، ولكن ابا شبكة تميز في هذا الوصف بميزتين هامتين عدلتا به عن النهج التقليدى واكثر شعر الوصف العربي . الاولى انه صرف نظره عن الرواسم الجاهزة من تشبيهات القدماء ونعوتهم واستعاراتهم فكانت تشبيهاته غالبا من وحي خياله وفضل ابتكاره وكان اكثرها تشبيه محسوس بمعقول من ذلك تشبيهه كبر بلاده بالامل :

كبيرة بين الدول كبيرة مثل الامل[٦]

وتشبيهه الوجه الحزين بالنعي :

زرت نهر الصليب امس لاسمع كيف ينساب ماؤه الكوثرى
فرآني صفصافه ، فتقنع بضباب كأن وجهي نعي[٧]

وتشبيهه زرقة المنديل بالحلم :

كالحلم زرقة منديلك[٨]

---

(١) الالحان ص ٤٨ ـ ٤٩
(٢) الالحان ص ٥٢ ـ ٥٣
(٣) الالحان ص ٢٨ ـ ٢٩
(٤) الالحان ص ٤٨ ـ ٤٩
(٥) الالحان ص ٥٢ ـ ٥٣
(٦) الالحان ص ٩
(٧) الالحان ص ٤١
(٨) الالحان ص ٤٨

وكـذلك كانت استعاراته ، ومنها :

يـد الظـلام ، و خمرة الاحلام ، وارجوان النهار[١] ، وهيكل الزهور[٢] وعبـق الالهام [٣] .

ونعوته ومنها :

الليـل الطري [٤] ، والظـل المضـياف [٥] والربيـع الطفل[٦] .

اما الميزة الثانية فهي انه لم يكن في وصفه آلة تصوير فوتوغرافية تعنى بنقـل دقائـق المشهد دون ان تظهر اثره متفـاعلا مع نفـس المصـور وعواطفـه ، وانما كا ن مصـورا يسـتخدم ريشـة حساسة شـاعرة ،فـيرى فيما يصـف من الطبيعة نفسـه ويرى حبيـبه .

عـد يا حبيبي ،عاد القطيع وغامت الدور والمغاني
وانقل لقلبي من الربيـع ماحـدث العطر والاغاني
لارجـوان النهار في وجنتيـك
الـوان
ومن حنان الهزار في مسـمعيك
الحـان
والزهر في بهجـة الشجـر يلـوح تكوينه عليـك
رأيته يانع الثمـر في مقلتيـك[٧]

وبعد ،فقـد قال لا لو : "ليـس الفن مرآة الطبيعة بل الطبيعة مرآة الفن " واعتقـد ان فن ابي شـبكة في "الحانه " الصافية قـد بدا واضحا في مرآة الطبيعة التي احبها ووصفها ."

---

(١) الالحان ص ١٧
(٢) = ص ٣٦
(٣) = ص ٦٠
(٤) = ص ٢١
(٥) = ص ٤١
(٦) = ص ١٣
(٧) = ص ١٧

" الـــــــى الأبـــــــــــــد "

.....

الى الابـد

أحـب ابو شـــبكة كثيرا .. فقـد كان الحب زاد حياته وشعره . احب " اولغا " فكانت موحيـة قصائد الغرام في " القيثارة " وبطلة قصته قصـيدته الطويلة "غلواء" ثم احـب المرأة " الزوقيـة " المتزوجة المطفـل فكانت محور اكثر شـعر " افاعي الفردوس " ثم احب ثالثة لم يخصها بمجموعة من شـعره ، ورابعة هي " ليلى " عروس ديوانـــه الشـعري الصـغير " نـداء القلـب ".

بين هؤلاء الحبيبات الاربـع لا تظفـر الثالثة من عناية الباحثين في شعر ابي شـــبكة واخباره الا بالقليـل ، ومن هذا القليـل ما ذكره فؤاد حبيـش صـديق الشاعر ونجيه ، في بحثه " انا وابو شـبكة "(١) .

" من هـذا الذى ذكره فؤاد حبيـش ، ومما عرفته من اولغا زوج الشاعر، ومن مقالـة ادبيـة قصـيرة اسعدني الحظ بالعثور عليها(٢) ، ومما قالـه فيها من شعر استطيع ان ارسم لها ولعلاقتها بشاعرنا صورة لها صلتها الوثيقة بـ" الى الابـد " .

هي هـدى(٣) . فتاة مسـلمة كانت قابلة ، ثم صـارت مغنية . وكان لها في الغناء براعة ، وفي الصوت رخامة (٤) . وكانت جميلة فاتنة ذات " سـمرة مصرية اشـد جاذبا مما تنقـل الاسـاطير عن سـمرة " ايزيس " " (٥) .

---

(١) دراسات وذكريات ص ١٣٥ ـ ١٧٠

(٢) عنوان المقالة " في الجبل السكران " وهي بقلم الشاعر. وقـد نشرها في " المعرض " العدد ١٠٢٨ ص٥ سنة ١٩٣٤

(٣) اولغا ساروفيم : من حديث خاص اذنت بنشره . و " المعرض " العدد ١٠٢٨ ص٥ سنة ١٩٣٤ و " الى الابد " ص٣٨

(٤) اولغا ساروفيم : من حديث خاص اذنت بنشره .

(٥) الياس ابو شبكة : المعرض . العدد ١٠٢٨ ص٥ سنة ١٩٣٤

لقيها ابو شبكة اول مرة سنة ١٩٢٩ " على الشاطىء الرمادى في اعذب بقعة من كسروان"(١) فكان هذا اللقاء فاتحة قصة حب يختلف عن الحب الذى عرفه قلب الشاعر في ايام " القيثارة " و " اغاني الفردوس " ..

وكان لهذا الحب فعل السحر في قلب شاعرنا ، وفي نفسيته :

كان قلبي يا ليل يدفن ماضيه فلم تبتلي بتلك المآتم
كان روحي اذا اقبلت يتنزى الحقد فيه وكان حبي ناقم
فالاغاني لم تبق الا سموما في جناني وفي ضميري سمائم
كان في صوتها ذرور من السحر وهذا الذرور كان مراهم
فتلاشى حلقومها في لظى نفسي يلاشى فحيح تلك الحلاقم
حبها كان مطهرا لعذابي قمت منه الى نعيم قائم(٢)

فراح يترنم بالشعر ، مرحا متفائلا ، سابحا في مثل اشواق الصوفيين ونشواتهم الروحية :

صاح في عينيك صداح الاماني وعلى ثغرك حبي وحناني
ماعلى الدنيا اذ اغنت بنا ليس في الدنيا سوانا شاعران
فاعصرى قلبك في خمر دمي واجعلي الايام في الكأس ثواني
وارشفي مرشفي واهتفي نحن في
اذن الزمان
أغنيان
جمع الحب بنا كل الاغاني
كان في قلبي من الحب بقايا توقظ الماضي والماضي خطايا
حين اشرفت على قلبي امحت غسلت روحك بؤسي وشقايا

---

(١) الياس ابو شبكة : المعرض ، العدد ١٠٢٨ ص٥ ١٩٣٤

(٢) الى الابد ص ٣٨

ونما حب جديد في دمي ما نما ، يا اخت روحي ، في سوايا
ما ارتوى بي جوى والهوى ماروى
الا هوايا
فاذا غنيت شعت في غنايا

جنت الدنيا كما تهوى فجني انما الدنيا هوى منك ومني
انزلت عيناك في صحرائها من سماء الحب سلوا ى ومني
هي كنّاره فتح في يدى طار عن اوتارها الشك فغني
فالغنا خمرنا والمنى ملؤنا
سوف نغذو في الورى اسطورة ينقل الناس الهوى عنك وعني (١)

...

ويكمل فؤاد حبيش قصة هذا الحب فيقول : "احبها واحبته . غناها في قصيده، وغنت شعره . وما لبث الشعر والغناء ان تصاحبا حتى خيل لكليهما انهما لن يفترقا . وجاء الغناء ، في احد الايام ، يقترح على الشعر ان يتوج الزواج صحبتهما ... فاجفل الشعر وتردد ، ثم احجم عن هذه المغامرة الجنونية التي لم تخطر له في بال . ألم يطفيء الزواج جذوة الحب في قلوب الشعراء ؟

وكأن الشاعر احس بدنو الفراق ، فطلب الى صديقه قيصر الجميل ان يصنع له صورة لحبيبه ، حتى اذا نأى عنه بالجسد ، احتفظ بصورته ، فكانت اللوعة اخف وطأة على القلب الجريح والاحساس الرهيف

فصنع الفنان اللبناني صورة جمع فيها اصفى الالوان ، وادق الخطوط ، واضفى عليها من ذاته اظلالا وانوارا جعلت منها احدى روائعه .

---

(١) الى الابد . ص ٢٥ — ٢٦

وظلت هذه الصورة معلقة في قاعة الاستقبال بمنزل ابو شبكة سنوات ... وحاول اقرب الناس الى ابو شبكة وبعض اصدقائه اقناعه بانزال الصورة من مكانها ووضعها في غرفة نومه الخاصة على الاقل ، فأبى . ولعله رأى في محاولتهم تجاوزا على حقوقهم عليه ، فاستقبل ملاحظتهم بابتسامة استخفاف كأنه يقول لهم : ما اشد حلكة قلوبكم !

وبقيت الصورة تتمتع بمقام الصدر من قاعة الاستقبال الى ان دخلت " ليلى صاحبة " الى الابد " في حياة الشاعر ."(١)

يحدثنا فؤاد حبيش بصراحته النادرة عما اظنه جزءا هاما من قصة هذا الحب . وليعذرني استاذي المرشد ان انا نقلت هذا الحديث المكشوف ، فلي في نقله عذران اولهما ان استاذي عودني ان استقصي في البحث ونشدان الحقيقة ، وثانيهما .. ان ناقل الكفر ليس بكافر !

يقول فؤاد حبيش : " كان ابو شبكة عهدئذ (٢) يحب امرأة حب تدله تتمايل صورتها في احلامه ، ويعيش اثرها في شعره ، ويكاد طيفها لا يفارقه نائما او في اليقظة . وكان يظن ان وصالها ضرب من المستحيل . او هو صعب المنال على الاقل . فاكتفى من نعيم حبه الكبير هذا بمشاهدتها كلما تيسرت له ، والتغزل بها بعيدة او قريبة ، حتى خيل اليه انه لا يحن اليها الا بقلبه وروحه دون جسده ونزواته ، الى ان كان بينه وبينها لقاء غير منتظر ففاجأته بحركة جريئة ودعوة صريحة . فصعق العاشق المتمتع لهذه المباغتة ، وتعطل فيه كل حس ، واستحال صخرة باردة وعودا مقطع الاوتار ..."

ويضيف قائلا انه وصف لابي شبكة دواء ، وعلاجا ناجعا ، فما مضت اسابيع حتى اقبل ابو شبكة عليه باسم الوجه ، يلوح بعصاه في زهو وطرب فقد اتت الوصفة ثمارها..(٣)

---

(١) دراسات وذكريات ص ١٥٦ — ١٥٧

(٢) يريد عهد "عصبة العشرة " وقد استمر ثلاث سنوات من ١٩٣٠ الى ١٩٣٣

(٣) دراسات وذكريات ص ١٤٣ — ١٤٤

ان حبيش لا يذكر لنا اسم هذه المرأة او هويتها ، ولهذا ساعمد الى الاستنتاج . ان ما نعرفه عن ابي شبكة العاشق انه احب اربعا حب تدله ، اولاهن " غلواء " وثانيتهن حبيبة سنة ١٩٢٩ وبطلة " افاعي الفردوس " ، وثالثتهن هدى المغنية السمراء ورابعتهن " ليلى " . اما الاولى فينفي علاقتها بهذه الحادثة الغرامية ظرف الزمان " عهدئذ " في قول حبيش : " كان ابو شبكة عهدئذ يحب امرأة ..." فحبه غلواء بدأ قبل عام ١٩٤٠ باعوام كثيرة . واما الحبيبة الثانية فقد انتهى امرها عام بدأ ، حين ثار ابو شبكة ثم عاد الى الهدوء وشمل المرأة بمسالمته حين بدأ حبه الثالث عام ١٩٢٩ واستمر عنيفا سنوات عديدة وظلت آثاره وذكرياته حتى بدأ يزيحها الحب الاخير عام ١٩٤٠ //

هذا الزمن الذى يقول ابو شبكة ان هذه الحادثة وقعت فيه هو ما بين ١٩٣٠ - ١٩٣٣ وهو زمن الحب الثالث ، حب هدى ، هذا ما يقودني اليه الاستنتاج .

فان صح ما ذكره حبيش وصح استنتاجي عرفنا ان حب ابي شبكة دخل مرحلة جديدة وانه لم يعد ينظر الى الحب الجسدى نظرته الصارمة الساخطة التى رمق بها افاعي الفردوس .

نترك هذا الجزء من القصة ونعود الى مقالة " الحبل السكران " التي كتبها الشاعر عام ١٩٣٤ .

في هذه المقالة نجده في " نزل قاصوف " بضهور الشوير ، مستسلما للذهول امام الواح الليل .. واذا بصديق يهمس في مسمعه اسما " اعذب من روح الخمر واكرم من خلقة البدر واطيب من العمر ، فيهب من ذهوله ويغمغم : اين هي ؟ فيجيبه الصديق : " هي في حلقة من الشباب المذكر تتبع الكاس بالكأس وتطعم العيون وتسقى

.../...

الاذن "٠ واذا بالشاعر قد سمره النبأ في مكانه وكاد يغدو تمثالا من الغضب٠٠ ثم راح يغمغم :

هدى ؟ اتعرف هدى انت ؟ (١)

ويسير الشاعر العاشق الى مجلسها ٠٠ ولنتركه يحدثنا عن لقائهما : "٠٠ وما هي الا بضعة تعاريج بين مناضد الخمر وافخاذ السامرات حتى تصلبت في مكاني امام رؤيا من روءى الماضي الجميل ! فقد تسمرت عيناى على سمره مصرية اشد جاذبا مما تنقل الاساطير عن سمرة "ايزيس" على اني ما لبثت ان ملكت روعي وتلفعت بالماضي السليم في الليلة المهشمة ، وحييت ٠٠٠ تحية مبتذلة كالحلقة المحيطة باعذب سمرة مبتكرة ، وسلمت ٠٠٠

وكان حديث خافت ابلغ ما فيه مقلتان كئيبتان وقلب دام ! حديث خافت اتى في دقائق قليلة على تاريخ سنوات خمس كتبت صفحاته الاولى على الشاطيء الرمادى في اعذب بقعة من كسروان ، وكتبت الاخيرة في اروع صرح من صروح الجبل الجبار "(٢)

نتبين مما تقدم ان العلاقة بين الشاعر وحبيبته كانت قد انقطعت في عام ١٩٣٤ او قبله ٠ ونتبين ايضا ان الشاعر كان ما يزال بعد خمس سنين من بدء حبه لها يحن اليها فهو يغضب اشد الغضب حين يعلم انها في مجلس شراب مع طائفة من الشبان ، وهو يلقاها بمقلتين كئيبتين وقلب دام وهو يصفها مثنيا على جمالها وفتنة سمرتها ٠٠

وكان ختام قصة الحب هذه ان هدى سافرت سفرة طويلة ، وتزوجت ثم عادت بعد سنين مع زوجها واولادها ، وحاولت ان تتصل بالشاعر غير مرة فصرفها في رفق ولعله افهمها او لعلها فهمت انه قد احل قلبه حبا جديدا فمضت في سبيلها

---

(١) الياس ابو شبكة : المعرض ٠ العدد ١٠٢٨ ص٥ سنة ١٩٣٤
(٢) المصدر نفسه

وسار هو في سبيله ولكن كلا منهما ظل يحفظ لصاحبه اطيب الشعور والوداد [١] . ويوم اسلمه مرضه الاخير الى فراش المستشفى كانت تعوده ومعها زوجها [٢] . وكانت يوم اذاع الراديو اللبناني نبأ وفاته اول القادمين الى المستشفى . جاءت دامعة العين، حزينة الفؤاد [٣] .

قلت في مستهل هذا الحب ان ابا شبكة لم يخص هدى الحبيبة الثالثة بمجموعة من شعره كما خص الحبيبات الثلاث الاخريات .

فاين ذهب ما نظمه فيها من شعر ؟

الجواب : ان ابا شبكة ان كان لم يخص هدى بما خص به غيرها ، فقد جعل لها نصيبا في شعر " الى الابد . موضوع دراستي الان . وهذا النصيب يتمثل في خمس مقطوعات مطالعها :

١ ـ صاح في عينيك صداح الاماني وعلى ثغرك حبي وحناني [٤] .
٢ ـ رأيتك في قلبي فحلمي منور وصبحي مشراق وليلي مقمر [٥]
٣ ـ تقربني نفسي فتبعدني "غلوا" ويدفعني حبي فترد عني التقوى [٦]
٤ ـ الغرام الذى اطال شجوني حار قلبي به وحارت عيوني [٧]
٥ ـ مرّ بي على قلبي المعنى مرّ عصوف على اخيه [٨]

ولم يضم الى هذا النصيب مقطوعتين نظمهما في " هدى " ونشرهما عام ١٩٣٦ في المشكوف هما :

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٧ ـ ١٥٨
(٢) اولغا ساروفيم : من حديث خاص اذ نت بنشره
(٣) فؤاد حبيش : دراسات وذكريات ص ١٥٨
(٤) الى الابد ص ٢٣
(٥) الى الابد ص ٢٧
(٦) الى الابد ص ٢٩
(٧) الى الابد ص ٣١
(٨) الى الابد ص ٣٤

حيرتني (١)

يا مدمنا في التجني ... افرغت في الصبر دني
لزمت فيك الليالي ... حتى تشاء من مني
والكأس ملت شفاهي ... ومل رأسي ظني
اراك حينا وتمضي ... تأتي وتعرض عني
حيرتني ، فعيوني ... حيرى ، وحيران فني
اراك في ليل قلبي ... اراك في نور جفني
على صرير يراعي ... وفي دخاني وبني
سمعت قلبك حتى ... في صوت "غلوا" يغني
يا كافرا بغرامي ... يا مدمنا في التجني

قلبي على فمك (٢)

هذا فم ام برعم ... ام جمرة ام مجرم
ايكون في فمك النعيم ... وفي النعيم جهنم
قلبي على فمك الشجي ... اموت فيك ويسلم
يبني على نفق الهوى ... ويعيش حيث اهدم
عذبتني فالجوع في ... نفسي وقلبي متخم
وشطرتني شطر هنا ... يشقى ، وشطر ينعم
وتركتني حيران ، لا ... افشي ، ولا اتكتم
جرح الهوى يبقى الاذى ... فيه ، ويفنى المرهم
غنيت لي حبي ففي ... شفتيك من شعري دم
ونحرت روحي في فمي ... سلمت عيونك والفم

---

(١) المكشوف العدد ٧٠ ص سنة ١٩٣٦
(٢) المكشوف العدد ٥٣ ص ١ سنة ١٩٣٦

وقصيدة ثالثة تضمنتها مجموعته " نداء القلب " التي صدرت عام ١٩٤٤، وعنوان القصيدة " أنت لي "[١] ، وقد سبق له ان نشرها عام ١٩٣٧ بعنوان " صوتك العذب "[٢] وساتحدث عنها عند دراستي " نداء القلب " .

الى جانب هذا النصيب القليل يقف نصيب " ليلى " وفيرا مزهوا يشغل بقية شعر " الى الابد "

اما كيف جمع الشاعر بين النصيبين ، او قل بين الحبين الغريمين ، فالجواب ان المحاكم تجمع بين الغرماء . وقد جعل شاعرنا من مستهل " الى الابد " قاعة محاكمة ، كانت فيها ليلى المدعية وكانت هدى المدعى عليها وكان الشاعر العاشق المحامي الذى يحاول ان يساعد المدعى عليه دون ان يغضب المدعي . اما قصائد ابي شبكة في هدى فكانت وثيقة الاتهام .

*

يبدأ شعر " الى الابد " بـ " صلاة " يبدو فيها الشاعر في صورة نبيلة . ها هوذا يسير في طريقه جارا وراءه ظلا مديدا نسجته اربعة عقود من العمر ، كان فيها قلبا متأجج اللهب ، وفكرا بعيد الافاق . وكان فيها ساعيا وراء الرزق .. رزق ضئيل كأنما يتقطر من شق قصبة الكتابة !

انه يسير متعبا ، ولكنه لا يشكو ، ويرفع رأسه الى الله ويأخذ بالصلاة .

انه لا يطلب منه ان يرفع عنه الاعباء او ان يقللها ، ولكنه يطلب شيئا واحدا : ظهرا متينا قويا يستطيع حملها .

---

(١) نداء القلب ص ٣٠

(٢) الجمهور . العدد ٣٤ ص سنة ١٩٣٧

ثم ينسى نفسه ، فقد ذكر الله بها . ثم يعود الى ذكر حبيبته " ليلى " يطلب من الله ان يصونها ويرفع عنها الالسن الخبيثة .

انت يا رب ما خلقت جمالا مثلها في الملائك الانقياء
انت يا رب ما خلقت وفاء كالذى قلت حبها في النساء
انت يا رب ما خلقت نساء مثل ليلى نقية الاحشاء
هي يا رب فلذة منك في الحب جرت من دموعك الخضراء
افتمسي يبسا وفيك ربيع دائم الطيب طيب الاندى؟(١)

ثم يقبل الرسول "(٢) . انه من سلالة رسل الشعراء العرب الاقدمين من غزلي العصر الاموى ، وبني عذرة ، وغيرهم من اهل العاطفة الرقيقة ، والوجد العميق . هو طير ولكنه ليس كالطيور ، فهو رسول الجيب !

ويروح الشاعر يسأله عن الحبيب ثم يحمله اليه هذه الرسالة بعد تردد ..

قل لليلى يا طير ، قل لحبيبي سوف يأتي جيل ويذهب جيل
وعلى حبنا من الخلد زهر وعليه من روحه تقبيل
قل لليلى رأيته فهو نشوان وفي مقلتيه حلم ، جميل !(٣)

وتبدأ بعد هذه القصيدة قصة هذا "الحلم الجميل" الذى كان طويل الامد في عالم الاحلام . فقد عاش اعواما ثلاثة .

---

(١) الى الابد ص ٩ ـ ١٠
(٢) الى الابد ص ١٢
(٣) الى الابد ص ١٦

في " العام الاول "[1] . كان الشاعر وصاحبته على موعد مع الحب . كان هو وحيد القلب ، يوشك ان يفنى حبه وتخبو ناره وكانت هي في اسى وقلق نفسي .. وكان الاثنان ينشدان ما يخفف عنهما عبء اساهما ويملأ فراغ حياتيهما . وراح الاثنان يتبادلان الحديث ، والنصح ..

حين اقبلت والهوى فيك يحبو ... كان حبي يفنى ونارى تخبو
قلت لي بي اسى فهل منك نصح ... و بنفسي داء فهل منك طب ؟
جئت تستوصفينني في شؤون ... ما بها لي يد ولا لك ذنب
قلت ان كان للشرائع رب ... مستبد اليس للقلب رب
قلت هذا بيني وبينك حق ... انما للورى فروض وكتب

ثم كان الهوى ..

ومضت اشهر وتلك الاحاديث يدب الهوى بها ويدب
قلت لي مرة اتفهم قلبي ... قلت يا ست .. قلت: ليلى احب
قلت يا ليل كم خبرت قلوبا ... فبنفسي من ذلك الخبر حسب
غير اني ارى بعينيك ما لم ... تره مقلة ويلمسه لب
اتكونين ذلك الملك البا ... قي ولو جاء من جهنم خطب
اتكونين فيه ما لم تكن انثى ... و ما لم يكن من الناس حب
فتأملت بي وقلت : وماضيك الم تبق منه نار تشب
" فافاعي الفردوس " ما زلن حيات ... وما زال سمهن يدب
قلت يا ليل .. قلت بعد "الافاعي" ... جاء شعر مرطب الحب عذب[2]

كان الهوى .. ولكن الحبيبة الجديدة غيور ، فهي تذكر الشاعر بهذا الشعر الغرامي العذب الذى قاله بعد " افاعي الفردوس " ، وتريد ان يخلص لها الشاعر

---

(١) الى الابد ص ١٩
(٢) الى الابد ص ٢٣

قلبا وشعرا .. وتروح تردد له غزله بهدى ، هذا الغزل المشبوب العاطفة ، الذى تنبسط فيه آفاق الشاعر ، ويتسع فيه قلبه فيضم الدنيا كلها ..

ما على الدنيا اذا غنت بنا ... ليس في الدنيا سوانا شاعران (١)

وهذا الحب الذى ينساب عذريا وادعا ثم تتموج فيه عواطف ثائرة ، عنيفة :

احبك في قلبي كما ثار جائع ... وهجر مشتاق وصلى مكفر
وحق هوى "غلواء" احسك في دمي ... واقسم ما في غلو حب مدمر
جرت في دمي وحيا وتجرين في دمي ... ولكن لون الحب قد يتغير (٢)

وهذا الوجد الذى يتأرج بوجه الصوفية ، فاذا هو حب من اجل الحب ، منسجم مع ابتهال رابعة العدوية :

" الهي ! ان كنت اعبدك مخافة النار فحرقني فيها ، وان كنت اعبدك رغبة في الجنة ، فابعدني عنها ، وان كنت اعبدك لذاتك فلا تصرف عني جمالك السرمدى ."(٣)

احبك لا ارجو نعيما يصيبني ... وابذل من قلبي ولا ابتغي جدوى
وقد كنت اهوى فيك حسنا اناله ... فاصبحت اهوى فيك فوق الذى اهوى
اراك على جفني ، احسك في دمي ... وانشق في روحي شذا روحك الحلوا
مزجتك بي كالخمر تمزج بالندى ... فمنك بجسمي كل جارحة نشوى (٤)

---

(١) الى الابد ص ٢٣
(٢) الى الابد ص ٢٧
(٣) ر . ا . نيكلسون : الصوفية في الاسلام ص ١١١ (ترجمة نورالدين شريبه)
(٤) الى الابد ص ٣٧ - ٣٨

وتظل "ليلى" تتلو وثيقة الاتهام حتى اذا انتهت راح ابو شبكة يتلو دفاعه بصوت خافت ، وصار يطلب للحبيبة السابقة الرحمة ! وله العفو! .. ابو شبكة هذا الرجل الجبار الابي الذى لم يحن رأسه امام عواصف الحياة ، يحنيه الان ويسترحم ويستعفي !

انه الحب .. وانها المرأة !

قلت يا ليل ان حكمك ظالم فارحميها فالحب كالله راحم
لم تجئني بدون قلب بريء انما السن الوشاة أراقم
قلت في مقلتيك منها خيال فهواها ما مات بل هو نائم
ليتني جئت قبلها !ـ قلت لو جئت لالفيت في ترابي جماجم
كان قلبي يا ليل يدفن ماضيه فلم تبتلي بتلك المآتم
كان روحي اذ اقبلت يتنزى الحقد فيه وكان حبي ناقم
فالافاعي لم تبق الا سموما في جناني وفي ضميري سمائم
كان في صوتها ذرور من السحر وهذا الذرور كان مراهم
فتلاشى حلقومها في لظى نفسي يلاشي فحيح تلك الحلاقم
حبها كان مطهرا لعذابي قمت منه الى نعيم قائم (١)

ثم يختم مرافعته هذه بان ينضم اليها ـ الى المدعية ! ـ ، ويروح يترنم بمديحها وبحبه الجديد السعيد :

فعلى مقلتيك سحر غريب فيه من بهجة السماء مباسم
ونقاء على جبينك يا ليلى كأن الملاك ما زال حائم
لي الى الله في حنانك مرقاة وفي صوتك الشجي سلالم
انا يا ليل اسعد الناس حبا ملء عيني نور وقلبي ولائم
سوف تمحى رؤى وتنهار احلام وتبلى منى وحبي دائم ! (٢)

---

(١) الى الابد ص ٣٧ ـ ٣٨
(٢) الى الابد ص ٣٨ ـ ٣٩

وانتهى "العام الاول" واطل "العام الثاني" على مشهد جديد من مشاهد قصة الحب. نحن الان في بيت الحبيبة، لقد نام اهلها، وظلت هي وشاعرها يتبادلان النجوى، وبالقرب منهما امه شيخة اتعبها السهر فاطبقت عينيها ونامت. ويبدو ان الشاعر سره نوم العجوز فراح يخاطب الحبيبة:

فاسهري، فالعجوز نامت على المسند سهرانة... عليها السلام!

وطالت نجوى الهوى العفيف، وغاب البدر، واشتد الظلام، ثم صار الشاعر ينصت الى حبيبته وهي تتحدث. حتى اذا شبعا من الحديث والاصغاء حملا العجوز النائمة الى فراشها، وتركا الشرفة.

ان ابا شبكة الان مبتهج سعيد لذلك فهو يتحدث كما يتحدث المبتهج السعيد. يغلب ابتهاجه لسانه، وتبهر سعادته عقله فاذا بكلامه انفاس متقطعة ينقصها الترابط والوئام، وخطى مضطربة تتخللها قفزات..

اقرأ هذه الابيات التي يستهل بها "العام الثاني"

نام الا الهوى، فاهلك ناموا ... وعلى الليل من هوانا احتشام
جئتني تتضحين حبا كما ... ينضج نورا من القمير الغمام
والطمأنينة التي بقلبك اغفت ... ثم عنها في عينيك استسلام
اى بأس عليك والامة الشيخة عين ... ومسمع وكلام؟
انها من ذويك خير ضمان ... ما عسى ان يقول واش حرام؟
فاسهري، فالعجوز نامت على المسند سهرانة... عليها السلام! (١)

الا تسال عدة اسئلة وتنقد عدة اشياء.. اين المستثنى منه في "نام الا الهوى"؟ وما هذا الهوى "الناضج"؟ ومن دل "القمير" (٢) على شعر ابي شبكة

---

(١) الى الابد ص ٤٣
(٢) استقر "القمير" في بيت آخر ايضا ص ٤٥

فاقبل عليه من دواوين شعراء الفترة المظلمة ؟ ولماذا يتساهل الشاعر فيضم الى الشعر " نثرا " مثل قوله :

انها من ذويك خير ضمان ما عسى ان يقول واش حرام ؟

لنترك الشاعر في سعادته وفرحة كلامه ولنكف عن محاسبته على ما يقوله محاسبة الصيرفي ، والا كف عن رواية بقية قصته ..

لقد انطلق الشاعر المتيم مع هواه الطروب الى احضان الطبيعة ، هذه الطبيعة التي شهدت اساه يوم كانت غلواء تعصر قلبه بذلك الحب الرومانسي الذى يأبى الراحة ولا يعرف السعادة ، ويوم كانت " افعى " الفردوس تثير في قلبه الرياح الضارية ..

وفي هذه الطبيعة يرى هواه .. يراه في الندى والثمار، وفي الصبح والليل ، وفي الخلجان والهضاب ، وفي البرق والسحاب ، وفي الرياض والغابات ...

ولكنه في هذا الموكب الطبيعي الرائع يذكر ما يشجيه . تلك الالسن الخبيثة التي تتقول عنه وعن حبه الاقاويل ، فيتمنى النجاة من عقاربها :

وارفع الالسن الخبيثة عنا وليكن عيشنا نفوسا طرابا
والزمان الرجيم دار نعيم لسوانا لا تفتح الابوابا (١)

وتذكر الحبيبة ايضا مثل ما يذكر ، ولكنها اقدر منه على ايجاد الحلول الواقعية فهي تقترح عليه ان يبتعدا عن اقاويل الناس ونظراتهم الشريرة الى احضان الغابة :

---

(١) الى الابد ص ٤٧

غنني ! غنني ! تعال الى الغابة نغنم من الصخور حجابا
فهنا الاعين المريضة تؤذينا فتبني من الشكوك قبابا
هذه صخرة تقينا نظر الشمس ومن غدرة العيون الحرابا
فطريق الوادى بعيد فلا نخشى ذهابا من عابرا او ايابا (٢)

وفي الغابة يجرح الشوك يد الحبيبة ، فتستقر شفتا الشاعر على قطرات الدم . ثم يجرح الشاعر يده لتستقر عليها شفتا الحبيبة ، توكيدا للمودة وتوثيقا للوفاء على مثل طريقة الهنود الحمر .

ثم ينتهي حديثهما عن نفسيهما ، فيسكتان . والمرأة لا تحب السكوت ، لذا تقترح عليه — وهي سباقة الى الاقتراح — موضوعا جديدا للحديث ، موضوعا طويلا لا آخر له ..

قص لي سيرة الذين احبوا قبلنا انت احسن الناس ظنا (٢)

فيجيبها الى طلبها ، وكأني به يقول لها : " تكرم عينك ! "

اسندى رأسك الجميل الى صدري واصغي اسمعك ما ليس يفنى

ويروح يروى لها قصص قيس وليلى ، وجميل بن معمر وبثينة ، وعروة بن حزام وعفراء .. هؤلاء الشعراء العشاق الذين احبهم من قبل ، وزاد حبه لهم اليوم حين افاء الى مثل حبهم العفيف المجنح ، وحين قربت روح شعره من روح اشعارهم ..

وتنتهي القصة بهذا البيت السعيد الغافر :

نحن يا ليل اسعد الناس فلنغفر لهم كل ما يقولون عنا ! " (٣)

---

(١) الى الابد ص ٥٠
(٢) الى الابد ص ٥٦
(٣) الى الابد ص ٦١

وهنا تتحدث الحبيبة ، فلها هي ايضا من فورة الحب وذكاء القلب وبراعة المنطق ما يجعلها نداء لمحدثها . وينساب حديثها هادئا وادعا تتماسك فيه العبارة ، ويدق المعنى ويعمق .

يا حبيبي كأن طرفي لما ذهب الحلم لم يكن وسنانا
اولسنا في يقظة تخطف الغبطة فيها القلوب والاجفانا؟
اولم نبن بالمحبة والرأفة دنيا اعز من دنيانا
تهدم العالم الذى يهدم الوجدان فينا ، وترفع الوجدانا؟
هذه النبعة الحنون الم تعكس علينا الظلال والالوانا
تفعم النفس من نقاها ينابيع وتملأ اعماقها خلجانا؟
اسعد الناس نحن فليصفح الحب بنا وليكن لهم غفرانا![1]

وفي" العام الثالث " ما تزال شعلة الحب حية في قلبي الحبيبين ، وما يزالان يلاقيان من ريبة الناس ، واقاويلهم ما يؤلمهما ولكنهما يغرقان ذلك في موجة سعادتهما :

نحن عدن وهم مكان مريب شقيت فيه اعين وقلوب
سكب الحب رحمة الله فينا فالسنى مائج بناء والطيوب
كل اعراقنا السعيدة للايمان مجرى وللرجاء دروب
تتناهي بنا الى الغبطة الكبرى فتفنى بسحرها ونذوب[2]

ويزهو الشاعر بمجد حبه حين تعقد الحبيبة بشعره غصنا صغيرا غضا :

قلت ماذا؟ فقلت اكليل حب هكذا يكرم الحبيب الحبيب
سوف تذوي التيجان يا ليل ، والسلطان يذوي جبينه المعصوب

---

(١) الى الابد ص ٦٠ — ٦١
(٢) الى الابد ص ٦٥

والاكاليل سوف تذوى وتبلى ويشيب الغار الذى لا يشيب
وعلى مفرقي وقلبي سيبقى غصنك الرطب وهو حي رطيب

ويذكرني شعره بقصيدة للشاعر الانجليزى الرومانسي النزعة "اللورد بايرون"، عنوانها "كل شيء للحب" ومنها :

دع حديث العظام في كتب التاريخ واشرح لنا حديث هوانا
ان ايامه النضار الغوالي هي ايام مجدنا وعلانا
ورياحينه احب الى احلام قلبي من كل اكليل غار
ما غناء الاكليل فوق جبين غضنته يد الزمان الموارى
هو زهر مصوح انفق العمر فلم يحيه ندى ايار (١)

ويعود الشاعر بعد هذا الى رواية قصص الحب، فيتخير قصة فرنسية هذه المرة . هي قصة تريستان وازولت، وهي تمت بشبه الى قصة حبه .

كانت ازولت ذات بعل وقد جمعها بتريستان حب شريف، ولكن الوشاة اوغروا صدر الزوج، فلقيت ازولت اشد الاذى، ثم انقذها حبيبها، وانطلق بها الى الغاب، وهناك عثر عليهما بعد حين ميتين "في أعماق عناق"،

واذ تشرف القصة على نهايتها تغدو لهجة الشاعر احفل بالقوة، واخصب بالفرح فكأنه يترنم بنشيد الظفر :

كل ما حولنا جميل غنني تخصب الحقول
يدفق النور والسيول
السما مصحف سني والربى متحف غني

---

(١) من مختارات شعرية انجليزية ترجمتها الى العربية

والمسا والنسيم عرق جال فيه هوى نقي
والغصون التي تميل كلها الست تقول
كل ما حولنا جميل

السما جملت بنا ما اقامته حولنا
كل ما حولنا لنا

نحن في العاشقين عيد حدث في الهوى جديد
حبنا لن نفيق منه حلم ما له حدود
نحن مستودع السنا كل ما قام حولنا
جملته السما بنا

يا حبيبي فم الجبل قبل الشمس فاشتعل
قلبه من لظى القبل
هذه ساعة المغيب ساعة الحب يا حبيبي
آخر النور في الذرى اول النور في القلوب
زبد الحب في المقل ذاب واغرورق العسل
هذه ساعة الغزل (١)

وتنتهي القصة بنشيد للحبيبة ، فيه حماسة الخطبة ، وفيه من معاني الشبات على الحب ، والصمود لاعدائه ما يملأ قلوب اهل العشق فخرا واعتزازا :

يا حبيبي ، سيملأ الحب سجني فليشيدوا الحصون والاسوارا
وسأبنيك فيه جسما وروحا وحنانا وعفة ووقارا
ابوسع السجون ان تحرم القلب رؤاه وتحجب التذكارا؟

---

(١) الى الابد ص ٧٣ - ٧٥

سـأنادى في عزلـتي كل غـيم كل عطـر سـرى وطير طـارا
خبّرى الارض يا عطـور ويا غـيم وياطـير ، وانشـرى الاسرارا
خبريها اني احب حبيـــبي خبريها اني احـــب جهـارا
خبرى الارض ، خبريها وقولي ان كوخا اشـد منها جـدا را
ان بيتا على الجمال بنيـناه لتأبى الســـماء ان ينهـــارا
يا حبيـبي ، كما حييت سأحيا ان بي من نعيمـك اسـتمرارا
وعلى كل شـــفرة من جفوني منـك عرق يحـرق الابصـارا
كلما غـرّق الظـلام عيـــوني اطلـع الحـب في دمي انـوارا (١)

....

(١) الى الابـــد ص ٧٦ ـ ٧٨

من هي ليلى ؟

ما عرفناه عن " ليلى " حتى الان قد يرضي الدراسة الادبية ، ولكنني لن اكتفي بهذا الذى عرفناه بل ساضم اليه ما اصل اليه عن طريق الدراسة التاريخية ، في غير الشعر من المصادر والنصوص ، وبذلك نتضح صورة " ليلى " وتعمق خطوطها ..

من رسالتين كتب شاعرنا اولاهما الى " ليلى " في ١٨ نيسان سنة ١٩٤٢ وكتبت هي ثانيتهما عام ١٩٤٦ ونشرهما مترجمتين الى العربية عن اصلهما الفرنسي ، فؤاد حبيش ضمن ملاحق كتاب " الياس ابو شبكة " " دراسات وذكريات " (١) ومن البحث المفصل الذى كتبه حبيش بعنوان " انا وابو شبكة " ونشره في الكتاب الانف ذكره ، ومن شعر ابي شبكة في هذه الحبيبة ، ومن حديث شخصي لي مع اولغا ساروفيم زوج الشاعر ويوسف ساروفيم اخيها نستطيع ان نستنتج ونعرف من المعلومات ما نستعين به على معرفة هذه المرأة التي احبها الشاعر واحبته ، وكان حبهما العظيم واحة خضراء افاء اليها الشاعر بعد عناء السير وطول السرى ، وعرف فيها السعادة والاطمئنان .

---

(١) جاء في القسم الثاني من كتاب " الياس ابو شبكة . دراسات وذكريات " المعنون ب " وثائق " ص ١٨٩ المعلومات الاتية حول رسائل الشاعر وصاحبته : " تبادل الشاعر وصديقته ليلى ، عروس " نداء القلب " و " الى الابد " ، عشرات الرسائل . ويغلب على الظن انهما كانا يتراسلان بالفرنسية ، اللغة التي كانا يتخاطبان بها ويتناجيان . ونعلم ان رسائله اليها اعيدت اليه في وقت ما لسبب ما ، فضمها الى رسائلها اليه ، وربطها جميعا بشريطة وردية ، وحفظها في خزانته . وكان الشاعر يفكر في نقل رسائله ورسائلها الى اللغة العربية وفي نشرها ولكن الموت عاجله ، فحال دون تحقيق امنيته .

ولما دعي صاحب دار المكشوف للنظر في اوراق الشاعر بعد موته ، لم يقع على اثر لتلك الرسائل بينها . وقيل ان ابو شبكة ، وهو على فراش الالم في المستشفى الفرنسي بالعاصمة ، اوعز لاحد المقربين اليه باخذها من خزانته وحفظها لديه ، او تسليمها لصاحبته . وقيل ان صديقته هي التي استولت عليها بالاتفاق معه . والله اعلم . وقد وقعت في يدنا رسالة منه اليها ورسالة منها اليه نثبت نصهما العربي .

في عام ١٩٤٠ التقى العاشقان لقاءهما الاول[١] . ثم نما هذا الحب صافيا عميقا تفاهمت فيه روحاهما . كان هو شاعرا متقد العاطفة وكانت هي على جانب كبير من الجمال والذكاء والثقافة وقد وجد كل منهما في صاحبه صدى اشواقه .

وكانت "ليلى" - واسمها الحقيقي "للي" (Lily .. زوج ثرى من اثرياء "الزوق"[٢] وقد عرفها ابو شبكة كما يعرف ابن الضيعة كل اهل الضيعة وساكنيها .

ونمت المعرفة فكانت حبا . وبعد عامين نقرأ في رسالة بعث بها الياس اليها ما نفهم منه ان الوجد بات عميقا :

" ما عجزت عن قوله منذ هنيهة ، اأستطيع ان اقوله الان ؟ اني ما زلت مغمورا بهذه السكرة التي ذقتها بين ذراعيك ، بهذا الرحيق الذى سكبته عيناك ، بهذا الانخطاف الذى يغرقني فيه لون بشرتك الزنبقي يسقيه الينبوع العذب المتفجر من عينيك الجميلتين في كل مره اجدني بالقرب منك "[٣]

احبها واحبته . وكتبت اليه تتحدث عن حبها :

" الياس ، يا حبيبي ، اأستطيع ان اسألك هل احبتك امرأة قبلي كما احبك؟"[٤] ثم تقول : "اتمنى ان اعوض عما مضى ، وان امسك بكلتا يدى هذه الساعات المسرعة التي تسابق فرحي ، ويا للاسف ! اغفر لي ماضيا كنت فيه طفلة مدلله . كانت طفولة مريرة ، غريبة عن المرأة التي صرت اليوم فبفضلك ارتقيت الى فهم الحياة فهما عميقا - الى حقيقة لا تبلغ الا بالفن - لولاك لما بلغتها الا بصعوبة كلية . اني معجبة بك واحبك "[٥]

---

(١) فؤاد حبيش : دراسات وذكريات ص ١٩٢
(٢) اولغا ويوسف ساروفيم : من حديث خاص اذنا بنشره
(٣) الياس ابو شبكة : دراسات وذكريات ص ١٩٠
(٤) ليلى : دراسات وذكريات ص ١٩٢
(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

وظل هذا الحب على حاله من التأجج ، حتى اسكت الموت هذا الشاعر الكبير[١] .

بعد ما ودع ابو شبكة **حبه الثاني** ونأت عنه حبيبته المغنية السمراء لم يبق له الا الذكريات وصورة ذكريات تختلط فيها **الغذوبة** بالالم ، وصورة رائعة للحبيبة رسمتها ريشة رسام مبدع[٢] .

ومرت الايام واذا به يحس بوحدة موحشة قاسية وفراغ قلبي اليم .
كان الشعر والحب والخمر **ثالوثه المحبوب**[٣] ، فضاع منه الحب .

وكانت المرأة زاد حياته ومنبع شعره ، فخسلت حياته منها .
ولم يطق ابو شبكة الصبر على عيش لا تنضره ابتسامة امرأة ، ولا تدفئه ، وراح ، كما حسب فؤاد حبيش ، " يفتش عن عروس جديدة تنير قلبه بحبها ، وتملأ فراغه بشوقها ، وتغمر جسده بطمأنينة الشبع والارتواء ، فيبعث الشعر على شفتيه فينشد ويغني ، او يبكي وينوح ...

وظل يرقب هذه الانسانة وهو يجهل من اين ستهبط عليه او تصعد اليه ، أمن السماء ام من الارض ، ام مما بينهما ، حتى تجلت له " الناسكة " فقال فيها :

بروحك مغمورة يقظتي ... ونشوى بسحرك احلاميه
وحلمي بحبك لا ينتهي ... وهل تنتهي الغفلة الواعية ؟

فلما وجد عروسه وجد نفسه ...»[٤]

---

(١) فؤاد حبيش : دراسات وذكريات ص ١٦٣
(٢) = = : = = = ص ٥٨ (٣) نداء القلب ص ٥٨
(٣) = = : = = = ص ١٥٩
(٤)

كان حبا عظيما ، يروى فؤاد حبيش اخباره ، فيقول :

" واندفع ابو شبكة في دروب حبه الجديد اندفاع يافع في الربيع الاول . وما بالي بعذول او رقيب ، ولا بزوج او قريب . وكان يشرد في الغابات وبين الصخور والى جانبه حبيبته يلفهما القمر باشعته الفضية الصافية ، وتبدو الطبيعة لاعينهما بلياليها الصيفية الساحرة ، وبغناء اشجارها ، والحان نسائها ، وشدو بلابلها ، وكأنها خلقت لمتعتهما دون سائر المخلوقات . او ترسل السماء عليهما امطارها غزيرة ، مربكة ، كأنها تحاول الانتقام من جرأتهما ، فلا يعيران هذه العقبات اى اهتمام ، بل يمضيان في تبادل القبل تشتعل بها الشفاه ، ويتناجيان متعانقين ، او يتشاكيان متخاصرين ، — ويتواعدان . ثم يفزع كل منهما الى وحدته وقد انتهت صلاة المغيب ، فلا يكاد يدرى بلقائها احد . او يطوى الشاعر الكيلومترات مشيا على قدميه في ظلام الليل الحالك وزمهرير الشتاء القارص للاجتماع بها دقائق معدودات دون ان يعبأ بما تخبئه له الطريق من اخطار لجنود هنود يخيمون على دربه اليها وهم مجهزون باحدث الاسلحة ، وهو اعزل الا من ايمانه بحبه الاكبر ، والا من ارتياحه الى وفائه بوعده . اما اذا حالت موانع قاهرة دون اتصالهما — وكثيرا ما كانت تحول ، — فالتليفون رسول امين بينهما يحمل اليه صوتها ويحمل اليها صوته ، والرسائل المشبوبة تعوض من اللقاء وتبرد الشوق ، ولكن الى حين ...

على ان " ليلى " كانت مستبدة في حبها ، قاهرة ، تتملكها انانية جارفة لا تكاد تنجو منها عاشقة مهتاجة ، مخلصة ؛ فما زالت بالشاعر تتلو عليه صفحات من ماضيه حافلة بالذنوب والاثام ، حتى انكر هذا الماضي كله ، وندم ندامة كاملة ، وثاب توبة صادقة ، واغتسل بماء عينيه ، وتطهر على نار اشواقها ، فصار خليقا بحبها . قالت :

نحن بدء الحياة ! قبل حلول الحب فينا كان الوجود ضبابا
غنني ! غنني ! .....

واستمرت هذه الغبطة المبطنة بالالم ، على ما صحبها من هزات ، وتخللها من عذاب ، سبع سنوات كانت في عين ابو شبكة ثواني او اجزاء من ثانية .

وانتابت ابو شبكة قبيل وفاته ، تجارب قاسية ، ونزلت به محن قاصمة ، منها ما اتصل بروحه ، ومنها ما تناول حياته المادية وهدده في قوته اليومي . فصبر على هذه الصدمات الجديدة في اباء وكبرياء ، ـ وما اكثر ما صبر على اخوات لها منذ بلغ سن الرشد ! ـ وتجالد ، وحاول ان يكتم ما يقلق نفسه على مستقبله ومصيره ولكنه لم يلبث ان قال لي ، يوما ، وهو في شبه دوار من الحمى :

ـ ان تكن هذه المكارة تتساقط علي كزخ المطر هي ثمنا للنعيم الذى ارتع من ابخسه ثمنا بابيات له قالها في " ليلاه "

نحن في العاشقين عيد حدث في الهوى جديد
حبنا لن نفيق منه حلم ما له حدود
نحن مستودع السنا كل ما قام حولنا
جملته السما بنا

ولكن اثرا من وساوسه وهمومه ظل يطفو على وجهه وفي عينيه ، وقد مضى على هذا المشهد الفاجع اكثر من ستة عشر شهرا ، وصورة ابو شبكة فيه عالقة بخاطري لا تبرحه . فكأن القدر جمع ، في لحظة عابرة ، كل ما جعل من الشاعر تمثالا حيا للشقاء ، والحب ، واللذة الغارقة في بحر من الالم !»[1]

هذا الذى يقوله فؤاد حبيش ويسهب في وصفه وتفصيل اخباره تنكره او تكاد اولغا زوج الشاعر .

---

(١) فؤاد حبيش : دراسات وذكريات ص ١٥٩ ـ ١٦١

كانت عبارتها وهي تحدثني عن غرام زوجها الراحل بها متلاحقة مليئة بالحماسة وكان المحور الذى يدور حوله حديثها ان "الياس" ما احب امرأة غيرها فهي حبه الاول و .. الاخير . وسألتها عن حبه لليلى وحب ليلى له فراحت تقول : انا صريحة كل الصراحة . ان الياس تغزل بغيرى واستلطف [1] غيرى ولكني مورد شعره الحقيقي ."انا اعطيته وحي الشعر" .

اما ليلى صديقتنا وهي ما تزال صديقتي حتى اليوم " فامرأة آدمية شريفة " كان الياس" يحب الست باخلاقها " وقد اعز ليلى كثيرا لاخلاقها ". "انها ست طاهرة نقية " و" يجوز انها اوحت له شعرا " .

ورحت اسألها عما تبرر به الاخبار الشائعة عن غرام زوجها بليلى فكان الرد ان هذه الاخبار من مبالغات خصوم زوجها الحزبيين ممن لم يكونوا من انصار الكتلة الوطنية التي كان يتزعمها السيد اميل اده وكان الشاعر قد انضم اليها .

وهذا الذى ذكرته اولغا هو ما ذكرته لمندوب احدى المجلات اللبنانية .قالت :

" باستطاعتي القول ان الياس لم يحب احدا سواى . ولكنه استلطف بعضهن [2]".

وقد اختتمت حديثها مستنكرة ان يقوم الياس بما قال فؤاد حبيش انه قام به من تسلق للصخور ليلقى الحبيبة ، ومن ربط لرسائلها بشريطة وردية ، فقد كان هذا مما يتنافى مع رجاحة عقله واكتمال نضجه [3] .

لماذا تنكر اولغا ان زوجها احب غيرها ؟ الا انها امرأة تتحدث عن زوجها الراحل الذى كان حبها الاول والاخير ؟ .

---

(١) ان ما يسميه فؤاد حبيش وغيره حبا تطلق هي عليه هذا اللفظ : الاستلطاف .
(٢) رياض حنين : مجلة المجالس المصورة . العدد ٥٤ ص ١٠ سنة ١٩٥٥
(٣) من حديث خاص معها اذنت بنشره .

ام لانها لم تكن تعلم . يقول المثل : ان الزوج آخر من يعلم !

فهل نستطيع ان نقول : ان الزوجة ايضا آخر من يعلم ! وان ما عرفه الكثيرون عن حب يجمع قلب زوجها وقلب صديقتها لم تعرفه هي ؟ ام هل السبب انها تحاول ان تنقذ " سمعة " زوج عزيز ! أحب غير زوجته، بل احب زوج غيره ؟

ان ما تقوله اولغا يقوى القول بعفة حب زوجها الاخير ولكنه لا ينفي هذا الحب فادلته اقوى من ان تنهار بمثل هذا الانكار الذى تلوذ به ، وتكرر عباراته بحماسة وانفعال ..

...

هـــذه هي مجمـوعة " الى الابـد " الشـعرية ٠

حبان يغـار ثانيهما من اولهما ، ويقـف صاحـب الحبـين في مثـل حـيرة ، فهو حريـص على رضـى حبـه الثـاني ، وفي لحبه الاول ٠ ومن شـعره في الاول وهـو مقطوعات تنفـرد كل واحـدة منها بوحـدتها الفنية ٠ ومـن شـعره في الثـاني وهـو شـعر غنائي ، قصصي المنهج تأتلـف مجموعة " الى الابـد " ٠ وكان احرى عنـدى ان يخـص الشـاعر قصائـد الحـب الاول كلها بمجموعة ، فلا يـذلها في قفـص الاتهام ولا يبهـم امر دراسـتها على بعـض الادباء ممن حسـبوا كل قصائـد " الى الابـد " في ليلى وبـنوا على هـذا الحسـاب استنتاجاتهم وآراءهم " ٠

ثم ان هـذه المجمـوعة تمثـل من الشـاعر مرحلة تطـور شـعرى هام فنحـن نرى ان اثر الادب الفرنسـي الـذى كان واضحـا في " افاعـي الفردوس " و " غلواء " قـد خـف في شـعره ليقوى ، ويحـل محله اثر الادب العربي ، فهـذه المجموعـة في روحها واسـلوبها قريبة من نسـيب الشعراء العشـاق في العصر الاموى ٠ ويرى الناقـد مارون عبود ان بين ابي شـبكة وعمـر بن ابي ربيعـه " قرابـة فنيـة دموية (٢) " في " الى الابـد " ٠

ان شـاعرنا صادق في " الى الابـد " فقـد استمد شعره في هذه المجموعـة من تجارب صـادقة ، عبر عنها بقوة وحرارة ٠ والشعور الانساني " يهتز كاملا غير منقوص في هـذه الملحمة الحبية ، ان صحت التسمية ، كأنها اجزاء كائن حي ، يهتم بعضها بعضا ٠"(٣)

---

(١) راجع ما كتبه جورج غريب في كتاب " الياس ابو شبكة ٠ دراسات وذكريات " بعنوان " شاعر الحبان فهو يخلط قصيدة ابي شبكه التي قالها في هدى ومطلعها :

صاح في عينيك صداح الاماني وعلى ثغرك حبي وحناني

بما قاله في ليلى من شـعر ٠ ص ٩٩ ـ ١٠٠

(٢) دراسات وذكريات ص ٣٠

(٣) مارون عبود : دراسات وذكريات ص ٣١

" نـــــداء القلـــــــــــب "

. . . . . .

ـ نداء القلب ـ

٤٢

صدر "نداء القلب" عام ١٩٣٤ ، بعد "اغاني الفردوس" و "الالحان" متضمنا احدى وعشرين قصيدة ، من الممكن ان نعرف متى نظمها على وجه التقريب ، ولهذه المعرفة اهميتها في مجال الدرس .

نظم ست عشرة منها بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٣ وواحدة عام ١٩٣٧ ، واخرى عام ١٩٢٩ ، (ولم استطع التوصل الى معرفة الاوقات التي نظم فيها الثلاث الباقيات) فلقد سبق ان نشر ابو شبكة القصائد الثمان عشرة الاولى في مجلات بيروتية ، فرجحت انه نظمها في سني نشرها .

ثلاث من هذه القصائد نشرت عام ١٩٤١ وهي "عودة الحب" و "الشاعران" و "كأسان" . وعشر نشرت عام ١٩٤٢ وهي "اعذب الشعر" و "لولاك" و "الناسكة" و "الشاعر" و "العفاف المغوى" و "ارض الميعاد" و "احبك" و "العذاب الحي" و "استغراق" و "الا ليالينا" . واربع نشرت عام ١٩٤٣ هي "انت ام انا" و "الناسك" و "الثالوث البكر" وواحدة نشرت عام ١٩٣٧ هي "انت لي" و واحدة نشرت عام ١٩٢٩ هي "الاناء" . اما القصائد التي لم ارها منشورة في المجلات فهي : "يد كريمة" و "ليل الصيف" و "هذه خمرى" .

ومن هذا نتبين ان معظم هذه القصائد من منظوم الاعوام ١٩٤١ و ١٩٤٢ و ١٩٤٣ وفيها كان قلب الشاعر مليئا بمجد حبه الاخير حب ليلى .

.../...

يبدأ "نداء القلب" بقصيدة ، من جيد الشعر ، هي "الاناء"(١) . ولهذه القصيدة قصتها ، وقيمتها الادبية ..

كان ابو شبكة ـ كما ذكرت من قبل ـ عازما على ان يتلو ديوانه الاول "القيثارة" بديوان ثان يسميه "انات الرباب" . وكان قد بدأ ينشر نبأ عزمه على اصداره في عام ١٩٢٩ ، ففي جريدة "المعرض"(٢) نجد له قصيدة عنوانها "انات الرباب" تتقدمها الكلمة الاتية : "عنوان المقدمة الشعرية التي وضعها شاعر البائسين الياس ابو شبكة لديوانه الفني الجديد "انات الرباب" الماثل للطبع في (مطبعة صادر) وهي الزفرة الثانية من ذلك العنصر العذب" .

ولكن ديوان "انات الرباب" لم يظهر لان ابا شبكة احس انه تسرع باصدار "القيثارة" ، ولم يعد يرضيه ان يصدر غيرها ، قبل ان يشتد اسره ، ويزداد بالشعر تمرسا .

وكما اختار ابو شبكة من كل "القيثارة" قصيدة واحدة نشرها بعد تنقيحها في "الالحان"(٣) كذلك اختار من ديوانه "انات الرباب" القصيدة المسماة بالاسم نفسه ، ونشرها في اول "نداء القلب" باسم جديد هو "الاناء" بعدما اضاف اليها مقطعين ونقح مقطعها الاخير ليبعد عنه (انات الرباب) ، ويشاهد قلبه "ضاحكا" في الاناء بعدما كان "محطما" ..

كان المقطع الاخير :

وما زلت في الدنيا اطوف بخمرتي وحولي شعب هازئ بوفائي

---

(١) نداء القلب ص ٧

(٢) العدد ٨٢٤ ص ٤ سنة ١٩٢٩

(٣) "القيثارة" ص ٥٠ ـ ٥١ و "الالحان" ص ٥٦ ـ ٥٧

الى ان عداني اليأس فاخترت عزلتي افتش فيها عن حطام رجائي
وذوبت خمرى في اناء من الهوى لاشربها ممزوجة ببكائي
وجركت اوتار الرباب فصعدت أنينا يعزى سحرتي ومسائي
وشاهدت قلبي في الاناء محطما يتمتم في نفسي انين شقائي (١)
فأدنيته من مرشفي وشربته وسميت - انات الرباب - انائي

فصار :

وما زلت في الدنيا اطوف بخمرتي وحولي شعب هازئ بوفائي
الى ان دهاني اليأس فاخترت عزلة افتش فيها عن حطام رجائي
وذوبت خمرى في اناء من الهوى لاشربها ممزوجة ببكائي
فشاهدت قلبي في انائي ضاحكا به دعة عذراء في خيلاء
فادنيته من مرشفي وشربته وما زال ماء الحب ملء انائي (٢)

٥

وقصيدة "الاناء" هذه فيها صورة الشاعر المعطاء، يهب الناس اكرم ما يملك : قلبا يعصره في اناء من الهوى ويدور به على الظامئين .. ولكنهم في غفلة من جهلهم ونزوة من جهالتهم ، يعرضون عن اليد الندية ويرفضون الشراب الطهور .

لقد دار الشاعر بانائه على الفقراء ، فانكروا ما فيه من غنى وقالوا : "خمور ما تبرد غلة " . وسار به الى الرؤساء والزعماء ليشربوا منه عدلا فمالوا

---

(١) اهم ما لحق المقطع الاخير من تغيير هو في هذا البيت وتاليه . قارنهما بالبيتين الاخيرين من قصيدة "الاناء" في "نداء القلب" ص ١٢

(٢) نداء القلب ص ١٢

عنه لانه "محظور عليهم" . وترك الرؤساء وراح الى السجون حيث الابرياء التاعسون فقالوا : " دماء ما تحل قيودنا " . وعاد بانائه الى الحكماء يقول : هذا هو النور فاشربوا ، فهزوا رؤوسهم شامتين ، وسعى بانائه الى الامراء فردوه اشد الرد وعدوا مقالته تحقيرا لطغراء الاجداد ، ورجع الشاعر بعد طول المطاف الى الشعراء ، اخوانه في العطاء ، وقدم اليهم اناءه الشريد ، يشربوا منه الحب فتضطرم منهم القلوب ، ويأتلق فوقهم الجمال .

ماذا قال الشعراء ؟

ان شاعرنا يصمت فلا يذكر لنا ماذا قالوا او فعلوا .

ويظل الشاعر يطوف على الناس بخمرته ، ويظل الناس يرفضونها منشغلين بجهلهم اوغرورهم او مطامعهم الدنيوية . ويغلبه الياس فيعتزل الناس ، وفي عزلته يفتش عن وحطام رجائه . ثم يرفع اناءه ويشرب الخمرة ممزوجة بدموعه فيرى قلبه في الاناء يضحك في دعة خالصة وخيلاء ..

في هذه القصيدة نرى ايمانا عميقا بالحب الانساني ، يعرضه الشاعر في مزيج طيب من الواقعية والمثالية . ونجد نزعة رومانسية واضحة كل الوضوح . الشاعر هنا يحس انه امرؤ متفوق ، بل امرؤ نابغة عال على مستوى الناس . ولكنه يحاول — مدفوعا بطبع انساني خيّر — ان يسير معهم على طرقاتهم وان يكون لهم ذا جدوى وشأن ، فيحمل اناءه ويدور به عليهم .. ولكنه يخيب ، ويعود من رحلته الطويلة حاملا اناءه الثمين ، لم يلق في الناس من ينهل منه .

هذا المشهد يمثل من الرومانسية سمة بارزة . فالرومانسي يشعر بان الناس لا يفهمونه بل يسخرون من نبوغه واحلامه فينموعنده نوع من الكره العاطفي للبشر ويبدو له انه " ما من شيء مشترك بينه وبين العالم " كما يقول لامرتين .

والقصيدة ، بعد هذا ، مما يعجب به انصار الالتزام ، ومحبو الشعر الاجتماعي ففيها ما يلتئم مع مقاييسهم ومناهجهم ، ولقد عبرت مجلة "الرسالة" المصرية عن رأيهم يوم عمدت الى القصيدة فاختارتها من بين قصائد "نداء القلب" سنة صدر ، ونشرتها متوجة بكلمة ثناء واعجاب كان منها " .. وكان الاشبه بما قلنا ان نسمعك لحنا من الحان هذا الغزل المشبوب لهذا الشاعر الموهوب ، ولكننا آثرنا ان نسمعك القصيدة الاولى منه ، لانها ابلغ ما يصور حال الادب الرفيع ، في هذا الزمن الرقيع "(١) .

اما قصيدته "انت لي" فقد نشرت عام ١٩٣٧(٢) . فهي بعد "الاباء" اقدم قصائد المجموعة . ولهذا فهي ذات طابع خاص يختلف عن طابع القصائد الاخرى . وهي بعد من وحي المغنية السمراء التي هام بها الشاعر قبل "ليلى" التي بدأت علاقته بها عام ١٩٤٠ (٣) .

ولقد لفت امر هذه القصيدة نظر جورج غريب — وهو من ابرز الادباء المهتمين بدراسة ابي شبكة — ولكنه لم يدرك سرها . ظن انها من وحي "ليلى" فراح يوجه اليها الحديث قائلا : " ان الادب العربي لمدين لك بكثير يا الهة الشاعر ، فانت التي علمت ابا شبكة كيف تكون الشكوى وكيف يكون الانين برغم ما كنت تبعثين من شك في صدره احيانا ، شك اقرب الى اليقين بالاخلاص منه الى الريبة به "(٤)

---

(١) "الرسالة" المصرية . العدد ٥٦٢ ص٣١٦ سنة ١٩٤٤

(٢) الجمهور . العدد ٣٤ ص٥ سنة ١٩٣٧ (بعنوان "صوتك العذب")

(٣) فؤاد حبيش : دراسات وذكريات ص ١٩٢

(٤) دراسات وذكريات ص ٣٧

قلت ان لهذه القصيدة طابعا خاصا اما هذا الطابع فهو طعم الحب فيها .. انه مزيج من عذوبة حب "الى الابد" ومرارة حب "غلواء" وهواجس حب "الافاعي" . فها هوذا الشاعر في فرحته بحبه يحيط قلبه بكآبة من صنيع الظن ، حين يتصور الحب خطايا ، وحين يساور نفسه هاجس خاطف يقول له : لعل في عيني حبيبتك سواك !

غير اني احسن نارا بقلبي ... ايكون الهوى بقلبي خطايا
هاجس خاطف يساور نفسي ... وانقباض تحسه رئتايا
ماء عينيك فيم يصلب احيا ... نا ويقسو ، كأن فيه سوايا[1]

٥

(١) نداء القلب ص ٣١

قلت ان قصة الحب في "نداء القلب" هي قصة الحب الاخير الذى امتلأ به قلب شاعرنا وكانت "ليلى" موحيته وعروسه الفاتنة .

ولكني لن اتحدث عن "ليلى" كثيرا هذه المرة فما اريد ان اعيد ما قلته عنها من قبل .

اما هذا الشعر الذى يضمه "نداء القلب" فشبيه بشعر "الى الابد" روحا واسلوبا .

هو قصة الحب العائد .

عاد الحب فاثارت عودته لهيبا قديما ، مثلما تثير الريح الرماد عن لظى حي يقظان ، ففرح الشاعر بعودته ولكنه فرحه هذا ظل مشدودا الى الكآبة التي نسجتها على قلبه السنون الماضية :

يا حب قل لي من ارسلك ... اساحر انت ام ملك
اطفأت نارى بمقلتيك ... وافرغت رحمتي عليك
فمن اعاد اللهيب لي ... ومن اعاد الضيا اليك
اخليت قلبي مذ ودعك ... بحق حبي من ارجعك
ولم تعود ومن غصوني ... لم يبق عود
وفي عيوني ... لم يبق دمع ليطمعك[1]

ولكن الشاعر بعد فترة من التردد ، يسير مع حبه الجديد . لقد امتدت اليه يد كريمة من حبيبة مسعدة فخففت عن كاهله العبء وابرأت في قلبه الجرح فهو يحس بالسعادة ، ويود لو ان كل المعذبين الاشقياء ظفروا بمثلها .

---

(١) نداء القلب ص ١٤ - ١٥

يا نديمي ابرأت جرحي يد　　فاض منهامرهم القلب الكريم
فعلى كل شقي رحمة　　من سمائي وعلى كل سقيم (١)

في نداء القلب حب غريب عن " افاعي الفردوس " .

ان في عيني حبيبي طربا　　شاع آمالا وعطرا في صميمي
اين منه ذلك الهم جرى　　من افاعيه سموما في كلومي (٢)

انه حب مجنح له من سعة المدى ما ينطلق فيه جناحا الشاعر بعيدا ، وما يجعله وجدا صوفيا يتحد فيه الحبيب بالحبيب ، وتتجلى صورة الحب في كل المرئيات :

جمالك هذا ام جمالي ؟ فانني　　ارى فيك انسانا جميل الهوى مثلي
وهذا الذى احيا به ، انت ام انا　　وهذا الذى اهواه شكلك ام شكلي ؟
وحين ارى في الحلم للحب صورة　　اظلك يجرى في ضميرى أم ظلي
تربع كل الحب في كل ما ارى　　امن روحك الكلي هذا السنى الكلي (٣)

كأني بالشاعر هنا في مثل جبة الحلاج الصوفي المشهور الذى قال :

انا من اهوى ومن اهوى انا　　نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتني ابصرته　　واذا ابصرته ابصرتنا (٤)

---

(١) نداء القلب ص ٦١
(٢) نداء القلب ص ٦٠
(٣) نداء القلب ص ٥٣
(٤) ر . أ . نيكلسون : الصوفية في الاسلام ص ١٤١ (ترجمة نورالدين شريبه)

وكأني به يشير الى الخمرة التي سكر بها الشاعر ابن الفارض ، من قبل ان يخلق الكرم [١] ، حين يقول :

كأنك شطر من كياني اضعته ولما تلاقينا اهتديت الى اصلي [٢]

وما اشبه قوله :

احس خيالي في خيالك جاريا وروحك في روحي وعقلك في عقلي [٣]

بقول الحلاج :

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال [٤]

ويمضي الشاعر قدما نحو " وحدة الوجود " الصوفية ، فلا يكفيه ان يرى نفسه في حبيبته ، وان يراها في نفسه ، بل يضم الى هذه الوحدة عنصرا جديدا هو الطبيعة / يلجأ الى صدرها الحنون :

والغاب صدر حنون غامت عليه الحلم
سكرانه ، والسكون حلو الشذا والنغم
وللنسيم وللقمر
يد الكريم على الشجر
وللحفيف همس لطيف [٥]

ويرى حبه ماثلا في مشاهدها ومفاتنها :

---

(١) شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم
(٢) نداء القلب ص ٥٤
(٣) نداء القلب ص ٥٤
(٤) ر . أ . نيكلسون : الصوفية في الاسلام ص ١٤١ (ترجمة نورالدين شريبه)
(٥) نداء القلب ص ٤٧

اراه على المنحنى والخليج وفي هذه الغابة الجارية
وفي ما يقوت عروق الدوالي وما يضمر الكرم للخابية
اراه على امل الزارعين في موسم الحقل والماشية
اتيت احبك في ما تحب واوصد دون الورى بابيه
فما عالمي غير مغنى الجمال اهواك فيه وتهوانيه

يبدأ الصوفي رحلته خلال "طريق" طويلة يعبر فيها سبع "مقامات" فاذا عبرها كلها انتقل الى "الاحوال"[1] وتمرس بها ، وبعدئذ يكون من الادراك في مراقبة العليا ويصل الى "المعرفة" او "الحقيقة"[2] . ثم تسكر بروحه بخمرة العشق الالهي فاذا هو غائب عن حسه ، غير واع ، ولكنه في "اللاوعي" يكون من الوعي في اتمه ، وتصل روحه الى ما لا تصل اليه في حال اليقظة . قيل ان الشاعر ابن الفارض كانت تعروه غيبوبة طويلة تدوم اياما ، فاذا افاق راح ينظم ما تكشف له من اسرار وما ادرك من معان .

لست اعرف ان ابا شبكة كانت تعروه مثل هذه الغيبوبات ولكن الذى اعلمه انه كان انغمر في التعبير عن تجربته الشعرية شغله الامر عمن

---

(١) نداء القلب ص ٢٥

(٢) المقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الاداب ، مما يتوصل اليه بنوع تصرف ويتحقق فيه بضرب تطلب ومقاساة تكلف . و "الحال" معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب . فالاحوال مواهب والمقامات مكاسب ، والاحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود . والمقامات سبع : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا . والاحوال عشرة : المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والانس والطمأنينة والمشاهدة واليقين . راجع : ر . أ . نيكلسون : الصوفية في الاسلام ص ٣٣ وما بعدها .

يجالســـون ، وعما حولـــه [١] واســتعاض عن غيبوبــة الصــوفي باحلام الشــاعر الرومانســي .

في هــذه الاحــلام يرى طيــف الحبيــب :

ايا قبلة مرت على ضــفتي فمي كطيــف حبيب مر في الحلم وانطلق [٢]

ويســتمد منه الوحي :

بروحــك مغمــورة يقظــتي ونشــوى بسحرك احلاميــه
وحلمي بحبــك لا ينتهــي وهــل تنتهي الغفلة الواعــيه
مصادر وحيك معقــودة بقلــبي رؤاها واجفانيـــه [٣]

ويســـتطيب الاغاءة اليــه :

ماذا على الحــب اذا لم يفــق هل دعــت الخمرة حتى نعي [٤]

---

(١) روى "ابو جعفر" ـ وقد كان معلما في مدرسة الاباء الكبوشيين في قرية الزوق ، وقضى فيها سبع سنوات فعرف الشاعر حق المعرفة ـ الخبر الاتي : "وافيته ليلة للسهر في بيت "غلواء" ولما دخلت عليه كان منهمكا في وضع قصيدة ، فحييته ، فأومأ الي بالجلوس قربه على مقعد خشبي . وكانت "غلواء" الى جانبه . فقضيت السهرة اتكلم معها همسا حتى لا نشوش جوه الشعري ، وحوالي الساعة العاشرة انصرفت بخفة كي لا ازعجه ، فشيعتني غلواء الى الخارج وبقي هو مكبا على عمله . وفي الغد التقيته فسألته ، هل اطال السهر بعد ذهابي ؟ فاجابني متعجبا : وهل كنت سهران معنا الليلة البارحة ؟ فلم اعجب لعجبه ، لاني كنت اعلم انه في حالة النظم لا يشعر بوجود احد ، حتى بوجوده . (راجع مجلة "الحكمة" العدد ٤ ص ١٤ سنة ١٩٥٢)

(٢) نداء القلب ص ١٦

(٣) نداء القلب ص ٢٥

(٤) نداء القلب ص ٥٦

بيد ان هذا الحب الذى يرقى به الشاعر ابعد الافاق ، وينتشي بخمرته اعذب الانتشاء لا يخلص من غيوم تمر بآفاقه ومرارة تشوب عذوبة خمرته ..

يشكو الشاعر من هؤلاء الناس الذين ينظرون الى حبه مستنكرين ، ويفترون عليه ما شاءت لهم نفوسهم المريضة :

لما اتينا في الحب اية نمت علينا عين الوشاية[1]

ثم يهاجمهم ، داعيا حبيبته الى تجنبهم :

يا مسكرى ابعد هواك الطرى
تعالي نمضي ، فهل في الناس الا الدوى
فالناس اما غبي اوعابث مفتر[2]

ويعود فينظر الى الامر كله نظرة الفيلسوف ، حين يرى هذا الشقاء الذى يلقاه احيانا ، ثمنا للسعادة التي ينعم بها :

خلقتك صورة مما هويت فخمر انت من وحيي وقوت
وتنزعك المزاعم من حقوقي كأني ما عشقت وما شقيت[3]

٥

---

(١) ذ نداء القلب ص ٤٣
(٢) نداء القلب ص ٥١
(٣) نداء القلب ص ٢٨

التعبير في "نداء القلب"

كتب رئيف خوري الى الشاعر، بعد ما قرأ "نداء القلب" رسالة جاء فيها "... سأذكر لك اعجابي بطابع الصيغة الكلاسيكية المتينة على كثير من مقاطعك في غير تزحف منك ولا تقليد، وانا اهتز للصيغة الكلاسيكية ..."(١)

وهذا الذي كتبه، صحيح تنطبق به قصائد كثيرة في "نداء القلب". ففي هذه المجموعة الشعرية يصل الشاعر من اللغة الى سامي منزلتها فاذا بشعره كلام يتخير فيه اللفظ جاره وتجري العبارة فيه سلسلة منتظمة الخطى، وقد ضاء فيها المعنى واتضحت الصورة.

وكيف لا يتمكن الشاعر من اللغة وقد تمرس بها سنوات طوالا كان فيها كاتبا سخي القلم وشاعرا ثري القلب، ثم كيف لا ترق وتصفو وهي الان نداء قلب ادركته بعد عذاب نعمة الحب السعيد، فطرب بعد اكتئاب وصحا بعد وجوم..

اسمع هذا الكلام السهل الممتنع وتأمل كيف تأتلف الكلمات في جمل، وكيف تتصل الجمل في عبارات ليس فيها حشو، وما بها من قلق او اضطراب:

الشاعران — تبارك الغزلان! — طرفي وطرفك حين يلتقيان
عيناي في عينيك: اشعر مايرى — قلبي وانقى ما يذيب حناني
يا خير من حنت اليها مهجة — واحب من غزلت لها عينان
الله من قبل طرفت بها دمي — قوتا ولم تدنس بها الشفتان
ارسلت فيك الشعر عفو سليقتي — والفن اخلصه من الوجدان
لم اغتصب حبر الكلام، وانما — عيناي من عينيك تغترفان

---

(١) المكشوف: العدد ٣٥٩ ص ١٣ سنة ١٩٤٤

أتلومني حطم النساء؟ فانني خلل الكلام نشقت عرف زواني
ورأيت اشواقا تود لو انها ريح يمر عبيرها ببياني (١)

ومن هذا البيان المشرق ، ومن حسن اختيار الشاعر بحور قصائده تموج في المجموعة موسيقى شعرية عذبة .

لقد اختار الشاعر لخمس عشرة قصيدة بحور العربي القديم الموحد القافية ، واستعمل اكثر من بحر وقافية في ست قصائد هي : "عودة الحب" و"العذاب الحي" و"ليل الصيف" و"استغراق" و الا ليالينا" و"الثالوث البكر"(٢) فكانت شبيهة كل الشبه بقصائد من مجموعة "الالحان" ، تحدثت عنها .

الا ان هذه الموسيقى العذبة المرحة النغم ان كانت قد لابست الحالات الشعورية المنبسطة التي عبر عنها الشاعر في اكثر قصائد المجموعة فهي قد كانت غريبة عن جو قصيدة "العذاب الحي" الحزينة التي لا تليق بها موسيقى الافراح هذه ولا البحر القصير هذا ، المتنوع القوافي .

يا حب عذب عذّب فؤادى
الهب عروقي اطفىء رشادى
وهات سهدى وخذ رقادى
يا حب عذب عذب فؤادى
سقيت روحي من الالم
فمن جروحي هذا النغم
وكل ما بي من العذاب

---

(١) نداء القلب ص ١٩ — ٢٠
(٢) نداء القلب ص ١٣، ٤٢، ٤٥، ٤٨، ٥٠، ٥٨

يـــذوب حـــبا على كـتابـــي
يفيـض نـــور من الشـــعور
على مـــداري
يا حـب عـذب عـذّب فؤادي (١)

كان " نـداء القلـب " نـداء النعـيم الـذى فاز بـه الشـاعر العاشـق بعد عـذاب المطهـر(٢) . وكان " ارض الميعاد " (٣) لا لقلبـه وحـده بـل لشـعره ايضـا ، ففي هـذه الارض الطيبـة صـفا قلبـه من عـذاب الماضـي الالـيم ، وصـفا شـعره فاذا هـو رقيـق في غير ضعـف ، متماسـك في غير صـلابة ، يسـير بهـدوء سـير الواثـق بثبات خطاه واتسـاع دربـه .

. . . . . .

(١) نـداء القلـب ص ٤٢ ـ ٤٣
(٢) لم يكن ماضي في الحب سوى مطهر افضى الى هذا النعيم (نداء القلب ص ٦١)
(٣) انت ارض الميعاد ما سمح الله بها او بمثلها لسوايا (نداء القلـب ص ٣٧)

" من صعيد الآلهة "

وقصائد أخرى

"من صعيد الآلهة" وقصائد أخرى

لأبي شبكة شعر لم تنتظمه دواوينه : "القيثارة" و "أغاني الفردوس" و "غلواء" و "الالحان ومقتطفات من غلواء" و "الى الابد" و "نداء القلب" وهذا الشعر متفرق في الصحف والمجلات . ولقد كان أبو شبكة عازما على جمع مراثيه للشعراء والادباء في كتاب صغير يسميه "من صعيد الآلهة" ولكن الموت عاجله قبل تنفيذه عزمه .

هذا الشعر الذي لم يتألف منه ديوان ولم تضمه الدواوين الستة يمكننا أن نقسمه الى اربع طوائف :

١ - مراثي الشعراء والادباء .

٢ - قصائد المناسبات .

٣ - "المريض الصامت" .

٤ - قصائد اخرى متنوعة .

وسأعمد الى عرض هذه القصائد ، أو الاشارة اليها بايجاز .

" من صعيد الالهة "

تتألف هذه الطائفة من شعر ابي شبكة من ست مراث ، هي :

١ - شاعر في نعش[١] - في رثاء فوزى المعلوف
٢ - رثاء الشاعر الياس فياض[٢]
٣ - مناجاة جبران[٣] - في رثاء جبران خليل جبران
٤ - شوقي وحافظ[٤] - في رثاء احمد شوقي وحافظ ابراهيم
٥ - عمر فاخورى[٥]
٦ - الحجر الحي - في تمثال فوزى المعلوف

ويكاد ابو شبكة ينفرد بطريقة خاصة به في الرثاء ، نراها واضحة في هذه القصائد الست ، وتقوم هذه الطريقة على تمجيد عام للشاعرية او الفن ، كما في قصيدته في رثاء الياس فياض :

ملي النور قبل عهد البدور فهو جزء من الضياء الكبير
اطلع الله في الحياة رجالا غمروا لجة الظلام بنور
هم بدور الاجيال ، هم شعراء الارض ، هم كهرباء هذا الاثير
كلما ذر شاعر في سماء شعر الليل بانقلاب خطير

وكما في رثائه فوزى المعلوف :

ليس للشاعر المسجى على الاحلام نعش من الجذوع حجابه

---

(١) مجلة الحارس ج ٦ ص ٤٤٠ سنة ١٩٣٠
(٢) المعرض ، العدد ٩٣٣ ص ٢ سنة ١٩٣٠
(٣) المعرض ، العدد ٩٦٥ ص ٦ سنة ١٩٣١
(٤) الجمهور ، العدد ١٠٧ ص ١١ سنة ١٩٣٩
(٥) الطريق ، العدد ١٤ ص ٤ سنة ١٩٤٦

ان نعشا تغلغل الخلد فيه عالم ضاق بالشموس رحابه
المسامير فيه من منجم النور ، ومن جنة الذرى اخشابه
عالم افقه الخيال الالهي ، ونور المخيلات سحابه
الشعور النقي كوثره المنساب والند والبخور ترابه
عالم قوته ثمار من الحب وخمر من السلام شرابه

وقد يلبس كفن الشاعر الميت ، ويروح يتحدث عن مجد الشعراء ، كما فعل في مرثية الياس فياض :

يا خيالا في الصبح خدر اجفاني ونورا في الليل كان سميري
قل لهم : استريح في قصري الملوك من بؤس بيتي الماجور
ربح السيف فانيات القضايا وربحت العلي ببعض سطور
ملك في دجنتي يتمنى مبسم الفجر لا يكون سفيري
دولتي بالخلود نيطت لاني لم اشدها بالعاج والبرفير

وهو لا يكتفي بتمجيد عام للشاعرية ، بل يقرن بهذا التمجيد تمجيدا ثانيا يخص به الشاعر المرثي ، كقوله في رثاء احمد شوقي :

ما على النور واللهب وعلى الزهر في الهضب
ان اتت شاعر العرب نائحات بمأتمه
بلبل الارض والسما ناشر النور فيهما
مالئ الارض حكمة وسما الحب انجما

وكقوله في رثاء عمر فاخوري :

اخي عمر الثاوي على الحب والرضى لقد اورق الحلم الذي كنت تزرع
كتابك مفتوح ووجهك ماثل وقبرك منشور الندى متضوع

.../...

وطابع شعر هذه المراثي يغلب عليه التأثر بالشعر المهجرى ، فهو تصويرى وجداني ، تتابع فيه الصور والاوصاف والتشابيه ، كأنما الشاعر رسام مبدع ، تنقل ريشته الطيعة الحساسه المشهد الجميل ، ممزوجا بصور من الخيال وحرارة من العاطفة .. من ذلك قوله في رثاء جبران :

عروسك عذراء من عبقر ... اتتك مصبغة بالخفر
تذيب عليك رؤى الانبياء ... معرفة برموز السور
من السحر في مقلتيها رشاش ... وللحب في شفتيها ثمر
فدغدغتها في خدور الربيع ... وعانقتها في خدود الزهر
غزلت لها هوة في الجفون ... تخدرها عفة في النظر
وغمست ريشة وحيك في شفتيها ... ولونت تلك الصور

وقوله في رثاء **فوزى المعلوف** :

في يديه ربابة وعلى جفنيه كحل تحار في الوانه
ان كحلا تراه في مقلة الشاعر تحنيط حبه وحنانه
هو فوزى اتى الى الخلد لا يحمل الا العفاف من لبنانه
وسوى آلة الشقا في يديه ... وجفاف الدموع في اجفانه
فاحاطت به من النور هالات صباح كأنها من بيانه
واتته النجوم في زورق الحب لتصغي سكرى الى الحانه

ويبدو هذا التأثر بالطابع المهجرى في تنوع الاوزان والقوافي ، كما في قصيدته "شاعر في نعش" وفي تنوع القوافي كما في قصيدته "شوقي وحافظ" . اما قصيدته "عمر فاخورى" فلها في طابعها ما تختلف به عن القصائد الاربع السابقة . فيها يقل حظ الخيال ليعظم حظ الواقع . لقد نظر ابو شبكة في قصائده السابقة الى المرثيين وهم في آفاقهم الفسيحة النائية فحلق وراءهم بخياله

ووجـدانه وراح يصـور عوالمهـم السـماوية ، بكلام هادىء الانسـياب كأنما هـو سـحابة في الفضـاء او شـراع في نهر . اما في قصـيدته "عمر فاخوري" فقـد نظر الى المرثي وهو في ارضـه فصـوره جزءا من مجتمعه ، يصـارع فيـه عناصـر الشـر ويـدعو الناس الى ارتياد السـبل الكريمة من الحياة :

اذا كان للاطماع والظلم مدفع فللذوق والاداب والنور مـدفـع
وسار وراء الحق والحـق مزمع الـى سـفر هيهات في الغيب يرجع
ولم يثنـه ان الرجاء بعـودة ضعيف وان الظـلم قـد يتربـع
فمن يكن الايمان حـيا بقلبه تعافى ولو سـادت ذئاب واضبـع
وكانت فصول لا هوادة عندها اجل من الفن الحلال واسـطـع
اذا سـلكت في الكبرياء تواضعت وان سلكت في الخانعين ترفعوا

وكأنما رأى في المرثي نفسـه ، وفي نهايته نهايتـه ، فوجـه نظـره صـوب وطـنه ، يلومـه ويختـم القصـيدة :

و يا وطنا بالحب نكسو اديمه فيحرمنا حتى جـناه ويمنـع
" اكـذب نفسي عنك في كل ما ارى واسمع اذني منـك ما ليس تسمع "

ويمكـننا ان نضيـف الى هـذه المراثي الخمـس مرثـية ثانية لفوزى المعلوف وان كانت نظمـت بمناسـبة اقامة تمثال لـه . وهي من شـعره الجامع بـين شـرف المعنى وصـفاء اللفـظ ، وانسـجام العبـارة .

اسـتهلها اسـتهلالا حسـنا حين تمثـل المرثي نسـرا انهى شـوطه ووصـل ظافرا ثم راح يصـف هـذا الشـوط الطويل وصعابه التي واجهها النسـر فغلبـها . وكما يفعـل كبار الشـعراء حين يسـمون بمواضيع قصـائدهم ، الى آفاق بعيـدة ، فيصـير

المشهد الصغير مشهدا كونيا ، ويغدو الشعور الفردى شعورا انسانيا عاما ، سما شاعرنا ـ ولكن في افق اضيق مما وصفت ـ فانتقل في حسن تخلص من اشارته الى يقظة الشاعر المعلوف في ليالي حياته الماضية ، الى تمجيد هذه اليقظة وتأنيب النائمين الذين تعتكر من حولهم الليالي وتشتد الحوادث :

يقظان والناس عمي في مراقدهم ... سيان ناموا على ذل ام احتضروا
عار علينا ننام الليل هانئة ... عيوننا ، وعباب الليل معتكر
لم يبق من رومة الا صفائرها ... ومن قياصرها الا دمى اخمر

ثم عاد الى ما كان بدأه من حديث عن الشاعر ورثاء له في اسلوب فريد رأيناه في المراثي الماضية .

جاءت عروسك في حلمي تخاطبني ... يصونها الملكان : الحب والخفر
شبابها قبل الاجيال في دمه ... كأنه بجمال الله مؤتزر
في مقلتيها نجوم للهوى جدد ... وفي يديها نجوم للعلى اخر
من جنة الخير غرس الخير ، ما نبتت ـ لو ذاقت الارض من اثماره ـ سقر
قالت : ثماري لم تبذل لغير فتى ... جرت به الدعة الخضراء والكبر
كم شاعر نورت في روحه قبلي ... فكل قبلة حب من فمي قمر
ولم اطأ قلبه الا على زهر ... وسادتي وفراشي قلبه العطر

٥

واليك ، بعد ما عرضته مجزأ من شعر الرثاء ، هذا النموذج كاملا :

شوقي وحافظ (١)

لا لقوم ولا لدين ... أنت للناس أجمعين
اهلك الوحي والهدى ... دينك الحق واليقين
سرت في الارض رافعا ... مشعل الخلد في الجبين
فكاني بك السما ... أودعت في لظى وطين
أنت للجيل ، انما ... للذرارى بعد حين
للطغاة المهدمين ... للبناة المشيدين
للملوك المخلعين ... للعبيد المتوجين
للصعاليك ، للذين ... خذروا الاسد في العرين
للزناة المسيطرين ... للاباة المستعبدين
أنت للشوك ، للورود ... للنبيين في القيود
للبذيين ، لليهود ... للنصارى ، للمسلمين
لا لقوم ولا لدين ... أنت للناس أجمعين
مصحف قصت السور ... فيه أسطورة البشر
كلما أسمع العلى ... آية شرف الصدر
حرم الوحي لون الحب في عدنه الصور
فعلى كل صورة ... مرضع القلب والبصر
صور غض بالروى ... وتجلين بالفكر
فكأني بهن أحدرن من عبقر أثر
يا فخورا بزفرة الشعر والحب في الوتر
هازىء القلب بالطرد ... ضاربا بالدمى الاخر
نسك الفن - حين قبلته - فيك وانحصر
أيها الحارس الامين ... هيكل المنطق المبين

يا أمير المشرديـــــــــــن اخوة الشمس والقمـــــــــــر
... ما الصبى في ترنمـــــــــه في هواه وفي دمـــــــــــه
وصباح الربيع يفتـــــــــــر عن عاج مبسمـــــــــــه
والسماء الولهان يصغـــــــي لهمسات انجمـــــــــه
والاقاح البرىء ينفـــــــت احـــلام برعمـــــــــه
مثـــل سحر تذيبـــــــــه روح شوقي بمرقمـــــــــه
ما الهوى في تألمـــــــــه والدجى في تجهمـــــــــه
والسما في انتقامـــــــا واللظى في تضرمـــــــــه
وصراخ البرىء فـــــــي نزوة من تظلمـــــــــه
والمحرى على الـــــــورى ثائـرا في تهكمـــــــــه
مثل شوقي تثيـــــــره غضبة من جهنمـــــــــه
ما على النور واللهـــــــب وعلى الزهر في الهضـــــــب
ان اتت شاعر العـــــــرب نائحات بمأتمـــــــــه
بلبل الارض والسمـــــــا ناشر النور فيهمـــــــا
مالىء الارض حكمـــــــة وسما الحب انجمـــــــا
يا اخا المعدمين مـــــــا كنت في الناس معدمـــــــا
انما البؤس ذقتـــــــه في فؤاد تألمـــــــا
في نفوس تظلمـــــــت وشعور تظلمـــــــا
عشت كالنور ملهمـــــا وكعباس متخمـــــــا
ثمن الغار مـــــا دفعـــــت دموعـا ولا دمـــــا
ايه شوقي فحافـــــظ كان اشقى ... واعظمـــــا
كان يستلهـــــم البـــــؤس وتستلهـــــم الدمـــــى
كنت تغفي متيمـــــا حينما يغفي ميتمـــــا

قصائد المناسبات :

قصائد المناسبات عند ابي شبكة ليست بالكثيرة . وقد نظم بعضها في مناسبات عامة والبعض الاخر في مناسبات خاصة . ومن هذه القصائد : " الى امير الشعراء "(١) وقد القاها في حفلة غداء اقامها احمد شوقي في منتدى الغزيرى ببيروت تكريما لعصبة العشرة (ميشال ابو شهلا والشيخ فؤاد حبيش وكرم ملحم كرم والياس ابو شبكة) سنة ١٩٣٠ و " الى ابراهم المعلوف "(٢) وقد نظمها في مولد ابراهيم بن شاهين المعلوف سنة ١٩٣٠ و " الى سليم بك تقلا تهنئة له بزفافه السعيد "(٣) و " قران ميمون "(٤) وقد هنأ بها العروسين منصور مخلوف واوجيني تقلا ، وقصيدة في تهنئة يوسف ابو ورده بزواجه(٥) — وهو من اصدقاء الشاعر في الزوق — و "اسطورة "(٦) وهي في تكريم الشاعر شفيق المعلوف و " الى صاحب الجلالة "(٧) وقد نظمها في تحية جلالة الملك فيصل الثاني ، يوم قدم الى لبنان للاصطياف فيها عام ١٩٣٩ وقصيدة في تكريم الاستاذ الياس شبل الخورى رئيس الجامعة الوطنية (٨) وقد القاها في عاليه سنة ١٩٣٩ و " قبر طولون "(٩) وهي في فاجعة الاسطول الفرنسي في طولون سنة ١٩٤٢ و " نهر البردوني "(١٠) وقد انشدها في زحله بمناسبة افتتاح موسم الاصطياف .

---

(١) المعرض . العدد ٩١٥ ص ٤ سنة ١٩٣٠
(٢) المعرض . العدد ٩٢٤ ص ٦ سنة ١٩٣٠
(٣) المعرض . العدد ٩٥٦ ص ٣ سنة ١٩٣١
(٤) المعرض . العدد ٩٦٨ ص ٦ سنة ١٩٣١
(٥) العاصفة . العدد ٧٢ ص ٩ سنة ١٩٣٤
(٦) العاصفة . العدد ١٠٩ ص ١٨ سنة ١٩٣٧
(٧) الجمهور . العدد ١٢٦ ص ١٣ سنة ١٩٣٩
(٨) المكشوف . العدد ٢٠٨ ص ٤ سنة ١٩٣٩
(٩) الاديب . المجلد ١٢ ص ٢ سنة ١٩٤٢
(١٠) البرق . العدد ٣٣٧٩ ص ١٦ سنة ١٩٣١

وابو شبكة في شعر المناسبات الخاصة يلجأ الى احد منهجين ، فهو اما ان يطبع القصيدة بطابع المرح والدعابة كما فعل في تهنئه يوسف ابو ورده او يطبعها بطابع الجد ، وهنا ينتقل من موضوعها الضيق الى افق اوسع منه فلا يبقى لمن قيلت فيه القصيدة الا الا القليل من ابياتها من ذلك قصيدته "قران ميمون" بدأها بقوله :

ما في الوجود مسيطر جشع ... غير الغرام يزينه الطمع
يعطى ولا يعطي وان مرد ت ... كفاه لا يبقي ولا يدع
طلق ، موحدة رغائبه ... بينا المطامع حوله شيع

وختمها بقوله :

فاعشق فان العشق موعظة ... قدسية للناس لو سمعوا
وهياكل الحب الصحيح اذا ... ما القلب نورها هي البيع
الله باركه ، وطهره ... روح من الزوجين يرتفع
هذا الهوى والله ابدعه ... تنحط عن تمثاله البدع

بدأها بالغرام وختمها به . اما "القران الميمون" فلم يكن له من القصيدة ما يزيد كثيرا عن عنوانها ، واما منصور فكان حظه منها اربعة ابيات .. كاملة .

وينحدر مستوى بعض شعره في المناسبات الخاصة ، كقصيدته "نهر البردوني" ففيها من علائم هذا الانحدار ان الشاعر يعمد الى المبالغات ويجسم الصور كأنما هو قد شعر بضعف قصيدته فراح يلهي قارئها بما يبهره ويدهشه . ومن هذا القبيل قوله :

يا مطربا هز الورى

.../...

وقولـــــه :

هــذا جبيــنك صفحــة علوية فارفــع جبينـــك
تاج على عــدن الزمان وكل ما في الارض دونك
لقــد اســتدانك مفــرق الدنيا ولم يــدفع ديونـــك

وهو يبالــغ ايضــا في العجــب ، فقــد تعجــب في هذه المقطوعــة وهي مؤلفة من اثني عشــر بيتا ، اربــع مرات :

اجمل بحورك ان يزينــك وعيون اســدك ان تصونك

٥

يا مطربا هــز الــورى يا نهر ما اشــجى رنينــك

٥

عجبا الا يشــدو الالى اوتوا الكـــلام ويســمعونك

٥

واذ الورى عقــت يــداه جننت ما احلى جــنونــك

ومن عــلائم ضعــف القصيـــدة ان الشــاعر يســتنجد بعقلــه ، فيأتيــه بصور فكــرية ، واقعــية يتعلــق بها ويفصــلها ، لتســترنعاس الحالة الشـــعورية عنــده . ومن هـــذا النحــو قولـــه :

لقــد اســتدانك مفرق الدنيــا ولم يــدفع ديونـــك
ارضعتــه لــبن الهوى وســـقيته حتى عيونــك

٥

وقصائد ابي شبكة في المناسبات العامة من الشعر الجيد ، يهتم لنظمها كما يهتم لشعره الغرامي . وهو يتخير لها من البحور ما لا ءمها ، فقصيدته " الى امير الشعراء "(١) همزية من بحر " الكامل " كقصيدة شوقي الهمزية التي مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

وقصيدته " اسطورة " متنوعة الاوزان والقوافي ، خيالية ، تصويرية كالكثير من شعر المهجر ، وشعر شفيق معلوف نفسه . وقصيدته " الى صاحب الجلالة " قافية متينة الاسلوب ، عامرة بالجزالة وهي من بحر الكامل ايضا ، وشبيهة بقصائد شعراء الجزالة المعاصرين كحافظ ابراهيم وعلي الجارم

واليك هذه القصيدة كاملة :

---

(١) مطلعها :

بارك نبي الوحي قلبي انه من قلب شوقي نقطة حمراء

الى صاحب الجلالة (١)

عهد على ذمم الشباب وموثق ... والشرق فخر ، يا ابن غازى عريق
جمعت شعور الخلق فيه مصيبة ... الله اكبر كيف شد المشرق
لمع لوجه ابيك في سلطانه ... عشقت به وعلى اديمك تعشق
ما كان لبنان اقل من الورى ... املا بما تعطى العراق وترزق
شاهدت ملكا كالخيال رواقه ... ارث على حدق الزمان معلق
الرفد مبسوط على جنباته ... والشرق عرش في حماه وبيرق
ورأيت امجاد الرشيد كأنها ... في تاجك الممدود ظل ضيق
ورأيت اجيالا بناة حضاره ... العدل من اركانها، والمنطق
رحم السياسة لا يعق اخوة ... فيها ، ويشقى الابرق المتملق
ورأيت دين الله في آدابها ... لا ظالم فيه ولا مسترزق
ورأيت من خمر السماء وعطرها ... يسقى على تقوى النفوس وينشق
ورأيت دار العلم وارفة الحجى ... يعتد دنيا نورها المتألق
تقرى القلوب بها ، ويعطف ثديها ... ادب الحياة على الزمان ، فيورق
في كل حاضرة تضيء شعاعة ... من فضلها ، وبكل نفس رونق
ورأيت للشعراء في اعيادها ... قدحا شراب المجد فيه مروق
الرافدان لهم فثدى منهما ... حرم على الدنيا وثدى مطلق
وكان دجلة والنخيل بدجلة ... لهم شراع للخيال وزورق
ورأيت مملكة العراق ولاية ... يزهو بها الملك العظيم ويشرق
والغرب ظمآنا يحج الى العلى ... فيها ، يعل من الوفاء ويلعق
فنعلم الدنيا المروءة والندى ... والخمر في الميثاق كيف تعتق
ورأيت في بردیك فرع خلافة ... عرق لعمرك للنبوءة اعرق
تحيي به الصحراء ماضي عهدها ... فتعود آمال الورى تستشرق

روءيا محبرة الكلام على فمي ... جفني عليها مطبق مغروق
ابذمة الشعراء شعب مطلق ... وبذمة الحكام شعب موثق
انظل نقتل في البرامك جعفرا ... ونظل نغرق في دماه ونزلق
ونظل في الدنيا قبائل كلما ... شدت الى ان يستريح مطلق
يا قبر فيصل في العراق تحية ... ستكون للاجيال بابا يطرق
وتكون فيك عظام غازى شفرة ... تستل من غضب الدماء وتمشق
النهضة الكبرى مثلث اسها ... في فيصل ، وبناوءها في من شقوا
المنشدين على الزمان ملاحما ... حمرا باعراف البطولة تعبق
صرفوا عن الدنيا لذاذات الهوى ... والمجد اكرم ما يحب ، وأصدق
وتفرقوا ليل الصفا ، وتجمعوا ... نارا ، فهم زبد اللظى المتدفق
نذروا الجهاد فكل حي فيلق ... للتضحيات ، وكل بيت خندق

احفيد فيصل عاش جدك فيصل ... في مقلتيك وفي جبينك يرمق
فانزل على امل القلوب فانما ... لبنان آمال بحبك تخفق
قلب عليك ومرضع ، فجباله ... لك ساعد ومروجه لك مرفق

الياس ابو شبكة

---

(١) (الجمهور العدد ١٢٦ ص١٣ سنة ١٩٣٩). نظمت في تحية الملك فيصل الثاني ، يوم قدومه للاصطياف في لبنان، وهي احدى قصائد عديدة نظمت في هذه المناسبة منها دالية بدوى الجبل .

" المريض الصامت " :

هي قصيدة كبيرة نظمها الشاعرعام ١٩٢٨ .. وهي تروى قصة شاب عاشق ، احب فتاة مصرية ثم مرض بداء الصدر وما زال مرضه يشتد حتى مات ، وكان موته في زحله .(١)

والقصيدة هذه ، مبنية على قصة سمعها الشاعرعن شاب مريض .(٢) ثم اضاف اليها مشاهد وصورا مما ابتكره خياله الرومانسي .

وحالة ابي شبكة الشعورية في هذه القصيدة لا تختلف عن حالته في " القيثارة " . وهو لم يخترهذا الموضوع لقصيدته الا لانسجامه مع نفسيته ومشاعره الغرامية اليائسة ، فهذا الشاب الذى يستعد للقاء الموت في سكون هو شاعر " القيثارة " نفسه الا انه هنا امتن عبارة واسلس ديباجة .

واذا اردت الدليل فاليك هذا المقطع من القصيدة :

هذيان في الظلام (٣)

عندذا هب جالسا وتهيا ... ليناجي غرامه العذريا
وخفيف الصفصاف يهمس في النهر كلاما عن الحياة خفيا !
قال : اصغي الي اني فان ... فالقوى لن تعود يوما اليا
انا امشي الى الضريح حثيثا ... فعذابي يثور في رئتيا !
اى نفع ترجينه يا عروسي ... من بكاء ما عاد ينفع شيا ؟

---

(١) جريدة البرق العدد ٢٩٥٩ ص ١ سنة ١٩٢٨
(٢) اولغا ساروفيم : من حديث خاص اذنت بنشره
(٣) جريدة البرق . العدد ٢٩٥٩ ص ١ سنة ١٩٢٨

اى نفـــع والموت ينسج ثوبي بخيوط الظـــلام من مقلتيـــا ؟
ارجعي ، ارجعي ،فتذكار حبي وليالي بات ثقـــلا عليـــا
ارجعي ، انني ابيت وما اصبح غير الديدان يرغـــب فيـــا !
في شواطي النيل السعيد مياه فاساليها غدا زلالا شهيا
واستعيدى به هوى وشبابا . " نيلك " العذب غير" برد ونيا"
واذا ما مررت تحت نخيل الزهـــر يوما حيث ابتسمنا ملـــيا
حيث كنا نبني قصور الاماني حيث كنا نجني الشباب النديا
حيث كنا نلقن الحب درسا فيعبه النخيل من شـــــفتيا
فاحذرى وقعه هناك لئلا تســـمعي من قم النخيل نعيا

قصائـــد اخرى متنوعة :

من هـــذه القصـــائـــد قصيـــدة" اليتـــيم " وهي قصيـــدة القاها فـــي "حفلـــة "اليتيم " بالجامعة الاميركية في بيروت مساء ١٠ اذار سنة ١٩٤٤ . وهـــو وان اســـتجاب في نظمها الى طلب القائمين على امر الحفلة ،لم يكن متكلفا في نظمها لان في نفسه من التجارب الشـــعورية ما يتصل بموضوعها اتم اتصال . فقـــد عرف اليتـــيم منـــذ طفولته ،وعرف نوعا آخـــر من اليتيم ،حـــين احس انه في مجتمع شـــرير لا تصلـــه بـــه قرابـــة .

والقصيـــدة من جيـــد شـــعر ابي شـــبكة المتفرق ،يكشـــف فيها عـــن شـــعوره الانســـاني ،ثم يهاجم اشـــرار المجتمع ،ويمجـــد الشـــعر واهله ،

وتتجمع كل هـــذه القـــيم الشـــعورية في كلام منســـجم العبـــارة ، وفي بحـــر حبيـــب الى شـــعراء المنابر ، هو بحـــر" الكامل "

.../...

ومنها قصيدة "الوحوش"[١]. وقد اتبع فيها اسلوبا روائيا . نرى منه مشهد شيخ فان في الستين من عمره يكلم سلطانا ، فيذكر له ما كان عليه اجداده السلاطين الاباه من ايمان وما كانت عليه الارض من نعيم ، ثم يشير الى انحراف السلطان عن منهج اسلافه ، وعاقبة هذا الانحراف السيئة .

ومنها قصيدة "لقد قسم الله الحظوظ ...[٢]" وهي قديمة نشرها عام ١٩٢٨ تمثل صراع الشاعر والمجتمع . فهو يهاجم بها عائبيه وحاسديه ، ثم يفخر بنفسه ، ويذكر حبه وحبيبته ، وما يتعرض له هذا الحب من الاقاويل والتهم . ثم يجد السلوى في عذاب المحبين من شعراء العرب القدماء ، عنترة العبسي وعروة بن حزام وقيس بن الملوح .

والقصيدة تحمل طابع شعر "القيثارة" .

ومنها "نداء الى ادباء الامة[٣]". وفيها "خطرات لفيكتور هيغو" كما ذكر ابو شبكة في صدرها .

في هذه القصيدة يعمد الشاعر الى مثل نهج معاصريه في الشعر الاجتماعي ، فهو يتحدث عن موضوعه بطريقة مباشرة ، كما يفعل الكاتب الاجتماعي ، فيعرض الحال كما هي ، ويستفز الهمم كالواعظ المتحمس .

انه ينادي ادباء البلاد ، فيذكرهم عظم اقدارهم ، وخطورة واجباتهم ويستثير عزائمهم لمكافحة الطغيان :

لا تهابوا العتي مهما تسامى ان يكن قمة فانتم بروق

---

(١) المشرق ج ٢ ص ٣٩ تشرين الثاني ١٩٤٥
(٢) المعرض . العدد ٦٩١ ص٤ سنة ١٩٢٨
(٣) العاصفة . العدد ٧١ ص ١٩ سنة ١٩٣٤

حسبوكم - وقد سكتم - ضعافا فبغت عصبة وحار فريق
حين يلهي الطغاة حكم غليظ كيف يلهي الاديب شعر رقيق

ومنها - اخيرا - مقطوعته الطريفة "عصا ى السوداء (١)" وهي ابيات نظمها في وصف عصاه السوداء التي ورثها عن ابيه وكانت صاحبته زمنا طويلا حتى اختطفها منه الجند في يوم كان الناس فيه يتظاهرون في بيروت - كما ذكرت ذلك من قبل (٢)

وهذه هي المقطوعة :

عصا ى السوداء

عجوز تزيت بزى الدجنة ولقنها ساحر الليل فنه
تناهت الى والدى من ابيه واورثنيها عجوزا مسنه
لئن كشرت في الدجى عن ظلام اخاف طيوف الظلام وجنه
اذا هبط الليل ارخي لها على حصيات الطريق الاعنة
فيسمع من صلبها العاشقون - وقد ارقوا - رنة بعد رنة
وان رنين عصا ى انين قلوب الخليين ظنته غنه
انين سرى من عروقي اليها فرن بها كصليل الاسنة

---

(١) المعرض . العدد ٨٩٢ ص ١٥ سنة ١٩٣٠
(٢) انظر هذه الرسالة . الفصل الاول ص ٢٢

" نهـــــايـــة الطـــــريـــق "

.....

نهاية الطريق

في عام ١٩٤٤ شعر الياس أبو شبكة بأعراض الداء الذي فتك به بعد ثلاثة اعوام . وقد راح - كما ذكر فؤاد حبيش [١] وزوجه أولغا [٢] - يحاول قهره بالكهرباء تارة وبخلاصة الكبد ثانية ، وبعلاجات اخرى الا ان كل ذلك لم يجده وظل الداء قويا .

كان هذا الداء سرطان الدم ، وهو داء فتاك تأكل فيه الكريات البيض جاراتها الحمر وما تزال كذلك حتى تورد المريض الردى .

وفي آواخر عام ١٩٤٦ اشتدت وطأة الداء ، فلزم الشاعر المريض فراشه في "الزوق" شهرا كاملا ثم أشار عليه الاطباء ان ينتقل الى مستشفى فانتقل الى المستشفى الفرنسي ببيروت .

كان الداء أقوى من طب الاطباء فما استطاعوا الا ان يخففوا عن الشاعر المتألم آلامه بأن يخدروه بالمورفين ويمنوه بالشفاء فقد رأوا في عينيه حبه الحياة .. الحياة التي نضّرتها "ليلى" .

ولكنه على حبه الحياة ، واحساسه بخطورة مرضه ، وتألمه منه ، ظل أشم الروح فما تذمر أو نطق بكلمة ضعف واحدة ، بل انه كان على فراش أوجاعه يداعب اهله وعائديه ويطرفهم بالنوادر ويضاحكهم . وقد استمد هذا الصبر من ابائه الذي عرفنا انباءه ، ومن تدينه . كان يقول لزوجه وهو في المستشفى : صلّي . فاذا شرعت بالصلاة راح يردد ها معها بخشوع وايمان . ولقد أكمل واجباته الدينية عدت مرات .

---

(١) دراسات وذكريات ص ١٦٢ - ١٦٤

(٢) من حديث خاص اذنت بنشره

وحوالي الساعة الرابعة من صباح الاثنين ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٧ أغمض عينيه ، بين يدى غلواء .

وشيع الى مقره الاخير في مقبرة بالزوق ، وعلى القبر وقف مارون عبود يلقي باسمه ، وبالنيابة عن اخوانه الادباء كلمة الوداع ، ومنها :

موت الشاعر

" لا سراج يضيء وينير بعدما ينطفىء الا الشاعر والاديب .

والذى يكبر بعد الموت هو الاديب الحق ، والشاعر المبدع .

والخسارة التي لا تعوض على لبنان هي أن يبكر ادباؤه في الرحيل ، ويبارحوا الديار قبل الموعد .

مات الياس شاعر الحب والالم حين نضج . مات حين رجونا أن يضيف الى كتاب أدبه الحي صفحات جديدة كاخواتها الباقيات . فللشباب طعم ، وللكهولة دسامة ، وللشيخوخة حلاوة ما دام العقل في الرأس ... " (١)

(١) المكشوف . العدد ٤٤٩ ص ٢ سنة ١٩٤٧

انه لكسب عظيم للانسانية أن ينطلق على ميادينها الرحيبة أناس ذوو مواهب وعزائم ، يخطون طرقهم ، ويبتكرون ولا يقلدون ، فاذا بلغوا نهاية هذه الطرق خلفوا وراءهم آثار خطى تقول : من هنا مروا !

واذا كان هؤلاء قليلين في تاريخ الانسانية ، فامثالهم في تاريخ الشعر أقل . والامة التي تظفر بشاعر مبدع بين ابنائها تظفر بخط عظيم .

في هذه القمة التي يرتقيها عظماء الرجال والشعراء يقف أبو شبكة ، فقد كان شاعرا مبدعا حقا . صهر في شخصيته القوية عناصر ثقافته المتنوعة المنابع ، وعبّر بصدق وجرأة عن تجاربه الشعورية ، وميّز شعره بطابع واضح من الاصالة والجدة والابتكار ، وجعل من حياته وادبه حلقة متصلة الاسباب.

أما رومانسيته فلم تكن مظهرا شعريا فحسب ، بل كانت ـ كرومانسية كبار الشعراء الاوروبيين ـ موقفا انسانيا امام اعمق مشاكل الحياة ، ووعيا شاملا لها ، ورغبة في حلها .

" وان نحن شئنا أن نسير قدما ، وبايمان فعال ، فنحن نستطيع أن نلقى عند الرومانسيين كثيرا من التشجيع ، فما هم بالخائفين او المنهزمين . ان تحفزهم وخيالهم اذ يقودان نياتنا الحسنة يستطيعان أن يساعدانا على أن ننقذ عالمنا من هوة الزيف والشر والقبح ." (١)

والرومانسية اليوم تنتقل الى حيز الفلسفة باسم "الوجودية" جاعلة من "الانسان" محورا لها ومشددة على ضرورة كونه نقطة البدء في ارتباطه بالوجود (٢). ومهما تكن الاراء في "الوجودية" فهي محاولة جديدة من محاولات الانسان لمعرفة موقفه بين حريته ومسؤوليته .

---

(١) E. Bernbaum: Anthology of Romanticism P. 28

(٢) الدكتور جورج طعمه : من حديث خاص أذن بنشره .

المصـــــــادر

أ - الكتـــــب

أبو شادي ، أحمد زكي وآخرون — "دراسات في الادب الامريكي" مطبعة مصر. القاهرة ١٩٥٥ ؟

أبو شبكـة ، الياس

١ - "اغاني الفردوس" دار المكشوف . بيروت ١٩٤٨. الطبعة الثانيـة.

٢ - "الى الابد" دار المكشوف. بيروت ١٩٤٥.

٣ - "الالحان ومقتطفات من غلواء" دار المكشـوف. بيـروت ١٩٤١.

٤ - "روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة" دار المكشوف. بيروت ١٩٤٣.

٥ - "طاقات زهور" المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٢٧.

٦ - "العمال الصالحون" المطبعة الكاثوليكيـة. بيروت ١٩٢٧.

٧ - "غلـواء" مطبعة صادر. بيروت ١٩٤٥.

٨ - "القيثارة" مطبعة صادر . بيروت ١٩٢٦.

٩ - "نداء القلب" دار المكشوف . بيروت ١٩٤٤.

بابت ، ارفنـــج — Babbit, Irving
Rousseau and Romanticism (New York, 1955)

بتشلر ، جستس . وآخران — Buchler, Justus and others
Introduction to Contemporary Civilization in the West (Columbia University Press 1946)

بيرنباوم ، ارنست — Bernbaum, Ernest
Anthology of Romanticism (Third Edition New York)

البستاني ، بطرس — "أدباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث" مكتبة صادر . بيروت ١٩٤٤ . الطبعة الثانية .

البستاني ، فؤاد افرام — "الروائع ـ الشيخ ابراهيم اليازجي ـ في اللغة والادب" . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٥٢ .

تشارلتن ، هـ . ب . — "فنون الادب" مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٥ . ترجمة زكي نجيب محمود .

جويو ، ج . م . — "مسائل فلسفة الفن المعاصرة" مطبعة الاعتماد . القاهرة ١٩٤٨ . ترجمة سامي الدروبي .

حبيش ، فؤاد . وآخرون — "الياس أبو شبكة . دراسات وذكريات" دار المكشوف . بيروت ١٩٤٨ .

حميده ، عبد الرزاق — "في الادب المقارن" مطبعة دار العلوم . القاهرة ١٩٤٨ .

سعيد ، جميل — "اتجاهات الادب الانجليزي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" دار المعارف . القاهرة ١٩٤٩ .

ضيف ، شوقي — "دراسات في الشعر العربي المعاصر" مطبعة دار الهنا . القاهرة ١٩٥٣ .

عبود ، مارون — (أ) "مجددون ومجترون" دار العلم للملايين · بيروت ١٩٤٨ ·
(ب) "جدد وقدماء" دار الثقافة · بيروت ١٩٥٤ ·

غريب ، روز — "النقد الجمالي وأثره في النقد الادبي" مطابع دار الكشاف · بيروت ١٩٥٢ ·

فيصل ، محمد روحي — "من النقد الفرنسي" نشر مكتبتي العمومية والبابيروس · دمشق · سنة ؟

كرايتن ، جيمس ، ي · — Creighton, James, E. The Encyclopedia Americana (Vol. 23 P. 655) New York 1951

كرم ، أنطون غطاس — "الرمزية والادب العربي الحديث" دار الكشاف · بيروت ١٩٤٩ ·

لبكي ، صلاح — "لبنان الشاعر" مطابع المرسلين اللبنانيين · جونيه (لبنان) ١٩٥٤ ·

لامرتين ، الفونس — "سقوط ملاك او الهة لبنان" مكتبة صادر · بيروت ١٩٢٧ · ترجمة الياس أبو شبكة ·

المعري ، أبو العلاء — "لزوم ما لا يلزم" مكتبة صادر · بيروت ١٩٥٢ ·

مندور ، محمد — "في الادب والنقد" مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر · القاهرة ١٩٤٩ ·

"مير، ج ٠ هـ٠ "و "وورد، ا٠ س٠"
Mair, G.H. and Ward, A.C.
Modern English Literature

نيكلسون، ر ٠ ا٠ " الصوفية في الاسلام " نشر مكتبة الخانجي ٠
القاهرة ١٩٥١٠ ترجمة نور الدين شريبه٠

"مختارات من الياس أبو شبكة" الجزء ٥٤ من مناهل الادب
العربي ٠ مكتبة صادر ٠ بيروت ١٩٥٣٠

ب ـ المجـــــــلات

١ ـ	أبـولـو	ـ القاهـرة ، مصـر
٢ ـ	الآداب	ـ بيـروت ، لبنـان
٣ ـ	الأديـب	ـ بيـروت ، لبنـان
٤ ـ	الأمالـي	ـ بيـروت ، لبنـان
٥ ـ	البـرق	ـ بيـروت ، لبنـان
٦ ـ	الثقافـة	ـ القاهـرة ، مصـر
٧ ـ	الجمهـور	ـ بيـروت ، لبنـان
٨ ـ	الحـارس	ـ بيـروت ، لبنـان
٩ ـ	الحكمـة	ـ بيـروت ، لبنـان
١٠ ـ	الرسالـة	ـ القاهـرة ، مصـر
١١ ـ	العاصفـة	ـ بيـروت ، لبنـان
١٢ ـ	العصبـة	ـ سان باولو ، البرازيـل
١٣ ـ	الكاتب المصري	ـ القاهـرة ، مصـر

١٤ - المجالس المصورة - بيروت ، لبنان
١٥ - المشرق - بيروت ، لبنان
١٦ - المعرض - بيروت ، لبنان
١٧ - المقتطف - القاهرة ، مصر
١٨ - المكشوف - بيروت ، لبنان
١٩ - مينرفا - بيروت ، لبنان